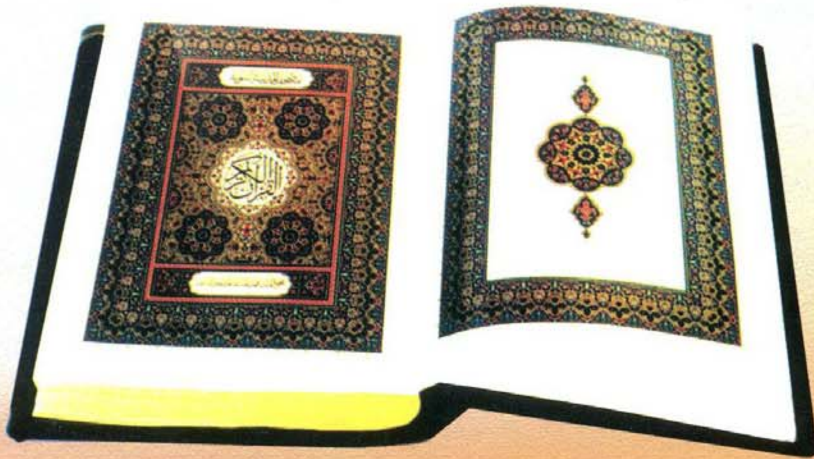
معجم الأمكنة الوارد ذكرها في القرآن الكريم



تأليف

سعد بن عبد الله بن جنيدل

رفع
المسـهم

معجم الأمكنة الوارد ذكرها في القرآن الكريم

تأليف
سعد بن عبد الله بن جنيدل

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن جنيدل ، سعد بن عبدالله

معجم الامكنة الوارد ذكرها في القرآن الكريم. / سعد بن عبدالله ابن جنيدل .- الرياض، ١٤٢٣هـ

٤٣٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٩ - ١٦٤ - ٤٣ - ٩٩٦٠

١- القرآن - معاجم أ- العنوان

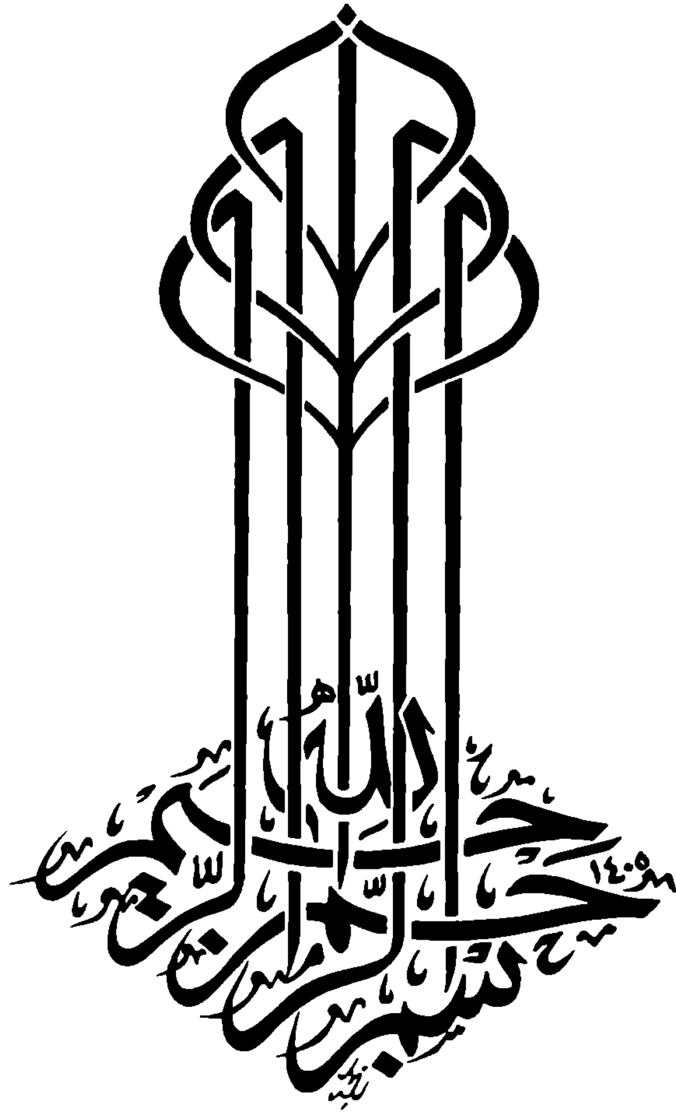
ديوي ٢٢١,٣ ١٤٢٣/٤٧٤٦

رقم الإيداع: ١٤٢٣/٤٧٤٦

ردمك: ٩ - ١٦٤ - ٤٣ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٠٥



مقدمة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين .

أحمد الله وأستعينة ، وأصلى وأسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبة أجمعين ، وبعد :

أن هذا الكتاب الذي أقدم له ، وقد منّ الله عليّ بأن هداني لتأليفه . ووفقنى وأمدني بعونه لانجازه ، هو ثمرة جهد متواصل وحصيلة عدة سنوات قضيتها في البحث والأعداد والتأليف .

ومن أهم الدوافع التي دفعتني إلى تأليف هذا الكتاب :

أولاً : شرف موضوعه ، لا سيما وأنه يمثل جانبا من جوانب تفسير كتاب الله الكريم- ولا أبالغ- إذا قلت أنني شعرت بلذة وارتياح في تأليف هذا الكتاب وتمتعت فيه بعون الله وتيسيره ، رغم ما بذلت فيه من الجهد المتواصل خلال سنوات متتالية ، وما يعترضني من صعوبات .

ثانياً : أن هذا الكتاب فريد من نوعه لأنه لم يسبق أن ألفّ له نظير على غرار ، خاصا بالأمكنة الواردة في القرآن الكريم ، تحديدا ووصفا موجزاً مفيداً لما جرى في هذا الأمكنة من أحداث ، في داخل الجزيرة وفي خارجها ، حسب علمي .

ثالثاً : منذ سنوات ، في الفترة التي كنت فيها أعمل في (مركز البحث العلمي) التابع لجامعة الأمام محمد بن سعود الاسلامية ، في الرياض مرّت عليّ قضايا مختلفة تبيّن لى من خلالها الحاجة الملحّة لتأليف هذا الكتاب ليكون مرجعاً للباحثين ، يجدون فيه ما يحتاجون اليه في هذا الباب سهلا ميسرا ، يصلون فيه الى أهدافهم دون عناء ، وذلك أن هذا الكتاب قد رتّبت أسماء الأمكنة فيه ترتيباً هجائياً على طريقة المعاجم الجغرافية القديمة مثل :

معجم البلدان تأليف ياقوت الحموي ، ومعجم ما استعجم تأليف البكري رحمهما الله - .

قد اخترت المراجع لهذا البحث من الكتب الموثوقة القديمة والحديثة في مختلف الفنون التي لها صلة بهذا البحث ، من كتب التفسير والحديث والسير والجغرافيا واللغة والأدب والأطالس الجغرافية والخرائط وتحريّت الدقة في اختيار النصوص وتحرّى الشمول فيما أدوّنه من موجز الأحداث التاريخية ، معتمدا على أشهر المصادر الإسلامية ، فجاء الكتاب شاملاً لكل المواضع مستوفيا بصورة موجزة لأحداثها .

وأسأل الله تعالى أن يمنحنى فسحة بالأجل وأن يمدّنى بعونه لاتمام ما عزمت عليه ، وأن يجعله جهداً خالصاً لوجهه الكريم ونافعاً موصلاً للغاية المنشودة .

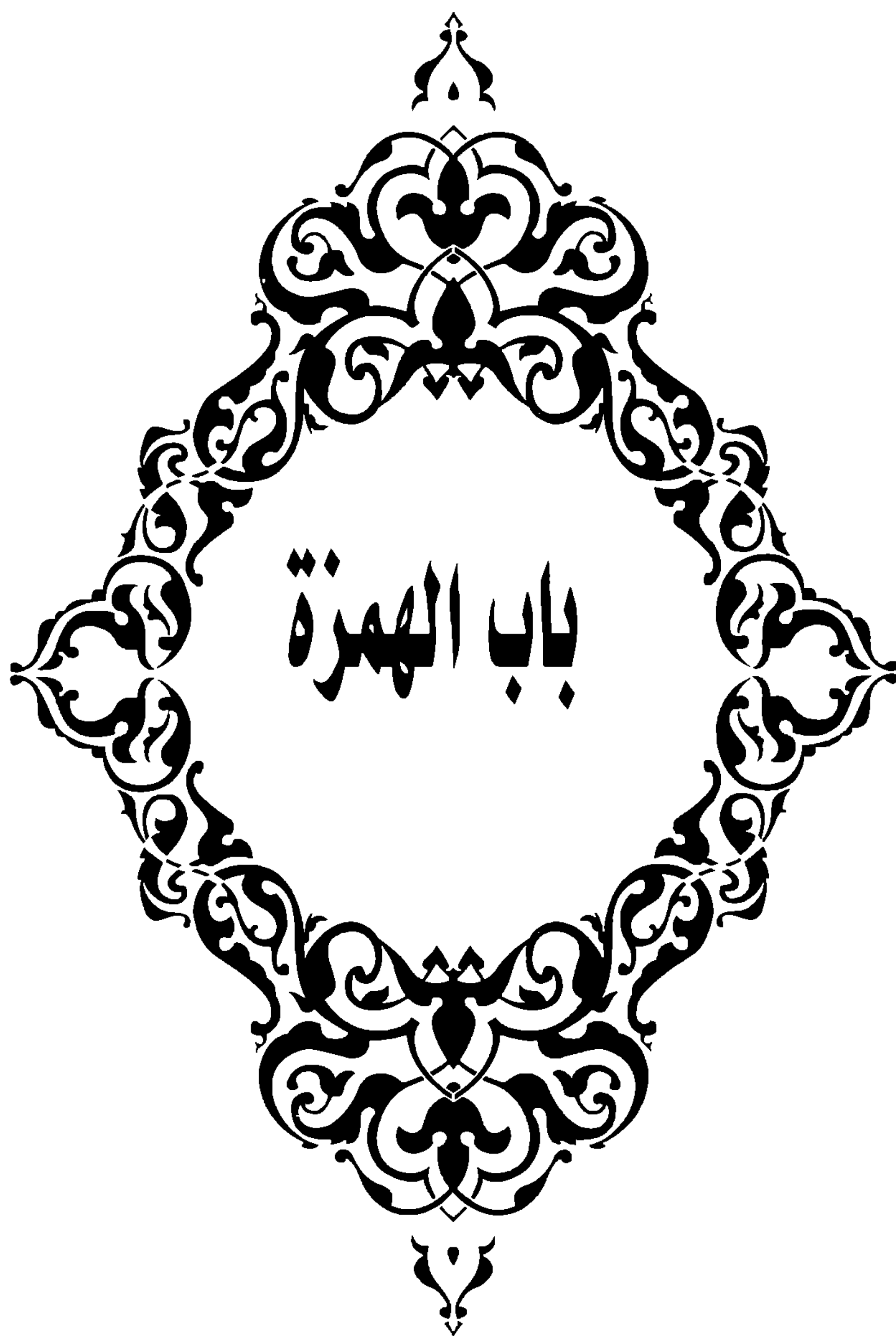
ومع ما أنجزته من هذا المشروع - حسب قدرتي وجهدي الضعيف لم أكن اشعر شعوراً كافياً أنني حققت كل ما أطمح اليه في هذا الباب ، ولا بلغت المرتبة التي كنت أصبوا اليها ، وذلك لما

يعترى حالي من الضعف في مرحلة بلغت فيها من الكبر عتيّا ، غير أنه يؤنسنى ويشدّ أزرى تعلّقى بثواب الله ، ورجائي أن يمدنى بعونه ، وأن يكون هذا الكتاب فاتحة خير ودليل رشد إلى التأليف في هذا ، الموضوع ، من قبل علماء لهم قدرة كافية وباع أطول في هذا الباب في مستقبل الأمة الاسلامية- ان شاء الله تعالى- وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

المؤلف

الفقير إلى مولاه العزيز القدير

سعد بن عبد الله بن جنيدل



باب الهمزة

الأحقـاف : أوله همزة مفتوحة بعدها حاء مهملة ساكنة ثم قاف مثناه بعدها ألف ، وآخره فاء موحدة : جمع حقف من الرمل .

ورد في القرآن الكريم : قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾(١) .

قال ابن جرير: الأحقاف : جمع حقف وهو من الرمل ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلا ، واياه عنى الأعشى :

فـبات إلى أرطـاة حقـف تلفّـه   حريق شمال يترك الوجه أقتما

واختلف أهل التأويل في الموضع الذي به هذه الأحقاف فقال بعضهم هي جبل بالشام .

وروى بسنده عن أبن عباس (واذكر أخا عاد اذ أنذر قومة بالأحقاف قال الأحقاف جبل بالشام .

وبسنده عن الضحّاك : جبل يسمى الأحقاف ، وقال آخرون : بل هي واد بين عمان ومهرة .

وقال بسنده عن ابن عباس : الأحقاف الذي أنذر هود فيه قومة واد بين عمان ومهرة .

وقال بسنده عن ابن اسحاق : كانت منازل عاد وجماعتهم حيث بعث الله اليهم هودا ، الأحقاف : الرمل فيما بين عمان الى حضرموت فاليمن كله وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها ، وقال آخرون : هي رمال مشرفة على البحر بالشحر .

---

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢١ .

وقال بسنده عن قتادة : ذكر لنا أن عادا كانوا حيّا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر .

وقال القرطبي : الأحقاف جمع حقف ، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبل ، والجمع حقاف وأحقاف ، واحقوقف الرمل والهلال أي اعوجّ .

قال الأعشى : " باب الى أرطات حقف أحقف " .

أي رمل مستطيل مشرف ، وقال عن قتادة هي جبال مشرفة بالشحر والشحر قريب من عدن ، يقال : شحر عمان وشحر عمان ، وهو ساحل البحر بين عمان وعدن .

وقال عن ابن عباس : هي واد بين عمان ومهرة ، وعن مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت ، واد يقال له مهرة ، واليه تنسب الابل المهرية ، فيقال ابل مهرية ومهاري وكانوا من قبيلـــة ارم .

وقال ياقوت : الأحقاف : جمع حقف من الرمل ، والعرب تسمّى الرمل المعوج حقافا وأحقافا ، وأحقوقف الهلال والرمل إذا أعوجّ ، فهذا هو الظاهر في لغتهم ، وقد تعسّف غيره ، والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز : واد بين عمان وأرض مهرة ، عن ابن عباس ، قال ابن اسحاق : الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت ، وقال قتادة : الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن ، وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى .

وقال الضحّاك : الأحقاف جبل بالشام ، وفي كتاب العين : الأحقاف جبل محيط بالدنيا ، من زبرجدة خضراء تلهب يوم القيامة ، فيحشر الناس عليه من كل أفق ، وهذا وصف جبل قاف .

والصحيح ما روينا عن ابن عباس وابن اسحاق وقتادة : أنها رمال بأرض اليمن ، كانت عاد تنزلها .

قلت : وهذا التحديد لمنازل عاد التي أنذرهم فيها النبي هود عليه السلام ينطبق على الرمال الكثيفة التي تغطى بلادا واسعة من جنوب شرق جزيرة العرب ، وتسمى في هذا العهد (الربع الخالي) وقد قص الله في كتابه العزيز خبر ما وقع عليهم من العذاب ، قال تعالى في وصف العذاب الذي حلّ بهم (فلمّا رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كلّ شيء بأمر ربّها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

وقد تحدثت عن شيء من أخبارهم في رسم (ارم ذات العماد) في هذا الكتاب :

وقال البغوى : الأحقاف : جمع حقف ، وهي المستطيل المعوج من الرمال .

قال ابن زيدٍ : هي ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون ، جبلاً ، قال الكسائي : هي ما استدار من الرمل .

وقال عن مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له : (مهرة) واليها تنسب الابل المهرية ، وكانوا أهل عمد سيارة في الربيع فاذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا من قبيلة ارم .

وعن قتادة : ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن وكانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : (الشحر) .

الأخــدود : أوله همزة مضمومة بعدها خاء معجمة ساكنة ثم دال مهملة مضمومة بعدها واو ساكنة وآخره دال مهملة : كان في قرية من قرى نجران .

قال الله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ .[1]

قال القرطبي : الأخدود : الشقّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد .

وقال البكري : الأخدود : الذي ذكر الله تعالى ، كان في قرية من قرى نجران وهي اليوم خراب ليس فيها الا المسجد الذي أمر عمر بن الخطاب ببنائه .

وقال ابن جرير الطبري: عن ابن عباس : (قتل أصحاب الأخدود) قال هم : ناس من بني إسرائيل خدّوا في الأرض ثم أوقدوا فيه ناراً أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء ، فعرضوا عليها . وزعموا أنه دانيال وأصحابه .

وقال بسنده عن مجاهد ، قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ قال : كان شقوق في الأرض بنجران ، كانوا يعذبون فيها الناس .

وقال بسنده عن الربيع بن أنس قال : كانٍ أصحاب الأخدود قوما مؤمنين ، اعتزلوا الناس في الفترة وانّ جباراً من عبدة الأوثان أرسل اليهم ، فعرض عليهم الدخول في دينه ، فأبوا ، فخدّ أخدودا وأوقد فيه ناراً ، ثم خيّرهم بين الدخول في دينه ، وبين القائهم في النار

(١) سورة البروج الآية : ٤ .

فاختاروا القاءهم في النار على الرجوع عن دينهم ، فألقوا في النار ، فنجّى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار من الحريق ، بأن قبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار ، وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقهم فذلك قول الله ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ في الدنيا .

وقال القرطبي : عن الضحّاك هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة أخذهم يوسف بن شراحيل بن تبّع الحميري وكانوا نيفا وثمانين رجلا وحفر لهم أخدودا وأحرقهم فيه ، حكاه الماوردي .

وحكى الثعلبي عنه أن أصحاب الأخدود من بنى إسرائيل أخذوا رجالاً ونساء فخدّوا لهم الأخاديد ثم أوقدوا فيها النار ، ثم أقيم المؤمنون عليها وقيل لهم : تكفرون أو تقذفون في النار .

ويزعمون أنه دانيال وأصحابه ، وقاله عطية العوفى وروى نحو هذا عن ابن عباس .

قال القرطبي : كان أصل النصرانية بنجران فسار اليهم ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل فأختاروا القتل فخدّ لهم الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف ، ومثل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفا ، وقال وهب بن منبه: اثنى عشر ألفاً .

قال ابن اسحاق : وذو نواس اسمة زرعة بن تبان أسعد الحميري ، وكان أيضاً يسمى يوسف ، وكان له غدائر من شعر تنوس ، أي تضطرب ، فسمى ذا نواس ، وكان فعل هذا بأهل نجران

فأفلت منهم رجل اسمه ذو ثعلبان فساق الحبشة لينصر بهم فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر ألقى نفسه فيه ، وفيه يقول عمرو بن معدى كرب :

أتوعدني كأنك ذو رعين ... بأنعم عيشة أو ذو نواس
وكائن كان قبلك من نعيم ... وملك ثابت في الناس راس
قديم عهده من عهد عاد ... عظيم قاهر الجبروت قاس
أزال الدهر ملكهم فأضحى ... ينقل من أناس في أناس

قلت : هذا خلاصة مما ذكره المفسرون في الحديث عن الأخدود وقد تحدثت عن أخباره في رسم (نجران) ، في (معجم الأمكنه الواردة في كتب السنة) فأنظره .

وقد اتفقت الأقوال على أن الأخدود الذي ورد ذكره في الأية الكريمة كان في نجران ، وهناك في مدينة نجران ناحية تسمى (مدينة الأخدود) باقية آثار مساكنها وبقايا من أسس بيوتها مبنية بالحجارة الضخمة وقد أقامت عليها ادارة الآثار والمتاحف حماية للمحافظة على ما بقي من معالمها ويرى الكثيرون من سكان منطقة نجران ومن الباحثين أن هذه الآثار هي آثار البلدة التي وقعت فيها حادثة الأخدود .

أدنى الأرض: المقصود به أقرب الأرض إلى أرض العرب ، قيل: هي أرض الجزيرة وقيل : الأردن ، وقيل : فلسطين، وهذه المواضع هي أقرب إلى بلاد العرب من غيرها .

قال الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ ﴾ (١)

(١) سورة الروم الأية رقم : ١ - ٣ .

قال الشوكاني : ومعنى ﴿ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ في أقرب أرضهم من أرض العرب ، أو في أقرب العرب منهم ، قيل : هي أرض الجزيرة ، وقيل : أذرعات وقيل : كسكر ، وقيل : الأردن ، وقيل : فلسطين ، وهذه المواضع هي أقرب إلى بلاد العرب من غيرها ، وانما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهود في ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب وقيل أن الالف واللام عوض عن المضاف اليه ، والتقدير : في أدنى أرضهم فيعود الضمير إلى الروم ويكون المعنى : في أقرب أرض الروم من العرب . قال ابن عطية : أن كانت الوقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وأن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وأن كانت بالأردن فهي إلى أرض الروم .

وقال ابن كثير : نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاص بلاد الروم .

وروى الامام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قال غلبت وغلبت ، قال ، كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل الكتاب : فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ (أما أنهم سيغلبون) فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وان ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال (ألا جعلتها إلى دون- أراه قال العشر -) قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر ، ثم ظهرت الروم بعد قال : فذلك قوله ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ

ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ - إلى قوله - وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

وقال ابن جرير : ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ من أردن الشام أرض فارس ، ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ فيقول : والروم من بعد غلبة فارس أياهم ﴿ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ فارس ﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ ﴾ غلبتهم فارس ﴿ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾ غلبتهم اياها ، يقضى في خلقة ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ويظهر من شاء منهم على من أحب اظهار عليه ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ يقول : ويوم يغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بالله ورسوله بنصر الله أياهم على المشركين ، ونصرة الروم على فارس ﴿ يَنصُرُ ﴾ الله تعالى ذكره ﴿ مَن يَشَآءُۖ ﴾ من خلقه، على من يشاء وهو نصره المؤمنين على المشركين ببدر ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ يقول : والله الشديد في انتقامة من أعدائه ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا يحول بينه وبينه حائل ﴿ ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن تاب من خلقة ، وراجع طاعته أن يعذبه .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعنى أرض الشام ، عكرمة : بأذرعات ، وهي ما بين بلاد العرب والشام : أن قيصر كان بعث رجلاً يدعى يحنسّ وبعث كسرى شهر بزان فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى بلاد الشام الى أرض العرب والعجم . مجاهد : بالجزيرة ، وهو موضع بين العراق والشام ، مقاتل : بالأردن وفلسطين . و ﴿ أَدۡنَى ﴾ معناه أقرب . قال ابن عطية : فان كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهي التي ذكرها أمرؤ القيس في قوله :

تـنورتها مــن أذرعـات وأهــلها بيـثرب أدنــى دارهــا نظــر عــال

وأن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وأن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم . فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سر الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم في الحرب .

قلت : فيما تقدم نرى أن علماء التفسير إتفقت أقوالهم في تفسير هذه الآية الكريمة وتحديد مكان أدنى الأرض الذي ورد ذكره في هذه الآية الكريمة .

الأرض : بهمرة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وضاد معجمة ، المراد به : أرض مصر . قال الله تعالى في خبر أخوة يوسف : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾[1] .

قال ابن جرير : قوله ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، التي أنا بها وهي أرض مصر ، فأفارقها ، ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ بالخروج منها .

وقال ابن كثير : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ لن أفارق هذه البلدة ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ في الرجوع اليه راضيا عني ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ قيل : بالسيف ، وقيل : بأن يمكنني من أخي .

وقال القرطبي ، قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قتادة : هو روبين هو أكبرهم في السن ، وقال مجاهد : هو شمعون كان

---

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٨٠ .

أكبرهم في الرأي . وقال الكلبي : يهوذا وكان أعقلهم . وقال محمد بن كعب وابن اسحاق : هو لاوى وهو أبو الأنبياء . ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي الزمها ، ولا أبرح مقيما فيها .

وقال الشوكاني : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ ، يقال برح براحا وبروحا : أي زال ، فاذا دخله النفي صار مثبتا : أي لن أبرح من الأرض، بل الزمها ولا أزال مقيما فيها ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ ﴾ في مفارقتها والخروج منها ، وانما قال ذلك لأنه يستحى من أبيه أن يأتي اليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الموثق بارجاعه اليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ بمفارقتها والخروج منها ، وقيل : المعنى : أو يحكم الله لى بخلاص أي من الأسر حتى يعود الى أبي وأعود معه ، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ لأن أحكامه لا تجرى الا على ما يوافق الحق .

قلت : بهذا يتبين أن الأرض التي ورد ذكرها في هذه الآية هي أرض مصر ولم يختلف في ذلك المفسرون .

الأرض : كالذي قبله : المقصود به أرض مصر ، وقيل : أرض مصر والشام .

قال الله تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[1] .

قال القرطبي : قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وبنى اسرائيل من أرض مصر بالقتل أو

(١) سورة الإسراء الآيتين ١٠٣ ، ١٠٤ .

الابعاد ، فأهلكه الله عز وجل . ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد اغراقة ﴿ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أرض الشام ومصر ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ . أي القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد أختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحية . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعاً من جهات شتى . والمعنى واحد قال الجوهري : واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى .

وقال ابن كثير : وقوله ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ، ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع فان أهل مكة هموا باخراج الرسول منها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ الأيتين ، ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرما ، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى اسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم ، كما قال كذلك وأورثناها بني أسرائيل ، وقال ههنا ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : لفيفا أي جميعاً .

وقال ابن جرير : يقول تعالى فأراد فرعون أن يستفز موسى وبنى اسرائيل من الأرض . ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ ﴾ في البحر ﴿ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ ،

من جنده ﴿ جَمِيعًا ﴾ ، ونجينا موسى وبنى اسرائيل ، وقلنا لهم ﴿ مِنْ بَعْدِهِۦ ﴾ هلاك فرعون ﴿ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ أرض الشام ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ يقول : فاذا جاءت الساعة ، وهي وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا . يقول : حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفا : أي مختلطين قد التف بعضكم على بعض . لا تتعارفون ، ولا ينحاز أحد منكم الى قبيلته وحيّه .

وقال الشوكاني : قولة تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج بنى اسرائيل وموسى ويزعجهم من الأرض ، يعنى أرض مصر بابعادهم عنها ، وقيل أراد أن يقتلهم وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ، ولم يبق منهم أحد ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي من بعد اغراقة ومن معه ، والمراد بالأرض هنا : أرض مصر التي أراد أن يستفزهم منها ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي الدار الآخرة وهو القيامة ، أو الكرة الآخرة ، أو الساعة الآخرة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ قال الجوهري : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى .

قلت : فيما تقدم اتفق علماء التفسير على تعريف الأرض التي ذكرت في الآيتين الكريمتين وقالوا : أن المقصود بها أرض مصر والشام ، غير أن بعضهم ذكر مصر ولم يذكر الشام وبعضهم ذكر الشام ولم يذكر مصر ، وذكر القرطبي البلدين ، وقول من قال مصر والشام أعم وأشمل لأن بني اسرائيل بعد هلاك فرعون سكنوا مصر والشام .

أرضا لم تطئوهـا : قيل : هي الروم ، وقيل : فارس ، وقيل : البلاد التي فتحها الله بعد ذلك على المسلمين.

قـال اللـه تعالـى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾[1] .

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل فيها أي أرض هي ؟ فقال بعضهم : هي الروم وفارس ونحوها من البلاد التي فتحها الله بعد ذلك على المسلمين .

وروى بسنده عن قتادة قال : قال الحسن : هي الروم وفارس ، وما فتح الله عليهم ، وقال آخرون : هي مكة . وقال آخرون : بل هي خيبر .

وروى بسنده عن يزيد بن رومان قال : خيبر .

وروى بسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ﴾ قال : قريظة والنضير أهل الكتاب ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ قال : خيبر .

قال والصواب من القول في ذلك أن يقال : أن الله تعالى ذكره أخبر أنه أورث المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ أرض بنى قريظة ود يارهم وأموالهم ، وأرضا لم يطئوها يؤمئذ ولم تكن مكة ولا خيبر ولا أرض فارس والروم ولا اليمن ، مما كان وطئوه يؤمئذ ، ثم وطئوا ذلك بعد ، وأورثهموه الله ، وذلك كله داخل في قوله لأنه تعالى ذكره لم يخصص من ذلك بعضا دون بعض . يقول تعالى ذكره : وكان الله على أن أورث المؤمنين ذلك ، وعلى نصره اياهم ، وغير

(١) سورة الأحزاب الآية رقم : ٢٧.

ذلك من الأمور ذا قدرة ، لا يتعذر عليه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه فعل شيء حاول فعله .

وقال ابن كثير : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ قيل : مكة ، رواه مالك عن زيد بن أسلم ، وقيل : فارس والروم .

وقال الشوكاني : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ أي وأورثكم أرضا لم تطئوها .

واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة فقال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل : أنها خيبر ولم يكونوا اذ ذاك قد نالوها ، فوعد هم الله بها . وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة . وقال الحسن: فارس والروم . وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة .

وقال القرطبي : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ بعد . قال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل : يعنى حنين ، ولم يكونوا نالوها ، فوعدهم الله اياها . وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة . وقال الحسن : هي فارس والروم . وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة .

قلت : مما تقدم من أقوال المفسرين يتبين أن هذه الأرض التي ذكرها الله في هذه الآية الكريمة لم يكن لها تحديد خاص بها ، غير أنهم رجحوا أن يكون المقصود بها خيبر ، أو أي أرض يفتحها المسلمون فيما بعد ذلك .

أرض التيه : بهمزة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وضاد معجمه ، والتيه بتاء مثناة مكسورة وياء مثناة ساكنة وآخره هاء : تقع هذه الأرض في شبة جزيرة سيناء .

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾[1] .

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في الناصب لـ ﴿ أَرْبَعِينَ ﴾. قال بعضهم : الناصب له قوله : ﴿ مُحَرَّمَةٌ ﴾ ، وإنما حرم الله جل وعز على القوم الذين عصوه وخالفوا أمره من قوم موسى وأبوا حرب الجبارين ، دخول مدينتهم أربعين سنة ، ثم فتحها عليهم وأسكنهموها ، وأهلك الجبارين بعد حرب منهم لهم ، بعد أن انقضت الأربعون سنة وخرجوا من التيه .

وقال آخرون : بل الناصب لـ ﴿ أَرْبَعِينَ ﴾ ، ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . قالوا : ومعنى الكلام : قال فانها محرمة عليهم أبدا ، يتيهون في الأرض أربعين سنة . قالوا : ولم يدخل مدينة الجبارين أحد ممن قال : ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، وذلك أن الله عز ذكره حرمها عليهم ، قالوا : وإنما دخلها من أولئك القوم يوشع وكلاب ، اللذان قالا لهم : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ ، وأولاد الذين حرم الله عليهم دخولها فتيههم الله فلم يدخلها منهم أحد .

ومعنى : ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يحارون فيها ويضلون ، ولذلك قيل للرجل الضال عن سبيل الحق : (تائه) وكان تيههم ذلك : أنهم كانوا يصبحون أربعين سنة كل يوم جادين في قدر ستة فراسخ للخروج منه ، فيمسون في الموضع الذي ابتدأوا السير منه .

---

(١) سورة المائدة الآية رقم : ٢٦.

وبسنده عن مجاهد : قال : تاهت بنوا اسرائيل أربعين سنة ، يصبحون حيث أمسوا ، ويمسون حيث أصبحوا في تيههم .

قال ابن كثير : والمقصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوما من الجبارين ، من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم .

فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ، واجلائهم اياهم عن بيت المقدس ، فان الله كتبه لهم ، ووعدهم اياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل فأبوا ونكلوا عن الجهاد ، فسلط الله عليهم الخوف . وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون . في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون .

وقال ياقوت : التيه هو الموضع الذي ظل فيه موسى بن عمران، عليه السلام ، وقومة وهي أرض أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراه من أرض الشام ، ويقال انها أربعون فرسخا في مثلها ، وقيل : اثنى عشر فرسخان في ثمانية فراسخ ، واياه أراد المتنبي بقوله :

ضربت التيه ضرب القمار ، اما لهذا واما لذا

والغالب على أرض التيه الرمال ، وفيها مواضع صلبة ، وبها نخيل وعيون مفترشة قليلة ، يتصل حد من حدودها بالجفار وحد بجبل طور سيناء وحد بأرض بيت المقدس وما اتصل به من فلسطين وحد ينتهي إلى مفازة في ظهرى ريف مصر الى حد القلزم ، ويقال ان بنى اسرائيل دخلوا التيه وليس منهم أحد فوق الستين الى دون العشرين سنة فماتوا كلهم في أربعين سنة ، ولم يخرج منه ممن دخله مع موسى بن عمران عليه السلام ، الا يوشع بن نون وكالب بن يوفنّ ، وانما خرج عقبهم .

وفي القاموس الإسلامي: التيه اسم تاريخي يطلق على الصحراء الجرداء التي توسط شبة جزيرة سيناء ، وتمتد بين شرق دلتا النيل إلى جنوب فلسطين ، وتمتد شمالا من الساحل الرملى المنبسط المطل على البحر الأبيض إلى جبال سيناء الوسطى كما يطلق على هذه الصحراء اسم (فحص التيه) أو (صحراء بنى اسرائيل) أي الصحراء التي تاه فيها بنو اسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وكانت القوافل العسكرية وقوافل الحجاج تخترق هذه الصحراء من مصر إلى الكرك والعقبة وأيلة بالاضافة إلى الطريق الساحلي الذي كان يمر بالفرماء ، وهو الطريق الذي سلكه عمرو بن العاص في فتح مصر .

وقال ابن الأثير : ان الله تعالى أمر موسى ، عليه السلام ، أن يسير ببنى اسرائيل إلى أريحا بلد الجبارين ، وهي أرض بيت المقدس ، فساروا حتى كانوا قريباً منهم ، فبعث موسى اثنى عشر نقيباً من سائر أسباط بنى إسرائيل ، فساروا ليأتوا بخبر الجبارين ، فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج بن عنق فأخذ الاثنى عشر فحملهم وانطلق بهم إلى امرأته فقال : انظري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا ، وأراد أن يطأهم برجله ، فمنعته امرأته فقالت : أطلقهم ليرجعوا فيخبروا قومهم بما رأوا ، ففعل ذلك ، فلما خرجوا قال بعضهم لبعض : انكم أن أخبرتم بنى اسرائيل بخبر هؤلاء لا يقدموا عليهم ، فأكتموا الأمر عنهم ، وتعاهدوا على ذلك ورجعوا ، فنكث عشرة منهم العهد وأخبروا بما رأوا ، وكتم رجلان منهم ، وهما : يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ختن موسى ، ولم يخبروا الا موسى وهارون ، فلما سمع بنو اسرائيل الخبر عن الجبارين امتنعوا عن السير اليهم ، فقال لهم موسى : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾ . قالوا :

ياموسى أن فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجون منها فانا داخلون . قال رجلان وهما يوشع وكالب من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ ﴾ ، ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ .

فغضب موسى فدعا عليهم فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾. وكانت عجلة من موسى فقال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[1] .

فندم موسى حينئذ فقالوا له : فكيف لنا بالطعام ؟ فأنزل الله المن والسلوى فأما المن فقيل هو كالصمغ كالشهد ويقع على الأشجار ، وقيل هو الترنجبين ، وقيل : هو الخبز الرقاق ، وقيل : هو عسل كان ينزل لكل انسان صاع .

وأما السلوى فهو طائر يشبه السماني فقالوا : أين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ﴿ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا ﴾ . لكل سبط عين . فقالوا : أين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام . فقالوا : أين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم ولا يتمزق لهم ثوب . ثم قالوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾ .

---

(١) سورة المائدة من الآية ٢١ إلى ٢٦ .

فلما خرجوا من التيه رفع عنهم المن والسلوى .

ثم أن موسى التقى هو وعوج بن عنق فوثب موسى عشرة أذرع ، وكانت عصاه عشر أذرع وكان طوله عشرة أذرع فأصاب كعب عوج فقتله . وقيل عاش عوج ثلاثة آلاف سنة .

الأرض المباركة : أوله همزة مفتوحة بعدها راء مهملة ساكنة وآخره ضاد يقصد به في أشهر الأقوال : بلاد الشام .

قال الله تعالى مخبرا عن خليلة إبراهيم : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

قال ابن كثير : لما هجر قومة في الله ، وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت أمرأته عاقراً لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر ، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء بعده ، فعلى أحد نسله وعقبة ، خلعة من الله وكرامة له ، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه ، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق اليه .

والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام ، وهي التي قال الله عز وجل : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، قاله أبى بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم .

وروى العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ مكة ، ألم تسمع الى قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وزعم كعب الأحبار أنها (حران) .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧١ .

ونقل عن أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط ، وأخوه ناحور ، وأمرأة إبراهيم سارة ، وامرأة أخيه (ملكا) فنزلوا حران فمات (تارخ) أبو إبراهيم بها .

وقال ابن جرير : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى ذكره : ونجينا ابراهيم ولوطا من أعدائهما ، نمرود وقومه من أرض العراق ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهي أرض الشام ، فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشام .

وقد اختلف أهل التأويل في الأرض التي ذكر الله أنه نجى إبراهيم ولوطا اليها ، ووصفه أنه بارك فيها للعالمين .

وروى بسنده عن أبي بن كعب ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : الشام ، وما من ماء عذب إلا خرج من تلك الصخرة التي ببيت المقدس .

وروى بسنده عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : الشام .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ كانا بأرض العراق ، فأنجيا إلى أرض الشام ، وكان يقال للشام عماد دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها مجمع الناس ، وبها ينزل عيسى بن مريم ، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال .

وروى بسنده ، عن ابن اسحاق ، قال : خرج إبراهيم مهاجرا إلى أرض ربه ، وخرج معه لوط مهاجرا ، وتزوج ساره ابنة عمه ، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه ، والأمان على عبادة ربه ، حتى نزل حران ، فمكث فيها ما شاء الله أن يمكث ، ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ، ثم خرج من مصر إلى الشام ، فنزل السبع من أرض فلسطين ، وهي برية الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة ، وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة ، أو أقرب من ذلك ، فبعثه الله نبيا ﷺ .

وروى بسنده عن ابن جريج وابن زيد قولهما : نجاه من أرض العراق الى أرض الشام .

وقال : لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت الى الشام ، فيها كان مقامة أيام حياته ، وأن كان قد قدم مكة وبنى بها البيت وأسكنها أسماعيل ابنه مع أمة هاجر ، غير أنه لم يقم بها، ولم يتخذها وطنا لنفسه ، ولا لوط ، والله انما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين .

وقال ابن الأثير : أن إبراهيم والذين اتبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم فخرج مهاجراً حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى ، وكان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عولج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وقيل : كان أخا الضحاك استعمله على مصرٍ : وكانت سارة من أحسن النساء وجها ، وكانت لا تعصى إبراهيم شيئا ، فلما وصفت لفرعون أرسل إلى إبراهيم فقال : من هذه التي معك ؟ قال : أختى ، يعنى في الاسلام وتخوف أن قال أمرأتي أن يقتله . فقال له : زينها وأرسلها الى ، فأمر بذلك إبراهيم ، فتزينت وأرسلها اليه ، فلما دخلت عليه أهوى بيده اليها ، وكان إبراهيم حين أرسلها قام يصلى ، فلما أهوى اليها أخذ أخذا شديدا ، فقال : أدعى الله ولا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، فأهوى اليها ، فأخذ أخذ شديداً ، فقال : ادعى الله ولا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، ثم فعل ذلك الثالثة ، فذكر مثل المرتين ، فدعا أدنى حجابة

فقال : انك لم تأتنى بانسان وانك أتيتنى بشيطان ! أخرجها وأعطها هاجر ، ففعل ، فأقبلت بهاجر ، فلما أحس إبراهيم بها انفتل من صلاته فقال : مهيم ! فقالت : كفى الله كيد الكافرين وأخدم هاجر .

وكان أبو هريرة يقول : تلك أمكم يابنى ماء السماء . وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث مرات ، اثنتين في ذات الله ، قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقوله في سارة : (هي أختي) .

قلت : وأكتفى بهذا القدر مما ذكره العلماء عن خبر هجرة إبراهيم من العراق إلى بلاد الشام .

وقال البغوى : قوله عز وجل : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ ، يعنى الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار ، ومنها بعث أكثر الأنبياء . وقال أبي بن كعب : سماها مباركة لأنه ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التي هي ببيت المقدس .

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي ، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا اسماعيل بن محمد الصفار ، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، أن عمر بن الخطاب قال لكعب : ألا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله ﷺ وقبرة ، فقال كعب : انى وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين أن الشام كنز الله من أرضه ، وبها كنزه من عبادة .

الأرض المقدسة : بهمزة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وآخره ضاد معجمة:
المقدسة : صفة للأرض وصفت بها تمييزا لها . وأختلف في تحديدها فقيل : الطور ، وقيل : أريحاء ، وقيل : الشام ، وقيل : فلسطين ودمشق وما حولها .

قال الله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[1] .

وروى البخاري بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : أرسل ملك الموت الى موسى عليهما السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه فقال أرسلتني الى عبد لا يريد الموت قال أرجع اليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال أي رب ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن قال فسأل الله أن يدني من الأرض المقدسة رمية حجر .

قال ابن حجر : المطلوب القرب من الأنبياء الذين دفنوا ببيت المقدس ، وهو الذي رجحه عياض . هذا ما أراده موسى عليه السلام حين طلب ربه أن يدنى من الأرض المقدسة رمية حجر .

وقال ابن كثير : الأرض المقدسة : أي المطهره ، وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في قوله : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ قال : هي الطور وما حوله ، كذا قال مجاهد وغير واحد .

وروى سفيان الثوري عن أبى سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال : هي أريحاء ، وكذا ذكره عن غير واحد من المفسرين ، وفي هذا نظر لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس وقد قدموا من بلاد مصر ، حين أهلك الله عدوهم فرعون ، اللهم الا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس ، كما قال السدى فيما رواه ابن جرير عنه ، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطور شرقي بيت المقدس .

---

(١) سورة المائدة الآية ٢١ .

قال ابن جرير : في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ هذا خبر من الله عز ذكره عن قول موسى عليه السلام لقومه بنى اسرائيل ، وأمره اياهم عن أمر الله اياه بأمرهم بدخول الأرض المقدسة .

ثم اختلف أهل التأويل في الأرض التي عناها بـ ﴿ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ . قال بعضهم : عنى بذلك الطور وما حوله وهو رواية بسنده عن مجاهد .

وروى بسنده عن ابن عباس : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ قال : الطور وما حوله .

وقال آخرون : هو الشام روى ذلك بسنده عن قتادة .

وقال آخرون : هي أرض أريحاء .

وروى بسنده عن ابن زيد في قوله : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ قال : أريحاء .

وروى بسنده عن السدى قال : هي أريحاء .

وروى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال : هي أريحاء .

وقيل : أن ﴿ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ دمشق وفلسطين وبعض الأردن .

وعنى بقوله : ﴿ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ ، المطهرة المباركة .

وروى بسنده عن مجاهد : ﴿ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ قال المباركة .

وقال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : هي الأرض المقدسة كما قال نبي الله موسى ﷺ لأن القول في ذلك بأنها أرض دون أرض لا تدرك حقيقة صحته الا بالخبر ولا خبر بذلك يجوز قطع الشهادة به .

غير أنها لن تخرج من أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر لا جماع جميع أهل التأويل والسير والعلماء بالأخبار على ذلك .

وقال القرطبي : ﴿ ٱلْمُقَدَّسَة ﴾ معناه المطهرة . مجاهد : المباركة والبركة التطهير من القحوط والجوع وغيره .

قتادة : هي الشام . مجاهد : الطور وما حوله . ابن عباس والسدى وابن زيد : هي أريحاء .

الزجاج : دمشق وفلسطين وبعض الأردن .

وقول قتادة يجمع هذا كله .

قال ياقوت : ﴿ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ : هي المباركة المنزهة ، قيل : هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن وبيت المقدس منه .

قلت : هذا ما قاله المفسرون في تحديد الأرض المقدسة على اختلاف بينهم ، وقد رجح القرطبي ما قاله قتادة : هي أرض الشام ، لا شتمالها على ما قاله غيره ولا سيما بيت المقدس .

وقال البغوى : اختلفوا في الأرض المقدسة ، قال مجاهد : هي الطور وما حوله وقال الضحاك : ايليا وبيت المقدس ، وقال عكرمة والسدى : هي أريحاء ، وقال الكلبي : هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن ، وقال قتادة : هي الشام كلها ، قال كعب : وجدت في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله في أرضه (وبها أكثر) عبادة .

أرض فرعون وقومة : المقصود بهذه الأرض مصر .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1] .

---

(١) سورة الشعراء الآيتين رقم : ٣٤ - ٣٥.

قال ابن جرير : يريد أن يخرج بنى اسرائيل من أرضكم إلى الشام بقهره اياكم بالسحر . وانما قال : يريد أن يخرجكم فجعل الخطاب للملأ حوله من القبط ، والمعنى به بنو اسرئيل ، لأن القبط كانوا قد استعبدوا بنى اسرائيل ، واتخذوهم خد ما لأنفسهم ومهانا، فلذلك قال لهم ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم ﴾ وهو يريد أن يخرج خدمكم وعبيدكم من أرض مصر إلى الشام .

وانما قلت معنى ذلك كذلك ، لأن الله انما أرسل موسى إلى فرعون يأمره بارسال بنى اسرائيل معه ، فقال له ولأخيه ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

قال ابن كثير : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾ الآية ، أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتكم كل سحار عليم يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت ، وتكون لك النصرة والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

قلت : يتضح من سياق الأيات ، ومن أقوال المفسرين أن المقصود بهذه الأرض التي أضيفت إلى ملأ فرعون هي أرض مصر التي كان يسكنها هو وقومه .

إرم ذات العماد : أوله همزة مكسورة بعدها راء مهملة مفتوحة بعدها ميم ، والعماد بكسر العين المهملة : مدينة شداد بن عاد في اليمن على قول بعض العلماء .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾[1] .

قال البخاري : قال مجاهد : أرم ذات العماد القديمة والعماد أهل عمود لا يقيمون .

قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل في تأويل قوله ﴿ إِرَم ﴾ فقال بعضهم : هي اسم بلدة ، ثم اختلف الذين قالوا ذلك في البلدة التي عنيت بذلك ، فقال بعضهم : عنيت الأسكندرية .

وروى بسنده عن القرظى أنه يقول: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ الاسكندرية .

قال : وقال آخرون : هي دمشق .

وروى بسنده عن مجاهد ، قوله ﴿ إِرَم ﴾ قال : القديمة .

وقال آخرون : تلك قبيلة من عاد .

وقال آخرون : ارم الهالك .

قال : والصواب من القول في ذلك أن يقال : أن ارم اما بلدة كانت عاد تسكنها ، فلذلك ردت على عاد للاتباع لها ، وإما اسم قبيلة .

وأما ما ذكر عن مجاهد ، أنه قال : عنى بذلك القديمة ، فقول لا معنى له .

وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندى : أنها اسم قبيلة من عاد ، ولذلك جاءت القراءة بترك اضافة عاد اليها ، وترك اجرائها .

---

(١) سورة الفجر الأيتين رقم : ٦ – ٧.

وقوله : ﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى قوله ﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ في هذا الموضع ، فقال بعضهم : معناه : ذات الطول ، وذهبوا في ذلك إلى قول العرب للرجل الطويل : رجل معمد ، وقالوا : كانوا طوال الأجسام .

وقال بعضهم : بل قيل لهم ﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ لأنهم كانوا اهل عمد ، ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلا حيث كان ، ثم يرجعون إلى منازلهم.

وقال آخرون : بل قيل ذلك لهم لبناء بناه بعضهم فشيد عمده ورفع بناءه .

وأشبه الأقوال في ذلك بما دل عليه ظاهر التنزيل ، قول من قال: عنى بذلك أنهم كانوا أهل عمود سيارة ، لأن المعروف في كلام العرب من العماد ما عمد به الخيام من الخشب ، والسوارى التي يحمل عليها البناء ، ولا يعلم بناء كان لهم بالعماد بخبر صحيح .

وقال ابن كثير في تفسير : قوله تعالى : ﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم .

قال مجاهد : ارم أمة قديمة يعنى عادا الأولى ، قال قتادة بن دعامة والسدى : أن ارم بيت مملكة عاد وهذا قول حسن جيد قوى ، وقال مجاهد وقتادة والكلبي في قوله : ﴿ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ كانوا أهل عمد لا يقيمون ، وقال العوفى عن ابن عباس : انما قيل لهم ذات العماد لطولهم ، واختار الأول ابن جرير ورد الثاني فأصابه .

قال ابن كثير : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحا يقاتلون به أو طول الواحد منهم فهم قبيلة وأمة من الأمم فهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع المقرونون بثمود والله أعلم .

ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ مدينة أما دمشق كما روى عن سعيد بن المسيب وعكرمة أو اسكندرية كما روى عن القرطبي أو غيرهما ففيه نظر ، فانه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ﴾ أن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان ؟ فانه لا يتسق الكلام حينئذ ، ثم المراد انما الاخبار عن اهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لا أن المراد الأخبار عن مدينة أو اقليم . وانما نبهت على ذلك لئلا يغتر لكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، عن ذكر مدينة يقال لها ارم ذات العماد مبنية بلبن الذهب والفضة ، قصورها ودورها وبساتينها وأن حصباءها لآلىء وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها ، وسورها وأبوابها تصفر ، ليس بها داع ولا مجيب ، وانها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتأرة باليمن ، وتأرة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد ، فان هذا كله من خرافات الاسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك القول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

- وذكر الثعالبي وغيره أن رجلا من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة ، في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت فبينما هو يتيه في ابتغائها اذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها فوجد فيها قريبا مما ذكرناه ، من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها ، وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئا ... فهذه الحكاية ليس يصح اسنادها ولو صح إلى ذلك الأعرابي ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو

أنه أصابه نوع من الهوس والخيال فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك ، وهذا مما يقطع بعدم صحته .

- وقال ابن اسحاق : كانوا عربا وكان منزلهم بواد القرى .
- قال ياقوت : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ : وهي ارم عاد ، يضاف ، أعنى قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ .

فمن أضاف لم يصرف ارم ، لأنه يجعله اسم امهم ، أو اسم بلدة ، ومن لم يضف جعل ارم اسمه ولم يصرفه ، لأنه جعل عادا اسم أبيهم ، وارم اسم القبيلة ، وجعله بدلا منه .

وقال بعضهم : ارم لا ينصرف للتعريف والتأنيث لأنه اسم قبيلة ، فعلى هذا يكون التقدير : - ارم صاحب ذات العماد ، لأن ذات العماد مدينة .

- وقيل : ذات العماد وصف ، كما تقول المدينة ذات الملك .
- وقيل : ارم مدينة ، فعلى هذا يكون التقدير بعاد صاحب ارم .

ويقرأ بعاد ارم ذات العماد ، الجرّ على الاضافة فهذا اعرابها ، ثم اختلف فيها من جعلها مدينة ، فمنهم من قال : هي أرض كانت واندرست ، فهي لا تعرف . ومنهم من قال : الاسكندرية ، وأكثرهم يقولون : هي دمشق ، وكذلك قال شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشير :

لولا التي علقتنى من علائقها ... لم تمس لى ارم دارا ولا وطنا

قالوا : أراد دمشق ، واياها أراد البحتري بقوله :

اليك رحلنا العيس من أرض بابل ... نجوز بها سمت الدبور ونهتدي
فكم جزعت من وهدة بعد وهدة ... وكم قطعت من فدفد بعد فدفد
طلبنك من ام العراق نوازعا ... بنا ، وقصور الشام منك بمرصد
إلى ارم ذات العماد وانها ... لموضع قصدى موجفا وتعمدى

وحكى الزمخشري أن ارم بلد منه الاسكندرية . وروى آخرون أن ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، باليمن بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شداد بن عاد ، ورووا أن شداد بن عاد كان جبارا ، ولما سمع بالجنة وما أعد الله فيها لأوليائه من قصور الذهب والفضة والمساكن التي تجرى من تحتها الأنهار ، والغرف التي من فوقها غرف، قال لكبرائه : انى متخذ في الأرض مدينة على صفة الجنة فوكل بذلك مائة رجل من وكلائة وقهاريماته تحت يد كل رجل منهم ألف من الأعوان وأمرهم أن يطلبوا فضاء فلات من أرض اليمن ويختاروا أطيبها تربة ، ومكنهم من الأموال ومثل لهم كيف يعملون ، وكتب إلى عماله الثلاثة : غانم بن علوان والضحاك بن علوان والواليد بن الريان يأمرهم أن يكتبوا الى عمالهم في آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران ، فيوجهوا به اليه .

ثم وجه إلى جميع المعادن فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة. ثم وجه عماله الثلاثة إلى الغواصين إلى البحار فاستخرجوا الجواهر ، فجمعوا منها أمثال الجبال ، وحمل جميع ذلك الى شداد ثم وجهوا الحفارين إلى معادن الياقوت والزبرجد ، وسائر الجواهر فاستخرجوا منها أمرا عظيماً . فأمر بالذهب فضرب أمثال اللبن ثم بنى بذلك تلك المدينة ، وأمر بالدر والياقوت والجزع والزبرجد والعقيق ففصص به حيطانها ، وجعل لها غرفا من فوقها غرف ، معمد جميع ذلك بأساطين الزبرجد والجزع والياقوت ثم أجرى تحت المدينة واديا ساقة اليها من تحت الأرض أربعين فرسخا ، كهيئة القناة العظيمة . ثم أمر فأجرى من ذلك الوادى سواق في تلك السكك والشوارع والأزقة تجرى بالماء الصافي . وأمر بحافتى ذلك النهر وجميع السواق فطليت بالذهب الأحمر ، ... ثم بنى لنفسه في وسط المدينة ، على شاطىء ذلك النهر قصرا منيفا عاليا يشرف على

تلك القصور كلها ، وجعل بابها يشرع إلى الوادي بمكان رحب واسع ، ونصب عليه مصراعين من ذهب مفصصين بأنواع اليواقيت ... ومكث في بنائها خمسمائة عام .

وأن الله تعالى أحبّ أن يتّخذ الحجّة عليه وعلى جنوده بالرسالة والدعاء إلى التوبة والانابة فانتجت لرسالته اليه هودا عليه السلام ، وكان من صميم قومة وأشرافهم ... ثم أن هودا عليه السلام اتاه فدعاء إلى الله تعالى وأمره بالايمان والاقرار بربوبية الله عز وجل ، ووحد انيته ، فتمادى في الكفر والطغيان وذلك حين تم لملكة سبعمائة سنة . فأنذره هود بالعذاب وحذره وخوفة زوال ملكة فلم يرتدع عما كان عليه ، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ، وأخبروه بالفراغ منها فعزم على الخروج اليها في جنوده فخرج في ثلاثمائة ألف من حرسه وشاكريته ومواليه وسار نحوها وخلف على ملكة بحضرموت وسائر أرض العرب ابنه مرثد بن شداد . وكان مرثد فيما يقال مؤمنا بهود عليه السلام ، ، فلما قرب شداد من المدينة وانتهى الى مرحلة منها جاءت صيحة من السماء فمات هو وأصحابه أجمعون ...

وختم ياقوت هذه القصة التي أوردنا ملخصا مما جاء فيها بقولة :

قلت : هذه القصة مما قد منا البراءة من صحتها وظننا أنها من أخبار القصاص المنمقة وأوضاعها المزوقة .

قلت : هذا بعض ما ذكره ابن كثير وغيره من العلماء عن ارم ذات العماد ، ويتضح فيما ذكرناه من أقوال العلماء الاختلاف في حقيقة ارم ذات العماد ، وصفها وموقعها ، وهل هي مدينة أو قبيلة ؟ غير أن ابن كثير استحسن قول قتادة والسدى : أن ارم ذات العماد بيت مملكة عاد ، والله أعلم .

وقال البغوى : واختلفوا في أرم ذات العماد ، فقال سعيد بن المسيب (ارم ذات العماد) دمشق ، وبه قال عكرمة .

وقال القرظي : هي الاسكندرية ، وقال مجاهد : هي أمة . وقيل : معناها : القديمة .

وقال قتادة ، ومقاتل : هم قبيلة من عاد قال مقاتل : كان فيهم الملك ، وكانوا (بمهرة) ، وكان عاد أباهم ، فنسبهم اليه ، وهو ارم بن عاد بن ارم بن سام بن نوح .

وقال محمد بن أسحاق : هو جد عاد ، وهو عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح .

وقال الكلبي : ﴿ إِرَمَ ﴾ هو الذي يجتمع اليه نسب عاد وثمود وأهل الجزيرة كان يقال : عاد ارم ، وثمود ارم ، فأهلك الله عادا ثم ثمود ، وبقى أهل السواد والجزيرة ، وكانوا أهل عمد وخيام وماشية سيارة في الربيع ، فاذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا أهل جنان وزروع ، ومنازلهم بوادى القرى ، وهي التي يقول الله فيها ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ : وسموا ذات العماد (لهذا) لأنهم كانوا أهل عمد سيارة ، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي ، ورواية عطاء عن ابن عباس ، وقال بعضهم : سموا ذات العماد لطول قامتهم .

قال ابن عباس : يعنى طولهم مثل العماد . وقال مقاتل : كان طول أحدهم اثنى عشر ذراعاً .

وقوله : ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ ، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة ، وهم الذين قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

أم القـــرى : بهمزة مضمومة بعدها ميم مشددة : والقرى جمع قرية ، يقصد به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[3] .

قال ابن جرير : وأما قوله : فانه يقول : أنزلنا اليك يامحمد هذا الكتاب مصدقاً ما قبلة من الكتب ، ولتنذر به عذاب الله وبأسه من في أم القرى ، وهي مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ شرقاً وغرباً من العادلين بربهم غيره من الآلهه والأنداد والجاحدين برسلة وغيرهم من أصناف الكفار .

وروى بسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى بـ ﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ مكة ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من القرى إلى المشرق والمغرب .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ، قال : هي مكة وبه عن معمر ، عن قتادة قال : بلغنى أن الأرض دحيت من مكة .

وروى بسنده عن السدى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، أما ﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ فهي مكة ، وانما سميت ﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ لأنها أول بيت وضع بها .

---

(١) سورة القصص الآية رقم : ٥٩ .
(٢) سورة الشورى الآية رقم : ٧ .
(٣) سورة الأنعام الآية رقم : ٩٢ .

وقال القرطبي : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يريد مكة ، والمراد أهلها فحذف المضاف ، أي أنزلناه للبركة والانذار ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى جميع الآفاق .

قال ابن كثير : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى مكة ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، وقال ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ .

قلت : هذا ما ذكره هؤلاء المفسرون في التعريف بأم القرى ، واتفقوا أن ذلك يعنى مكة البلد المقدس حرسها الله ، فهو اسم من أسماء مكة ، ولمزيد من الايضاح- أنظر رسم (مكـــة) في هذا الكتاب .

الأيكـــة : بهمزة مفتوحة وياء مثناء ساكنة وكاف مفتوحة وآخره هاء : هي بلاد مدين قوم شعيب .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴾[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾[3] .

---

(١) سورة الحجر الآية رقم : ٧٨ .
(٢) سورة الشعراء الآية رقم ١٧٦ - ١٧٧ .
(٣) سورة ص الآية رقم : ١٣ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٍۚ كُلٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[1] .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى ذكره : وقد كان أصحاب الغيضة ظالمين ، يقول : كانوا بالله كافرين ، والأيكة : الشجر الملتف المجتمع ، كما قال أمية :

كبكا الحمام على فروع الأيك في الغصن الجوانح

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾ ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة . وكان عامة شجرهم هذا الدوم وكان رسولهم فيما بلغنا شعيب ﷺ ، أرسل اليهم والى أهل مدين ، أرسل الى أمتين من الناس وعذبتا بعذابين شتى .

أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة ، وأما أصحاب الأيكة فكانوا أهل شجر متكاوس ، ذكر لنا أنه سلط عليهم الحر سبعة أيام ، لا يظلهم منه ظل ولا يمنعهم منه شيء ، فبعث الله عليهم سحابة فحلوا تحتها يلتمسون الروح فيها فجعلها الله عليهم عذابا ، بعث عليهم ناراً فاضطرمت عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة أنه كان عذاب يوم عظيم .

وروى بسندة عن ابن جريح ، قوله : ﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾ قال : قوم شعيب . قال ابن عباس : الأيكة ذات آجام وشجر كانوا فيها .

---

(١) سورة ق الآية رقم : ١٤ .

قال ابن كثير : ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره : أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف ، وانما عمدتهم شيئان : أحدهما أنه قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ .

والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول : أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا .

ولما نسبهم الى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم .

وهذا الفرق من النفائس اللطيفةالعزيزة الشريفة .

وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فان كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى ، فليكن تعدد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئا من هذا الشأن .

فأما الحديث الذي أورده الحافظ بن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام بسنده عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : (ان قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيبا النبي عليه السلام) . فأنه حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه .

والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو ، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني اسرائيل .. والله أعلم .

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان ، فدل على أنهم أمة واحدة ، وأهلكوا بأنواع من العذاب . وذكر في كل موضع ما يناسبه من الخطاب .

وقال القرطبي : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾ يريد قوم شعيب كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر متمر ، والأيكة : الغيضة ، وهي جماعة الشجر ، والجمع الأيك ، ويروى أن شجرهم كان دوما وهو المقل ، قل النابغة :

تجلوا بقادمتى حمامة أيكة   بردا أسف لثاته بالأثمد

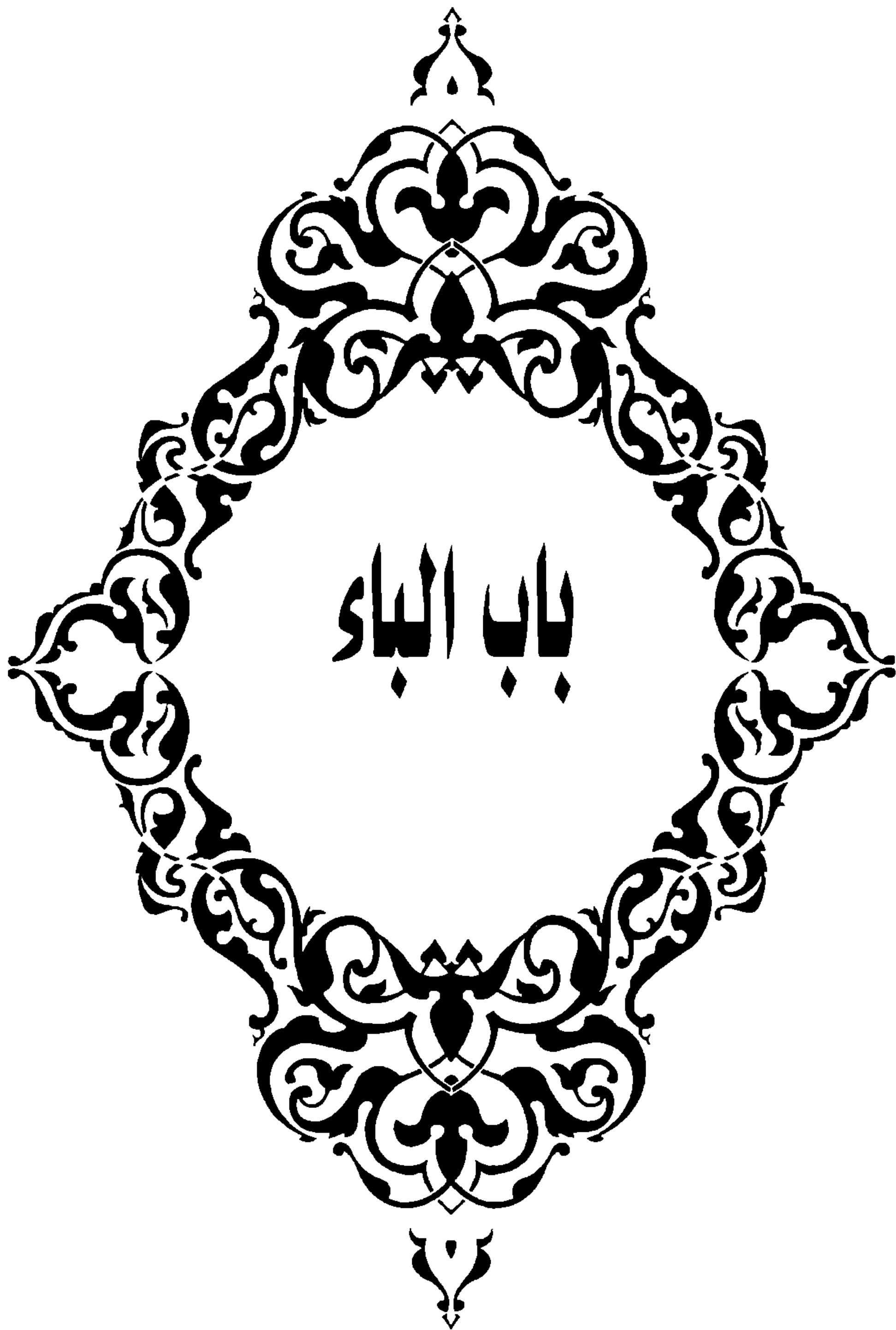
وقيل : الأيكة اسم القرية ، وقيل اسم البلدة ، وقال أبو عبيدة : الأيكة وليكة مدينتهم .

وقال البكري : الأيكة المذكورة في كتاب الله تعالى ، الى كانت منازل قوم شعيب : روى عن ابن عباس فيها روايتان : أحداهما أن الأيكة مدين الى شغب وبدأ ، والثانية أنها من ساحل البحر إلى مدين . قال : وكان شجرهم المقل ، والأيكة عند أهل اللغة الشجر الملتف وكانوا أصحاب شجر ملتف .

وقال قوم : الأيكة : الغيضة ، وليكة : اسم البلد حولها ، كما قيل في مكة وبكة ، قال أبو جعفر بن النحاس : لا يعلم (ليكة) اسم بلد .

قال ياقوت : الأيكة التي جاء ذكرها في كتاب الله عز وجل ، ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، قيل : هي تبوك التي غزاها النبي ﷺ آخر غزواته ، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه ويقولون : أن شعيبا عليه السلام أرسل الى أهل تبوك ، ولم أجد هذا في كتب التفسير ، بل يقولون : الأيكة الغيضة الملتفة الأشجار ، والجمع أيك ، وأن المراد بأصحاب الأيكة أهل مدين ، قال ياقوت : ومدين وتبوك متجاورتان .

قلت : هذا خلاصة ما ذكره المفسرون والمؤرخون في التعريف بالأيكة التي ورد ذكرها في كتاب الله عز وجل ومما تقدم نرى اختلافا بين المفسرين في التعريف بأصحاب الأيكة ، فبعضهم يرى أن أصحاب الأيكة ومدين أمة واحدة ، وبعضهم يرى أنهما أمتان أرسل اليهما شعيب ، غير أن ابن كثير يرجح أنهما أمة واحدة وأنكر على من قال أنهما أمتان مختلفتان والله أعلم وفي رسم (مدين) مزيد من الإيضاح .


باب الباء

البـــاب : ببباء موحده بعدها ألف وبعد الألف باء موحدة : المراد به باب (الحطة) من بيت المقدس .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [3] .

قال ابن جرير في تفسيره : أما الباب الذي أمروا أن يدخلوه ، فانه قيل : هو باب (الحطة) من بيت المقدس .

وروى بسنده عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ **قال : باب الحطة ، من باب ايلياء من بيت المقدس .**

وروى بسنده عن السدى : ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ **، أما الباب فباب من أبواب بيت المقدس .**

وبسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ **أنه أحد أبواب بيت المقدس ، وهو يدعى باب حطة . وأما قوله** ﴿ سُجَّدًا ﴾ **، فان ابن عباس كان يتأوله يعنى الركع .**

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .
(٢) سورة النساء الآية رقم : ١٥٤ .
(٣) سورة النساء الآية رقم : ١٦١ .

ويسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ ، قال : ركعا من باب صغير .

قال ابن جرير : وأصل السجود الانحناء لمن سجد له معظماً بذلك ، فكل منحن لشيء تعظيماً له فهو ساجد ومنه قول الشاعر :

بجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم منه سجدا للحوافر

يعني بقوله : ﴿ سُجَّدٗا ﴾ خاشعة خاضعة . ومن ذلك قول أعشى بني قيس بن ثعلبة :

يراوح من صلوات المليك طورا سجودا وطورا جؤارا

فذلك تأويل ابن عباس قوله ﴿ سُجَّدٗا ﴾ ركعا . لأن الراكع منحن وان كان الساجد أشد أنحناء منه .

وقال القرطبي : والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ (باب حطة) عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القبة التي كان يصلى اليها موسى وبنوا اسرائيل . و ﴿ سُجَّدٗا ﴾ قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعاً لا على هيئة متعينة .

وقال الشوكاني : قال جمهور المفسرين : القرية هي بيت المقدس ، وقيل : انها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس ، وقيل : من قرى الشام .

والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة وقيل : هو باب القبة التي كان يصلى اليها موسى وبنو اسرائيل .

وقال النسفى : ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ ﴾ ، باب القرية أو باب القبة التي كانوا يصلون اليها ، وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام وانما دخلوا الباب في حياته ، ودخلوا بيت المقدس بعده .

قلت : هذا خلاصة ما قاله المفسرون في تحديد الباب الذي ورد ذكره في هذه الآيات الكريمة ، وفي رسم (القرية) مزيد من الايضاح .

الباب : كالذي قبله .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ ﴾ (١) .

قال ابن جرير في تفسيره فيما رواه بسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾، والرجلان اللذان أنعم الله عليهما من بنى اسرائيل : يوشع بن نون ، وكالوب بن يوفنة .

وروى بسنده عن قتادة قال : ذكر لنا أن الرجلين يوشع بن نون وكالب . فقال : ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ ﴾ هي مدينة الجبارين .

وبسنده عن ابن ابي نجيح ، عن مجاهد في قول الله : ﴿ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ ﴾ ، قرية الجبارين .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هما يوشع وكالب يوقنا ويقال ابن قانيا . ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي بالاسلام أو باليقين والصلاح . ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ .

قال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ أي باب بلد الجبارين .

قلت : وفي رسم (التيه) ورسم (القرية) مزيد من الايضاح فيه كفاية أن شاء الله .

البـــاب : كالذي قبله : وهذا يقصد به الباب الذي استبق يوسف عليه السلام وامرأة العزيز اليه وهو باب البيت الذي كانا فيه .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾(١) .

قال ابن جرير : يقول جل ثناؤه : واستبق يوسف وامرأة العزيز باب البيت ، أما يوسف ففراره من ركوب الفاحشة لما رأي برهان ربه فزجر عنها .

وأما المرأة فطلبها ليوسف لتقضى حاجتها منه التي راودته عليها ، فأدركته فتعلقت بقميصه فجذبته اليها ، مانعة له من الخروج من الباب ، فقدته من دبر ، يعنى شقته من خلف لا من قدام ، لأن يوسف كان هو الهارب ، وكانت هي الطالبة .

---

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٢٥ .

وروى بسنده عن مجاهد : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ ، قال : سيدها زوجها ﴿ لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ ، قال : عند الباب .

وبسنده عن زيد بن ثابت قال (السيد) ، الزوج .

وبسنده عن السدى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ ، قال : جالسا عند الباب ، وابن عمها معه ، فلما رأته قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوء ؟ .

أنه روادنى عن نفسى ، فدفعته عن نفسى فشققت قميصه . قال يوسف : بل هي راودتنى عن نفسى وفررت منها فأدركتني فشقت قميصى .

فقال ابن عمها : تبيان هذا في القميص ، فان كان القميص قد قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فأتى بالقميص ، فوجده قد من دبر قال : ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ أي وجد العزيز عند الباب ، وعنى بالسيد الزوج ، والقبط يسمون الزوج سيدا ، فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة وكادت ، فقالت : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ أي زنى . ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قال : ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ أي تسابقا اليه ، يوسف يريد الفرار والخروج من البيت ، وامرأة

العزيز تريد أن تسبقه اليه لتمنعه لأن تسابقهما كان الى الباب الذي يخلص منه الى خارج الدار ، ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ أي وجدا العزيز هنالك ، وعنى بالسيد الزوج ، لأن القبط يسمون الزوج سيدا ، وانما لم يقل سيدهما ، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحا فلم يكن سيدا له .

قال ابن كثير : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ ﴾ يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه مالا يليق بحالة ومقامة ، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت وهى مع هذا كله امرأة الوزير ، وبنت أخت الملك الريان ابن الوليد صاحب مصر ،

والمقصود أنها دعته اليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾ يعنى زوجها صاحب المنزل سيدى ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ أي أحسن الى وأكرم مقامى .

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ أي هرب منها طالبا الى الباب ليخرج منه فرارا منها فاتبعته في أثره ﴿ وَأَلْفَيَا ﴾ أي وجدا ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أي زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرضته عليه ، ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقال الصابوني : أقام يوسف الصديق في بيت عزيز مصر ، منعما مكرما ، وكان فائق الحسن والجمال فلما شب وكبر ، عشقته

---

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٢٥ .

امرأة العزيز وشغفت به حبا ودعته الى نفسها ، ولقد كان يوسف طاهر النفس عفيف الخلق مستقيم السيرة ، استعصى على تلك الفتنة العارمة ووقف في وجه الشهوة والأغراء موقف المؤمن الحازم .. وقالت ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، قال : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ أى سيدي ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

وقال عفيف طبارة : كانت منة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع سببا لمحنته وذلك أن زليخاً امرأة العزيز (وزير الملك) رأت بعين الأنثى جمال يوسف فخفق قلبها واضطربت مشاعرها ، ولبثت وقتا تتردد في اظهار شعورها نحو يوسف الى أن غلب الحب عواطفها واستحوذ الضعف الطبيعي على مشاعرها ، فانتهزت فرصة وجوده في بيتها يوما ، وأخذت تغريه بنفسها ليبادلها الحب ، فعرضت عليه محاسنها ومفاتنها بعد أن أوصدت الأبواب وقالت له: أقبل على فقد هيأت نفسى لك ، ففر منها يوسف نفرة الغضوب واستنكر منها ذلك الأمر قائلاً : انى ألجأ الى الله ليحميني من الاثم، وكيف أرتكب وزوجك العزيز سيدي أكرمنى وأحسن وفادتى ، أنه لا يفوز من يقابل الاحسان بالغدر والخيانة .

أسرع يوسف إلى الباب يريد الافلات منها وأسرعت وراءه لتحول دون خروجه ، وجذبت قميصه من الخلف لتمنعه من الخروج فتمزق ، لكنه تمكن من الخروج ، وفي هذه الحال وجدا عند الباب زوجها فبادرته باتهام يوسف بمحاولة اغتصابها وحرضته على سجنه .

قلت : فلما تقدم نرى أن علماء المفسرين يتفقون على تفاصيل أحداث محنة يوسف عليه السلام التي وقعت له بسبب مراودة أمرأة العزيز له عن نفسه ، وأن هذا الحدث وقع في بيت العزيز وعلى

يد امرأته وأن الباب الذي استبقا اليه هو باب بيت العزيز الذي يفضى بهما إلى خارج البيت ، غير أن الله سبحانه وتعالى بلطفه وكرمة أنجا يوسف عليه السلام من هذه المحنة .

وكان مسكن العزيز الذي وقع فيه الابتلاء ليوسف في مصر .

البــــاب : كالذي قبله : المقصود به أحد أبواب مدينة مصر .

قال الله تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب عليه السلام : ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1] .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره قال يعقوب لبنيه لما أرادوا الخروج من عنده إلى مصر ليمتاروا الطعام : يابنى لا تدخلوا مصر من طريق واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة . وذكر أنه قال ذلك لهم ، لانهم كانوا رجالا لهم جمال من طريق واحد ، وهم ولد رجل واحد ، فأمرهم أن يتفرقوا في الدخول اليها .

وروى بسنده عن الضحاك ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ قال : خاف عليهم العين .

وبسنده عن قتادة قوله : ﴿ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ ﴾ خشى نبي الله ﷺ العين على بنيه كانوا ذوى صورة وجمال .

وبسنده عن محمد بن كعب ، ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ ﴾ قال : خشى عليهم العين .

---

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٦٧ .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ لما عزموا على الخروج خشى عليهم العين ، فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ، وانما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرجل واحد ، وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة ، قاله ابن عباس والضحك وقتادة وغيرهم .

بابل: بباء موحدة بعدها ألف وباء أخرى موحدة مكسورة وآخره لام : مدينة شهيرة في العراق .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ (١)

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعجمة ، وهي قطر من الأرض ، قيل : العراق وما والاه ، قال ابن مسعود لأهل الكوفة : أنتم بين الحيرة وبابل ، وقال قتادة : هي من نصيبين الى رأس العين . وقال قوم : هي بالمغرب . قال ابن عطية: وهذا ضعيف . وقال قوم : هو جبل نهاوند ، فالله تعالى أعلم .

واختلف في تسميته ببابل ، فقيل : سمى بذلك لتبلبل الألسن بها حين سقط صرح نمروذ . وقيل : سمى به لأن الله تعالى لما أراد أن يخالف بين ألسنة بنى آدم بعث ريحا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل ، فبلبل الله ألسنتهم بها ، ثم فرقتهم تلك الريح في البلاد . والبلبلة : التفريق ، قال معناه الخليل .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ١٠٢ .

قال أبو عمرو بن عبد البر من أخصر ما قيل في البلبلة وأحسنه ما رواه داود ابن أبى هند عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لما هبط إلى أسفل الجودى إبتنى قرية وسماها ثمانين ، فأصبح ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة ، احداها اللسان العربي ، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

قال البكري : بابل ، بالعراق مدينة السحر ، معروفة .. وقال أصحاب الأخبار : بنى نمروذ الخاطىء المجدل ببابل ، طوله في السماء خمسة آلاف زراع وهو البنيان الذي ذكره الله في كتابه ، فقال : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قالوا : وبات الناس ولسانهم سرياني ، فأصبحوا وقد تفرقت لغاتهم على اثنتين وسبعين لسانا ، وأصبح كلّ يبلبل بلسانه ، فسمى الموضع بابل .

وقال الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني : وكان اسمة خيتارت ، وربما سموا العراق بابل ، قال عمر بن أبى ربيعة وأتى البصرة ، فضافه فيها ابن هلال المعروف بصديق الجن :

يـاأهل بـابل مـا نفسـت علـيكم ... مـن عيشـكم الا ثـلاث خصـال
مـاء الفـرات وظـل عـيش بـارد ... وسمـاع سمعـتين لابـن هـلال

وقال ياقوت : بابل : بكسر الباء : اسم ناحية منها الكوفة ، والحلة ينسب اليها السحر والخمر ، قال الأخفش : لا ينصرف

لتأنيثه ، وذلك أن اسم كل شيء مؤنث اذا كان علما وكان على أكثر من ثلاثة أحرف فانة لا ينصرف .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ ، قيل بابل العراق ، وقيل بابل دمباوند ، وقال أبو الحسن : بابل الكوفة ، وقال أبو معشر : الكلدانيون هم الذين كانوا ينزلون بابل في الزمن الأول ، ويقال : ان أول من سكنها نوح عليه السلام ، وهو أول من عمرها ، وكان قد نزلها بعقب الطوفان ، فسار هو ومن خرج معه من السفينة اليها لطلب الدفء فأقاموا بها وتناسلوا فيها وكثروا من بعد نوح وملكوا عليهم ملوكاً ، وابتنوا بها المدائن ، واتصلت مساكنهم بدجلة والفرات الى أن بلغوا من دجله الى أسفل كسكر ، ومن الفرات الى ما وراء الكوفة وموضعهم هو الذي يقال له السواد ، وكانت ملوكهم تنزل بابل وكان الكلدانيون جنودهم فلم تزل مملكتهم قائمة الى أن قتل منهم خلق كثير فذلوا وانقطع ملكهم .

وقد أطال ياقوت في حديثه عن بابل ، في وصفها وغرائب ما فيها وذكر أشياء كثيرة ليست من شأننا .

وقال الحميري : بابل : بالعراق ، كانت بابل من عظمها واستبشاع أمرها لا تكاد تجعل من عمل الأدميين وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ .

ويقال إن الضحاك أول من بناها ، وسكنها العمالقة ، ودخلها إبراهيم عليه السلام ، ويقال : إن بها مولده ، وقيل : بل ولد بالسوس من أرض الأهواز ، وقيل : بكوثى من أرض السواد ، وينسب إليها

السحر والخمر ويقال : إن بها هاروت وماروت يعذبان إذ اختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة وإنهما معلقان في سرب تحت الأرض كالحبلين ، وأن بعض الناس رآهما كذلك ، فجادلهم يهودى بها لرغبته في ذلك فلما رأى منظرهما رأى منظرا عظيماً وأمرا هائلا أفزعه ، هذا سمعته من الفقيه ابن البراء يحكى عن مجاهد صاحب التفسير ، ولا أدرى أهو الرائي لهما أو غيره فالله أعلم .

ويقال : إن نمرد أسسها وهي مدينة ضاحكة المنظر جميلة المنصب زاهرة البناء واسعة الفناء قد جمعت إلى حسن المنظر من كل جانب رصانة البنيان وبها المنصب ، وكانت سهلة بطحاء ديمومة فيحاء مربعة لها في كل تربيع حصنان عظيمان ، وسائر ذلك من سورها لا يكاد من يبلغه خبره يصدق بصفته لكثرة ارتفاعه وفرط اتقانه .

.. قالوا : وبابل أقدم بنا بنى بعد الطوفات وأن منها تفرق ولد نوح عليه السلام ، وأن الذي هدمها كسرى الأول ملك الفرس لما تغلب على أرض بابل ، وملوك بابل هم النبط ، وزعموا أنهم أول ملوك العالم وأن الفرس أخذت الملك منهم كما أخذته الروم من اليونانيين وأول ملوكهم نمرود ، وهم الذين شيدوا البنيان ومدنوا المدن وكوروا الكور وشقوا الأنها ورتبوا الجيوش وجعلوا الألوية والاعلام .

وقد تحدث المسعودي عن إقليم بابل فقال : وأوسط الأقاليم أقليم الذي ولدنا به ، وإن كانت الأيام أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولدت في قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو إقليم بابل ، وقد كان هذا الأقليم عند ملوك الفرس جليلا وقدره عظيماً ، وكانت عنايته إليهم ، وكانوا يشتون بالعراق ،

وأكثرهم يصيفون بالجبال ويتنقلون في الفصول إلى الصرود من الأرض والحرور ، وقد كان أهل المروءات في الإسلام كأبى دلف القاسم بن عيسى العجلى وغيره يشتون في الحرور ، وهو العراق ، ويصيفون في الصرود ، وهي الجبال وفي ذلك يقول أبو دلف :

وإنـى امـرؤ كسـروى الفعـال أصـيف الجـبال وأشـتو العـراقا

وذلك بما خص به هذا الإقليم من كثرة مرافقة ، واعتدال أرضه ، وغضار عيشة ، ومادة الوافدين اليه ، وهما دجلة والفرات[١] .

قلت : وقد إتفق المؤرخون على تحديد إقليم بابل في العراق ، وذكر بعضهم عن مدينة بابل أشياء لا تتفق مع طبيعة الإنسان وتحضره ونشاطه في العمران ، لذلك لم نذكرها لأنه ليست من شأننا في كتابنا هذا .

وقد حدد الدكتور السامرائي اقليم بابل بقوله : إقليم بابل يشمل منطقة أكد الكائنه في الوسط- يعنى وسط العراق- وهي شمال بلاد سومر الجنوبية التي استولى عليها البابليون بعد ذهاب دولتهم الجنوبية ، والسومريون أمة لم يتفق المؤرخون في عصرنا على أصلهم- ومن أين جاءوا ، ولكنهم إتفقوا على أنهم ليسوا ساميين ولغتهم ليست سامية .

وبابل الحديثة ، وهي إسم لإحدى المحافظات في العراق ومركزها مدينة الحلة[٢] .

---

(١) مروج الذهب ٢ - ٣٨ - ٣٩ .
(٢) نظرات في المعجم الكبير رقم ١٢٧ .

البحـــر: ببأ موحدة مفتوحة وحاء مهملة ساكنة وآخره راء مهملة: واحد البحار، والمقصود هنا هو بحر القلزم (البحر الأحمر).

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة الآية – ٥٠ .
(٢) سورة يونس الآية – ٩٠ .
(٣) سورة طه الآية – ٧٧ .
(٤) سورة الشعراء الآية – ٦٣ .
(٥) سورة الدخان الآية – ٢٤ .
(٦) سورة الأعراف الآية – ١٣٨ .

روى القرطبي بسنده عن عبدالله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببني اسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذ بحت، ثم قال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لي ستمائة ألف من القبط ، قال: فانطلق موسى حتى انتهى الى البحر، فقال له: افرق، فقال له البحر، لقد استكبرت يا موسى، وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك، قال ومع موسى رجل على حصان له قال: فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت الا بهذا الوجه، قال فأقحم فرسه فسبح فخرج. فقال اين أمرت يا نبي الله؟ قال ما أمرت الا بهذا الوجه ، قال: والله ما كذبت ولا كذّبت، ثم اقتحم الثانية فسبح به حتى خرج، فقال أين أمرت يا نبي الله؟ فقال: ما أمرت الا بهذا الوجه ، قال: والله ما كذبت ولا كذّبت، قال: فأوحى الله اليه: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فضربه موسى بعصاه ، ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، فكان فيه اثناء عشر فرقا لاثنى عشر سبطا، لكل سبط طريق يتراؤن، وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا، فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم.

ويذكر أن البحر هو بحر القلزم، وأن الرجل الذي كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون.

وقال ابن جرير: حدّثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن اسحاق، عن محمد بن كعب القرظى، عن عبدالله بن شدّاد بن الهادى قال: لقد ذكرلي أنه خرج فرعون في طلب موسى على سبعين ألف من دهم الخيل، سوى ما فى جنده من شهب الخيل، وخرج موسى حتى اذا قابله البحر ولم يكن له عنه منصرف، طلع فرعون في جنده من خلفهم ، ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا

لَمُدۡرَكُونَ ﴾ قال موسى ، ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ أى للنجاة، وقد وعدنى ذلك ولا خلف لوعده.

حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثنى ابن اسحاق قال: أوحى الله الى البحر فيما ذكرلي -: اذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له، قال: فبات البحر يضرب بعضه بعضا فرقا من الله وانتظار أمره، فأوحى الله الى موسى ﴿ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ فضربه بها، وفيها سلطان الله الذي أعطاه ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، أى كالجبل على نشز من الأرض، يقول الله لموسى : ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقًا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ فلما استقرله البحر على طريق قائمة يبس، سلك فيه موسى ببني اسرائيل واتبعه فرعون بجنوده.

حدّثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثنى محمد بن اسحاق، عن محمد بن كعب القرظى ، عن عبدالله بن شداد بن الهاد الليثى قال: حدّثت أنه لما دخلت بنو اسرائيل البحر فلم يبق منهم أحد، أقبل فرعون و هو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن ينفذ، فعرض له جبريل على فرس أنثى وديق، فقربها منه، فشمها الفحل، فلما شمها قدمها، فتقدم معها الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون فرعون قد دخل، دخلوا معه وجبريل أمامه، وهم يتبعون فرعون، وميكائيل على فرس من خلف القوم يسوقهم، يقول: "الحقوا بصاحبكم" حتى اذا فصل جبريل من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى، وليس خلفه أحد، طبّق عليهم البحر ونادى فرعون- حين رأى من سلطان الله عزّوجل وقدرته ما رأى،

وعرف ذلّه، وخذلته نفسه - : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ .

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، قال : حدثنا حجاج، قال حدثنا حمّاد عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: لمّا أغرق الله فرعون قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ فقال جبريل: يا محمد لورأيتنى وأنا آخذ من رمال البحر وأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة.

حدثنا ابن وكيع قال حدثنا الحسين بن على عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال: خطب الضحّاك بن قيس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ان فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ ، قال الله : ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ .

وفي تأويل قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ .

قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نجوى من الأرض ببدنك، ينظر اليك هالكا من كذب بهلاكك ﴿ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾ ، يقول : لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله والكفر به والسعى في أرضه بالفساد.

حدثنا محمد بن الأعلى قال: حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أبى السليل عن قيس بن عبادة وغيره قال: قالت بنو اسرائيل لموسى: انه لم يمت فرعون، قال: فأخرجه الله اليهم ينظرون اليه مثل الثور الأحمر.

قلت : وقد روى ابن جرير هذه الأخبار من طرق متعددة يكمل بعضها بعضا ويوضح بعضها بعضا.

وقال ياقوت : بحر القلزم وهو شعبة من بحر الهند أوله عند بلاد البربر والسودان وعدن ثم يمتد مغربا، وفي أقصاه مدينة القلزم قرب مصر، وبذلك سمّى بحر القلزم ويسمى في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضوع، فعلى ساحله الجنوبي بلاد البربر والحبش، وعلى ساحله الشرقى بلاد العرب فهو يمربساحله الشرقي على بلاد اليمن وجدة والجار وينبع ومدين، مدينة شعيب النبي، عليه السلام و أيلة الى القلزم في منتهاه، وهو الموضع الذي غرق فيه قوم فرعون وفرعون أيضا، وبين هذا الموضوع وفسطاط مصر سبعة أيام.

والقلزم: بالضم ثم السكون ثم زاى مضمومة، وميم، القلزمة: ابتلاع الشىء، يقال: تقلزمه اذا ابتلعه، وسمى بحر القلزم قلزما لا لتهامه من ركبه: وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله.

وقال: وبين مدينة القلزم ومصر ثلاثة أيام، وهى مدين مبنية على شفير البحر ينتهى هذا البحر اليها. وليس بها زرع ولا شجر ولا ماء وانما يحمل اليها من ماء آبار بعيدة منها، ومنها تحمل حمولات مصر والشام الى الحجاز واليمن.

قلت : هذا موجز لما اطلعت عليه من خبر نجاة موسى وقومه وهلاك فرعون وقومه ، وما قيل في البحر الذي أهلك الله فيه فرعون وقومه، وهو بحر القلزم المعروف في هذا العهد (بالبحر الأحمر).

ويفهم من النصوص المتقدمة أن البحر الذي أنجى الله فيه موسى عليه السلام وقومه، وأهلك فيه فرعون وقومه، هو خليج السويس، الذي هو شعبة ممتدة من البحر الأحمر، معترضة بين مصر وبين سينأ وبلاد الشام، وهو أقرب البحار الى مصر، وكانت مدينة القلزم التي ينسب اليها هذا البحر عند نهايته، وقد حلت محلها في هذا العد مدينة الويس، ومن ثم أصبح يسمى خليج السويس وقد صرح ياقوت بقوله: في وصف هذا البحر: القلزم في منتهاه، و هو الموضع الذي غرق فيه قوم فرعون وفرعون أيضا، وبين هذا الموضع وفسطاط مصر سبعة أيام، بأن خليج السويس هو الذي غرق فيه فرعون وقومه.

ويؤيده ما قاله ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ الى قوله: ﴿ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ المقصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوما من الجبارين من الحيثانيين ولفزاريين والكنعانيين وغيرهم، وبلاد هؤلاء هي التي تقابل هذا الخليج من الجانب الآخر الذي نجا فيه موسى وقومه.

البحـــــر: بباء موحدة وحا مهملة وآخره راء، كالذي قبله: ويترجح من أقوال المفسرين أن البحر المقصود هو بحر القلزم، (البحر الأحمر).

قال الله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف الآية – ١٦٣ .

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: واسأل يا محمد هؤلاء اليهود وهم مجاوروك، عن أمر ﴿ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ يقول: كانت بحضرة البحر، أي: بقرب البحر وعلى شاطئه.

واختلف أهل التأويل فيها، فقال بعضهم: هي أيلة.

وروى بسنده عن ابن عباس : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ قال هي قرية يقال لها: (أيلة) بين مدين والطور.

وبسنده عن عبدالله بن كثير في قوله: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ قال: سمعنا أنها أيلة.

وبسنده عن مجاهد في قوله: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ قال: أيلة.

وقال آخرون: معناه: ساحل مدين.

وبسنده عن قتادة: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ الآية ذكرلنا أنها كانت قرية على ساحل البحر يقال لها أيلة.

وقال آخرون: هى مقنا .

وروى بسنده عن ابن زيد في قوله: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ قال: هي قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينوني.

وقال آخرون: هي مدين.

وروى بسنده عن ابن عباس قال: هي قرية بين أيلة والطور يقال لها: مدين.

قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر وجائز أن تكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقنا، لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأي ذلك من أي، والاختلاف فيه على ما وصفت.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: هي قرية يقال لها: أيلة، بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدى، وقال عبدالله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أيلة وقيل هي مدين وهو رواية عن ابن عباس، وقال ابن زيد، هي قرية يقال لها: مقنا بين مدين وعينوني.

قلت : وسيأتي الحديث مستوفي عن هذا البحر في الحديث عن القرية، في رسم (القرية)- ان شاء الله- بما فيه كفاية.

بـــدر : بباء موحدة مفتوحة ودال مهملة ساكنة وآخره راء مهملة: ماء مشهور بين مكة والمدينة.

قال الله تعالى في كتابة العزيز : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١) .

قال ابن جرير: يعنى بذلك جل ثناؤه: وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا وينصركم ربكم، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ على أعدائكم وأنتم يؤمئذ ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ يعنى: قليلون، في غير منعة من الناس، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرة عددهم وقلة

---

(١) سورة آل عمران الآية – ١٢٣ .

عددكم، وأنتم اليوم أكثر عددا منكم حينئذ، فان تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم ذلك اليوم، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ، يقول تعالى ذكره: فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يقول: لتشكروه على ما من به عليكم من النصر على أعدائكم واظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه فخالفوكم.

قال: واختلف في المعنى الذي من أجله سمى بدر ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ فقال بعضهم: سمى بذلك لأنه كان ماء لرجل يسمى بدرا، فسمى باسم صاحبه، عن الشعبي.

وأنكر ذلك آخرون وقالو: ذلك اسم سميت به البقعة كما سمى البلدان بأسمائها.

وبسنده عن الضحاك: بدر ماء عن يمين طريق مكة، بين مكة والمدينة.

وبسنده عن قتادة قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، وبدر ماء بين مكة والمدينة ، التقى عليه نبي الله ﷺ والمشركون، وكان أول قتال قاتله نبي الله ﷺ . وذكرلنا أنه قال لأصحابه يومئذ: (أنتم اليوم بعدة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت). فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، والمشركون يؤمئذ ألف، أو راهقوا ذلك.

قال ياقوت : بدر: بالفتح ثم السكون، قال الزجاج: بدر أصله الامتلاء، يقال غلام بدر اذا كان ممتلئا شابا لحما، ويقال قد بدر فلان الى الشىء وبادر اليه اذا سبق، ومعناه استعمل غاية قوته وقدراته على السرعة أي استعمل ملئ طاقتة.

وسمّى القمر ليلة الأربعة عشر بدرا لتمامة وعظمه.

وبـدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادى الصفراء بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر ليلة، ويقال: أنه ينسب الى بدر ابى يخلد ابن النضر بن كنانة وقيل: بل هو رجل من بني ضمرة سكن هذا الموضع فنسب اليه ثم غلب اسمه عليه.

وقال الزبير بن بكار: قريش بن الحارث بن يخلد ويقال: مخلد بن النضر بن كنانة به سميت قريش فغلب عليها لأنه كان دليلها وصاحب سيرتها، فكانوا يقولون جاءت عير قريش وخرجت عير قريش، قال: وابنه بدر من قريش به سميت بدر التي كانت بها الوقعة المباركة، لأنه كان احتفرها، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الاسلام وفرق بين الحق والباطل، في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة.

وبين بدر والمدينة سبعة برد: بريد بذات الجيش، وبريد عبود، وبريد المرغة، وبريد المنصرف، وبريد ذات أجذال، وبريد المعلاة، وبريد الأثيل، ثم بدر، وبدر الموعد وبدر القتال وبدر الأولى والثانية: كله موضع واحد.

وقد نسب الى بدر جميع من شهدها من الصحابة الكرام، ونسب الى سكن الموضع أبو مسعود البدري واسمه عقبة بن عمر بن ثعلبة بن أسيرة بن عسرة بن عطية بن جدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج، شهد العقبة الثانية وكان أصغر من شهدها.

وقال البكري : بدر: ماء على ثمانية وعشرين فرسخا، من المدينة في طريق مكة ومن بدر الى الجار ستة عشر ميلا وميرتها من الجار[1].

---

(١) الجار كانت ميناء على ساحل البحر الأحمر.

وبدر عينان جاريتان عليهما الموز والعنب والنخل، قال عبدالله بن جعفر بن مصعب الزبيري، عن معصب بن عبدالله: كان قريش بن بدر بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة دليل بنى كنانة في تجاراتهم، فكان يقال قدمت عير قريش، فسميت قريش به، قال وهو صاحب بدر الذي لقى عليه رسول الله ﷺ مشركى قريش، أنبط هنالك بئرا فنسب اليه.

وروى زكريا عن الشعبي، قال سميت بدرا لأنه كان ماء لرجل من جهينة اسمه بدر. قال الواعدي: ذكرت ذلك لعبدالله بن جفعر، ومحمد بن صالح فانكراه، وقالا: لأى شىء سميت الصفراء ولأى شىء سمى الجار انما هو اسم الموضع. قال وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغفاري فقال: سمعت شيوخنا من غفار يقولون: هو ماؤنا ومنزلنا، و ما ملكة أحد قط يقال له بدر وما هو من بلد جهينة إنما هو من بلد غفار. قال الواقدي: و هو المعروف عندنا.

قال الضحاك: بدر ماء عن يمين طريق مكة بينها وبين المدينة. وبدر يذكر ولا يؤنث، جعلوه اسم ماء.

قال ابن اسحاق : نزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادى، خلف العقنقل وبطن الوادى هو يليل، وبين العقنقل الكثيب الذي خلفته قريش، والقليب بدر هو في العدوة الدنيا من بطن يليل الى المدينة.

غزوة بدر الكبرى : سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون منهم مخرمة بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، و عمرو بن العاص بن وأئل بن هشام، فندب رسول الله ﷺ المسلمين اليهم وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس فخف

بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الاخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خبرا من بعض الركباب أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه الى مكة. وأمرة أن يأتي قريشا فيستنفرهم الى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعا الى مكة.

فتجهز الناس سراعا للخروج وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ، كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين، أما خارج وأما باعث مكانه رجلا.

وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد. الا أن أبا لهب بن عبدالمطلب تخلف، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجرة وبعثه فخرج عنه وتخلف أبو لهب.

وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه - قال ابن هشام: خرج (يوم الاثنين) لثمان ليال خلون من شهر رمضان- واستعمل عمروا بن أم مكتوم- ويقال اسمه: عبدالله بن أم مكتوم أخا بنى عامر بن لؤي على الصلاة بالناس، ثم ردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة.

قال ابن اسحاق : ودفع اللواء الى مصعب بن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبدالدار، قال ابن هشام: وكان أبيض.

قال ابن اسحاق : وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان، أحداهما مع على بن أبي طالب يقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، ثم قال: سيروا وأبشروا، فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدم العير حذرا، حتى ورد الماء، يعنى ماء بدر- فعلم بقرب النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه منا فرجع إلى اصحابه سريعا، فضرب وجه عيره عن الطريق، فساحل بها، وترك بدرا بيسار وانطلق حتى أسرع.

قال ابن اسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل الى قريش: انكم انما خرجتم لتنمعوا عيركم ورجالكم، فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثة فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يها بوننا أبدا بعدها، فامضوا.

قال ابن اسحاق : ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى ، خلف العقنقل وبطن الوادي ، وهو يليل بين بدر وبين العقنقل الكثيت الذي خلفه قريش ، والقلب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة .. فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم الماء ، حتى اذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه ، فملىء ماء ، ثم قذفوا فيه الأنية .

قال ابن اسحاق : وقد ارتحلت قريش حين أصبحت ، فأقبلت فلما رآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل- وهو الكثيب الذين جاءوا منه الى الوادى- قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداه .

قال ابن اسحاق : ثم تزاحف الناس ودنى بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله ﷺ أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : ان اكتنفكم القوم فانفحوهم عنكم بالنبل ، ورسول الله ﷺ في العريش ، معه أبو بكر الصديق .

فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبعة عشر من شهر رمضان .

قال : ثم خرج رسول ﷺ الى الناس فحرضهم ، وقال : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، الا أدخله الله الجنة .

قال ابن اسحاق : ثم أن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال : شاهت الوجوه ، ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه ، فقال : شدوا ، فكانت الهزيمة ، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

قال ابن هشام : وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر : أحد أحد .

قال ابن اسحاق : فجميع من شهد بدرا من المسلمين ، من المهاجرين والأنصار من شهدها منهم ، ومن ضرب له بسهمه وأجره ثلاث مائة رجل وأربعة عشر رجلا ، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا ، ومن الأوس واحد وستون رجلا ، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلا .

غزوة بدر الآخره

كانت هذه الغزوة في شهر شعبان سنة أربع .

قال ابن اسحاق : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة الرقاع، اقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا . ثم خرج في شعبان الى بدر ، لميعاد أبى سفيان ، حتى نزلة .

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول الأنصارى .

قال ابن اسحاق : فأقام عليه ثمانى ينتظر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة ، من ناحية الظهران ، وبعض الناس يقول : قد بلغ عسفان ، ثم بدا له في الرجوع ، فقال : يامعشر قريش أنه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن وأن عامكم هذا عام جدب وانى راجع فارجعوا ، فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق ، يقولون : انما خرجتم تشربون السويق .

وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لمعيادة ، فأتاه مخشى بن عمرو الضمرى وهو الذي كان وادعه على بنى ضمرة في غزوة ودان ، فقال : يامحمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء ، قال نعم : ياأخا بنى ضمرة ، وأن شئت مع ذلك رددنا اليك ما كان بيننا وبينك ثم جالد ناك حتى يحكم الله بيننا وبينك ، قال : لا والله يامحمد ، ما لنا بذلك منك من حاجة .

قلت : ولعبد الله بن رواحة ولحسان بن ثابت في ذلك شعر ذكره بن هشام في سيرته ، قلت : هذا هو بدر الذي جرت فيه غزوتا رسول الله ﷺ ، وهو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف .

وقد نشأت في بدر بلد نامية " تبعد عن المدينة المنورة (١٥٥) كيلا وعن مكة (٣١٠) أكيال ، وتبعد عن سيف البحر قرابة (٤٥) كيلا وكان ميناؤها الجار . فلما اندرست قامت بالقرب منها بلدة (الرأيس) ومنها اليوم يجلب السمك الى بدر ، وسكانها حرب ،

غالبهم بنو صبح ، وبها مدارس ومسجد جامع ، وأمارة عموم وادى الصفراء وساحل الجار "[١] .

وبلدة بدر تابعة في كل شئونها الإدارية والاجتماعية لامارة المدينة ، وموقعها بالنسبة للمدينة في الجنوب الغربي .

بدر أيضاً كالذي قبله : جبل أحمر ، يقع في ناحية وادى الركا اليسرى ، يمر مجرى الركا بينه وبين هضاب الكفل ، وفيه ماء لقبيلة الدواسر وهو واقع في ناحية بلادهم الشمالية مما يلي بلاد قحطان ، واقع في بلاد بنى الحريش قد يما ومعروف أن بلاد بنى عامر الحريش وغيرهم تشمل اليوم بلاد الدواسر وبعضا من بلاد قحطان في هذا العهد ، والماء الذي فيه يسمى : البدرية ، تابع لا مارة الدواسر .

وقد ذكره ياقوت ، وقال : وبدر جبل في بلاد باهلة بن أعصر ، وهناك أرمام الجبل المعروف ، وأحد جبلين يقال لهما : بدران في أرض بنى الحريش واسم الحريش: معاوية بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

قلت : وهذا الجبل أصبح يذكر معرفا بالألف واللام : فيقولون له ، البدر ، وللماء الذي فيه البدرية نسبة اليه .

قال ياقوت : وبدر أيضاً : مخلاف باليمن ، وهو غير الأول .
وبدر أيضاً : محافظة من محافظات أمارة نجران في هذا العهد .

بطـن مكـة: بباء موحده مفتوحة وطاء مهملة ساكنة وآخره نون موحدة ، مضاف الى مكة البلد الحرام : موضع في مكة .

---

(١) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية – ٤١ .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾(١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لرسول الله ﷺ ، والذين بايعوه بيعه الرضوان : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ يعني أن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم ، ما بعث رسول الله ﷺ فأتى بهم أسرى ، فخلى عنهم رسول الله ﷺ ومن عليهم ولم يقتلهم فقال الله للمؤمنين : وهو الذي كف أيدي هؤلاء المشركين عنكم ، وأيدكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم .

روى بسنده عن عبد الله بن مغفل أن رسول الله ﷺ كان جالسا في أصل شجرة بالحديبية ، وعلى ظهره غصن من أغصان الشجرة فرفعتها عن ظهره ، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه بين يدية وسهيل بن عمرو ، وهو صاحب المشركين ، فقال رسول الله ﷺ لعلى : (أكتب بسم الله الرحمن الرحيم) ، فأمسك سهيل بيده ، فقال : ما نعرف الرحمن ، أكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال رسول الله ﷺ : (أكتب باسمك اللهم) ، فكتب فقال : (هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة) فأمسك سهيل بيده ، فقال : لقد ظلمناك أن كنت رسولا ، أكتب في قضيتنا ما نعرف قال : (أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وأنا رسول الله) فخرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا اليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ ، (هل خرجتم في أمان أحد) قال : فخلى عنهم ، قال : فأنزل الله

(١) سورة الفتح الآية : ٢٤ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ . وروى بسنده عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابة من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم ، فأخذهم رسول الله ﷺ فأعتقهم ؛ فأنزل الله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وروى الفاكهي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما كان يوم الحديبية ، نزل على رسول الله ﷺ ، ثمانين رجلا من التنعيم من أهل مكة في سلاحهم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذوا سلما . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : يعنى أن جبل التنعيم من مكة .

وقال الفاكهي : وبكة : الوادى الذي به الكعبة ، وبطن مكة سائر الوادى مكة : فمن ذلك المربع حائط بن برمك هلم جراء .

وفخ وهو أعظمها وصدره شعب بنى عبد الله بن خالد بن أسيد[1] .

وقال أيضاً : بطن مكة مما يلي ذا طوى ما بين الثنية البيضاء التي تسلك الى التنعيم ، الى ثنية الحصحاص التي بين ذي طوى وبين الحصحاص .

قال المحقق : الثنية البيضاء هى الثنية التي تؤدي بك إلى التنعيم ، بينها وبين مسجد عائشة ما يقارب الكيلو الواحد .

---

(١) فخ هو الذي أصبح يدعى الزاهر .

وثنية الحصحاص : هو الربع الذي على يمينك وأنت متوجه الى الشهداء بعد أن تجعل ربع الكحل في ظهرك ، وهذا الربع يهبط بك الى اللصوص قادما من الشهداء ، ويقع هذا الربع في جبل الحصحاص ، بل أن جبل الحصحاص ينحصر بين ربع الكحل وربع الحصحاص هذا .

فهذه الفسحة العريضة وما تضم من حى الزهراء والشهداء كلها هي بطن مكة .

وقال الأزرقي : بطن مكة مما يلي ذا طوى ما بين الثنية البيضاء التي تسلك الى التنعيم الى ثنية الحصحاص التي بين ذى طوى وبين الحصحاص .

وقال محققه : بطن مكة هو وادى الزهراء أو الشهداء .

وفي شعر كعب بن زهير رضي الله عنه .

أن الرسول لنور يستضاف به　　　مهندٌ من سيوف الله مسلول

ويروى : أن الرسول لنور يستضاء به .

في فتية من قريش قال قائلهم　　　ببطن مكة لما أسلموا زولوا

ويروى : في عصبة من قريش .

زالوا فما زال انكاس ولا كشف　　　عن اللقاء ولا ميل معازيل

وقال عبد الله بن الزبعرى في وقعة الفيل لمكة :

تنكلوا عن بطن مكة انها　　　كانت قد يما لا يرام حريمها

وقال أمية بن أبى الصلت في رثاء من أصيب من قريش يوم بدر :

ألا ترون لما أرى　　　ولقد أبان لكل لا مح

أن قـد تغـير بطـن مكـ ـة فهـي موحشـة الأ بـاطح
مـن كـل بطـريق لـبطر يـق نقـى القـول واضـح

بعـل : بباء موحدة مفتوحة وعين مهملة ساكنة وآخره لأم : صنم لقوم الرسول الياس عليه السلام في بعلبك ، على أرجح الأقوال .

قال الله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ ﴾ [1] .

روى ابن جرير بسنده عن عمارة عن عكرمة في قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ يقول أتدعون ربا أهى لغة أهل اليمن ، تقول من بعل هذا الثور : أي ربه ؟ .

وبسنده عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ ؟ قال : ربا . وبسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال : هذه لغة باليمانية : أتدعون ربا دون الله .

وقال آخرون : هو صنم كان لهم يقال له بعل ، وبه سميت بعلبك .
وروى بسنده عن الضحاك ، يقول في قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ يعنى : صنما كان لهم يسمى بعلا .

وبسنده عن ابن زيد في قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ ﴾

---

(1) سورة الصافات الآية : ١٢٥ .

قال : بعل : صنم كانوا يعبدونه ، كانوا ببعلبك ، وهم وراء دمشق ، وكان بها البعل الذي يعبدونه .

وقال القرطبي : قال ثعلب : أختلف الناس في قوله عز وجل ها هنا ﴿ بَعْلًا ﴾ فقالت طائفة : البعل ها هنا الصنم . وقال طائفة : البعل ها هنا ملك . وقال ابن اسحاق : امرأة كانوا يعبدوىا . والأول أكثر . وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال : صنما . وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال : ربا . النحاس : والقولان صحيحان أي أتدعون صنما عملتموه ربا . يقال : هذا بعل الدار أي ربها . فالمعنى أتدعون ربا اختلقتموه ، و ﴿ أَتَدْعُونَ ﴾ بمعنى أتسمون . حكى ذلك سيبويه .

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى : البعل الرب بلغة اليمن . وسمع ابن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال : من بعل هذه ؟ أي من ربها ، ومنه سمى الزوج بعلا .

وقال أبو داؤاد :

وراأيــــت بعلـــك في الوغـــى ___ مـــتقلدا ســـيفا ورمحـــا

وقال مقاتل : صنم كسره الياس وهرب منهم وقيل : كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنه يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام . وبه سميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ أي

أحسن من يقال له خالق . وقيل : المعنى أحسن الصانعين ، لأن الناس يصنعون ولا يخلقون .

قال ياقوت : بعل : شرف البعل : جبل في طريق الشام من المدينة. وأما بعل في قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ، فهو صنم كان لقوم الياس النبي ، عليه السلام ، وبه سمى بعلبك ، وهو معظم عند اليونانيين ، كان بمدينة بعلبك من أعمال دمشق ثم من كورة سنير ، وقد كانت يونان اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض في جبل لبنان ثم في جبل سنير فاتخذته بيتا للاصنام ، وهما بيتان عظيمان أحدهما أعظم من الآخر ، وصنعوا فيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر الذي لا يتأتى حفر مثله في الخشب ، هذا مع علو سمكها وعظم أحجارها وطول أساطينها .

قال ابن كثير : في قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى : بعلا يعنى ربا . قال عكرمة وقتادة وهي لغة أهل اليمن ، وفي رواية عن قتادة قال : وهي لغة ازد شنوءة .

وقال ابن اسحاق : اخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون أمرأة أسمها بعل ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها : بعلبك غربى دمشق .

وقال الضحاك : هو صنم كانوا يعبدونه . وقوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي تعبدون صنما ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ أي

هو المستحق للعبادة وحدة لا شريك له ، قال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي للعذاب يوم الحساب .

وفي القاموس الاسلامي : بعل : البعل لغة ، الزوج والمصدر بعولة ، وقد وردت في القرآن بهذا المعنى في عده مواضع : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾ .

والبعل هو الرب والاله والصنم ، أو هو اسم على صنم معين ، والقائلون بهذا المعنى يرجعون كل بعل الى أصل سامى قديم ويذهبون الى أن مدينة بعلبك ، أخذت اسمها من الاله بعل الذي كان يعبد في هذه المدينة ، وقد وردت بعل في هذا المعنى مرة واحدة في سورة الصافات ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

واتفقت أكثر آراء المفسرين على أن المقصود بالبعل الصنم اطلاقا . ولا تشير الآية الى اسم صنم معين مما قد يوحى بأن هذه القصة تعتمد على أصل عبرى .

قال : وبعلبك بلدة لبنانية قديمة بأقليم البقاع . تشتهر بمعبدها الذي أقامة الامبرطور أنطو نينوس ابان القرن الثاني الميلادي ، ويشتق البعض اسمها من الاله بعل . استولى عليها العرب عام ١٦هـ (٦٣٧م) على يد أبى عبيدة فاتح الشام . وتداولتها ايدى

الولاة الذين حكموا الشام باسم الخلفاء والسلاطين . يبلغ عدد سكانها نحو خمسة آلاف .

قلت : ومما تقدم من أقوال المفسرين والمؤرخين يترجح أن بعلا صنم يعبده قوم الياس عليه السلام ، وأنه كان في بعلبك .

بكـــة : بباء موحدة مفتوحة وكاف مشددة مفتوحة وآخره هاء : يراد به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1] .

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في ذلك ، فقال بعضهم : تأويله أن أول بيت وضع للناس ، يعبد الله فيه مباركا وهدى للعالمين ، الذي بمكة ، قالوا : وليس هو أول بيت وضع في الأرض ، لأنه قد كانت قبله بيوت كثيرة .

وروى بسنده عن خالد بن عرعرة قال : قام رجل الى على فقال ألا تخبرني عن البيت ؟ أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ فقال : لا ، ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا .

وبسنده عن الحسن قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، قال : هو أول مسجد عبد الله فيه في الأرض .

وقال آخرون : بل هو أول بيت وضع للناس .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٩٦ .

وروى بسنده عن مجاهد قوله : أن أول ما خلق الله الكعبة ، ثم دحى الأرض من تحتها .

وروى بسنده عن السدى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، أما ﴿ أَوَّلَ بَيْتٍ ﴾ فأنه يوم كانت الأرض ماء ، كان زبدة على الأرض ، فلما خلق الله الأرض خلق البيت معها ، فهو أول بيت وضع في الأرض .

وبسنده عن قتادة في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، قال : أول بيت وضعه الله عز وجل فطاف به آدم ومن بعده .

وقال آخرون : موضع الكعبة ، موضع أول بيت وضعه الله في الأرض .

قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك ما قال جل ثناؤه فيه: ان أول بيت مبارك وهدى وضع للناس ، للذي ببكة . ومعنى ذلك: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ ، أي: لعبادة الله فيه، ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى ﴾ ، يعنى بذلك : وما بنسك الناسكين وطواف الطائفين ، تعظيما لله واجلالا له ، ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ لصحة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ وذلك ما :

حدثنا به محمد بن المثنى قال ، حدثنا ابن أبى عدى ، عن شعبه، عن سليمان ، عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال ، قلت: يارسول الله ، أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام . قال : ثم أى ؟ قال المسجد الأقصى . قال : كم بينهما . قال : أربعون سنة .

فقد بين هذا الخبر عن رسول الله ﷺ أن المسجد الحرام هو أول مسجد وضعه الله في الأرض .

وأما قوله ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، فانه يعنى : للبيت الذي بمزدحم الناس لطوافهم في حجهم وعمرتهم .

وأصل (البك) الزحم ، يقال : منه : (بكّ فلان فلانا) إذا زحمة وصدمه ، (فهو يبكّه بكّا وهم يتباكون فيه) ، يعنى به : يتزاحمون ويتصادمون فيه ، فكأن (بكة) (فعلة) من (بكّ فلان فلانا) زحمة ، سميت البقعة بفعل المزدحمين بها .

فاذا كانت (بكة) ما وصفنا ، وكان موضع ازدحام الناس حول البيت ، وكان لا طواف يجوز خارج المسجد ، كان معلوما بذلك أن يكون ما حول الكعبة من داخل المسجد ، وأن ما كان خارج المسجد فمكة ، لا (بكة) . لأنه لا معنى خارجه يوجب على الناس التباك فيه .

واذ كان ذلك كذلك قد بينا بذلك فساد قول من قال : (بكة) اسم لبطن (مكة) ومكة اسم للحرم .

وروى بسنده عن أبى مالك الغفارى في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ ، قال : (بكة) موضع البيت ، (مكة) ما سوى ذلك .

وروى بسندة عن مجاهد قال : انما سميت (بكة) لأن الناس يتباكون فيها ، الرجال والنساء .

وبسنده عن قتادة قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، فان الله بك به الناس جميعاً فيصلى النساء قدام الرجال ، ولا يصلح ببلد غيره .

وبسنده عن عطية العوفى قال : (بكة) موضع البيت ومكة ما حولها .
وبسندة عن ضمرة بن ربيعة : (بكة) المسجد ، ومكة ما حوله .
وبسنده عن الضحاك في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ قال : هي مكة .

وقيل : ﴿ مُبَارَكًا ﴾ لأن الطواف به مغفرة للذنوب .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أى لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون به ويعتكفون عنده ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ يعنى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يزعم كل من طائفتى النصارى واليهود أنهم على دينة ومنهجة ولا يحجون الى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس الى حجة ولهذا قال تعالى ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أى وضع مباركاً ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وقد قال الامام أحمد : حدثنا سفيان عن الأعش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ قلت : ثم أى ؟ قال ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ قلت : كم بينهما ؟ قال (أربعون سنة) قلت ثم أى ؟ قال (ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد) وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الأعمش .

وقوله تعالى : ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور قيل: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها ، وقيل : لأن الناس يتباكون فيها ويزدحمون .

قال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ بكة : موضع البيت ومكة سائر البلد ، عن مالك بن أنس . وقال محمد بن شهاب : بكة المسجد ، ومكة الحرم كله تدخل فيه البيوت . وقال مجاهد : بكة هي مكة ، فالميم على هذا مبدلة من الباء ، كما قالوا : طين لازب ولازم .

ثم قيل: بكة مشتقة من البك وهو الازدحام ، تباك القوم ازدحموا، وسميت بكة لزدحام الناس في موضع طوافهم . والبك دق العنق .

وقيل : سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة اذا ألحدوا فيها بظلم .

وقال ياقوت : بكة : مكة بيت الله الحرام ، أبدلت الميم باء وقيل : بكة ، بطن مكة ، وقيل : موضع البيت المسجد ومكة وما وراءه ، وقيل : البيت مكة وما والاه بكة ، وقال ابن الكلبى : سميت مكة لأنها بين جبلين بمنزلة المكوك ، وقال أبو عبيدة : بكة اسم لبطن مكة ، وذلك أنهم كانوا يتباكون فيه أى يزدحمون .

وروى عن مغيرة عن إبراهيم قال : مكة موضع البيت وبكة موضع القرية ، وقال عمرو العاص : انما سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة، وقال يحيى بن أبى أنيسة : بكة موضع البيت ومكة الحرم كله .

وقال زيد بن أسلم : بكة الكعبة والمسجد ومكة ذو طوى وهو بطن مكة الذي ذكره الله تعالى في القرآن في سورة الفتح . وقيل : بكة لتباك الناس بأقدامهم قدام الكبة .

قلت : فيما تقدم من أقوال العلماء يتبين أنهم اختلفوا في تعريف (بكة) و (مكة) وقد علل كلّ منهم باجتهاده ما قاله ، غير أن هذا الاختلاف لم ينأ عن صفة هذه البلد الحرام وما خصها الله به من البركة والهدى وفي رسم (مكة) مزيد من الايضاح فانظرة .

البلـــد : هو بباء موحدة مفتوحة بعدها لام مفتوحة واخره دال مهملة : ويراد به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[1].

وقال تعالى على لسان خليلة إبراهيم : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾[2].

وقال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾[3].

وقال تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٦ .
(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٥ .
(٣) سورة النمل الآية : ٩١ .
(٤) سورة البلد الآية : ١-٢ .
(٥) سورة التين الآية : ١-٣ .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ يعنى بقوله ﴿ ءَامِنًا ﴾ من الجبابرة وغيرهم ، أن يسلطون عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان ، من خسف وائتفاك وغرق ، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب غيره .

فان قال قائل : أو ما كان الحرم آمنا الا بعد أن سأل إبراهيم ربه له الأمان ؟ قيل له : لقد اختلف في ذلك ، فقال بعضهم : لم يزل الحرم آمنا من عقوبة الله وعقوبة جبابرة خلقة ، منذ خلقت السماوات والأرض ، واعتلوا في ذلك بما :

وروى بسنده عن أبى شريح الخزاعى يقول : لما فتحت مكة قتلت خزاعة رجلا من هذيل ، فقام رسول الله ﷺ خطيبا فقال : يا أيها الناس أن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا تحل لا مرء يؤمن بالله واليوم الآخرة أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرا . ألا وانها لا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى الا هذه الساعة غضبا على أهلها .

ألا فهي قد رجعت على حالها . ألا ليبلغ الشاهد الغائب . فمن قال : أن رسول الله قد قتل بها فقولوا : أن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لك .

وروى بسنده عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لمكة حين افتتحها : هذه حرم حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض ، وخلق الشمس والقمر ، ووضع هذين الأخشبين ، لم تحل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى ، أحلت لى ساعة من نهار " .

قالوا : فمكة ، منذ خلقت حرام حرم آمن من عقوبة الله وعقوبة الجبابرة .

قالوا : وقد أخبرت عن صحة ما قلنا من ذلك الرواية الثابته عن رسول الله ﷺ التي ذكرناها .

قالوا : لم يسأل إبراهيم ربه أن يؤمنه من عقوبته وعقوبة الجبابرة ، ولكنه سأله أن يؤمن أهله من الجدوب والقحوط ، وأن يرزق سكانه من الثمرات كما أخبر ربه عنه أنه سأله بقوله ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ .

قالوا : وانما سأل ربه ذلك لأنّه أسكن فيه ذريته ، وهو غير ذى زرع ولا ضرع ، فاستعاذ ربه من أن يهلكهم بها جوعا وعطشا ، فسأله أن يؤمنهم مما حذر عليهم منه .

قالوا : وكيف يجوز أن يكون إبراهيم سأل ربه تحريم الحرم وأن يؤمنه من عقوبته وعقوبة جبابرة خلقة ، وهو القائل ، حين حله ونزله بأهله وولده : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ .

قالوا : فلوا كان إبراهيم هو الذي حرم الحرم ، أو سأل ربه تحريمة ، لما قال : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ عند نزولة به ، ولكنه حرم قبله ، وحرم بعده .

وقال آخرون : كان الحرم حلالا قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد وغيره ، وإنما صار حراما بتحريم إبراهيم اياه ، كما كانت مدينة رسول الله ﷺ حلال قبل تحريم رسول الله ﷺ أياها . قالوا : والدليل على ما قلنا من ذلك ، ما :

روى بسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ أن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه ، وانى حرمت المدينة ما بين لا بتيها ، لا يصاد صيدها ولا تقطع عضاهها .

وروى بسنده عن نافع عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : أن إبراهيم كان عبد الله وخليله ، وانى عبد الله ورسوله ، وأن إبراهيم حرم مكة ، وانى حرمت المدينة ما بين لا بتيها ، عضاهها وصيدها ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يقطع منها شجر الا لعلف بعير .

وروى بسنده عن رافع بن خديج قال : قال رسول الله ﷺ : أن إبراهيم حرم مكة ، وانى أحرم المدينة ما بين لا بتيها ، وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول باستيعابها الكتاب .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ يعنى مكة ، فدعا لذريته وغيرهم بالأمن ورغد العيش ، فروى أنه لما دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فاقتلع الطائف من الشام فطاف بها حول البيت أسبوعا ، فسميت الطائف لذلك ، ثم أنزل تهامة ، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء ولا نبات ، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها ، وأنبت فيها أنواع الثمرات .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ يعنى مكة ، ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ أي اجعلني جانبا عن عبادتها ، وأراد بقوله : ﴿ بَنِىَّ ﴾ بنيه من صلبه وكانوا ثمانية ، فما عبد أحد منهم صنما ، وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له .

وقرأ الحجدري وعيسى : ﴿ وَأَجْنُبْنِي ﴾ بقطع الألف والمعنى واحد ، يقال : جنبت ذلك الأمر وأجنبته أياه فتجانبه واجتنبه أي تركه .

وكان إبراهيم التيمى يقول في قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ كما عبدها أبيه وأمه .

وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾

قال ابن جرير : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ وهي مكة ﴿ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ على خلقة أن يسفكوا فيها دما حراما ، أو يظلم فيها أحد ، أو يصاد صيدها ، أو يختلا خلاها دون الأوثان التي تعبدونها أيها المشركون .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ يعنى مكة .

وقال تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ ﴾

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : أقسم يا محمد بهذا البلد الحرام وهو مكة وكذا قاله أهل التأويل :

وروى بسنده عن ابن عباس في قوله ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ يعنى مكة.

وبسنده عن مجاهد ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قال مكة .

وبسنده عن قتادة ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قال البلد مكة .

وبسنده عن عطاء في قوله : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ يعنى مكة .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ .

قال ابن جرير : قوله : ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ يقول : وهذا البلد الأمين من أعدائه أن يحاربوا أهله أو يغزوهم . وقيل : ﴿ ٱلْأَمِينِ ﴾ ومعناه الآمين ، وهذا كما قال جل ثناؤه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [(١)] . وانما عنى بقوله : ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ : مكة .

وروى بسنده عن أبن عباس ، قوله ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ قال : مكة .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ والبلد هي مكة ، أجمعوا عليه أى أقسم بالبلد الحرام الذي أنت فيه ، لكرامتك على وحبى لك .

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦٧ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ يعني مكة ، سماه أمينا لأنه آمن ، كما قال : ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ فالأمين : بمعنى الآمن .

وبهذا احتج من قال : أنه أراد بالتين دمشق ، وبالزيتون بيت المقدس ، فأقسم الله بجبل دمشق ، لأنه مأوى عيسى عليه السلام ، وبجبل بيت المقدس ، لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام ، وبمكة لأنها أثر إبراهيم ودار محمد ﷺ .

قلت : وما تقدم هو موجز لما قاله المفسرون في تفسير الآيات الكريمة التي . جاء فيها ذكر البلد الأمين .

البيت : بباء موحدة مفتوحة وياء مثناه ساكنة وتاء مثناة : البيت الحرام الذي بمكة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣) .

وقال ابن جرير : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ يثبون اليه من كل مكان ولا يقضون منه وطرا .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٥ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٧ .
(٣) سورة آل عمران الآية : ٩٦ .

وبسنده عن سعيد بن جبير : قال يحجون ويثوبون .

وبسنده عن قتادة ، قال : مجمعا .

وفي أية آل عمران : بين الله تبارك وتعالى هذا البيت وحدد مكانه بمكة .

قال ابن جرير : وأما قوله : ﴿ بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ فأنه يعنى للبيت الذي بمزدحم الناس لطوافهم في حجهم وعمرتهم . وأصل البك الزحم .

وبسنده عن أبى مالك الغفارى في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ قال مكة . قال : (بكة) موضع البيت ومكة ما سوى ذلك .

وبسنده عن غالب بن عبيد الله : أنه سأل ابن شهاب عن بكة ، قال : (بكة) البيت والمسجد . وسأله عن (مكة) ، فقال ابن شهاب مكة الحرم كله .

قلت : ولما لبيت الله الذي بمكة من الشهرة ولأن سياق الآيات فيه دليل على أن المقصود به بيت الله الذي بمكة فاننى أكتفى بهذا القدر من أقوال المفسرين في تحديد هذا البيت المبارك الذي بمكة جعله الله مبارك وهدى للعالمين .

وفي رسم (مكة) ورسم (البلد الحرام) مزيد من الإيضاح فيما فيه كفاية أن شاء الله .

البيــت العتيــق : المقصود به الكعبة المشرفة التي في مكة .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٥ .

وقال تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [1].

قال ابن جرير : قوله تعالى ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ يقول : ليطوفوا ببيت الله الحرام .

واختلف أهل التأويل في معنى قوله ﴿ ٱلْعَتِيقِ ﴾ في هذا الموضع ، فقال بعضهم : قيل ذلك لبيت الله الحرام لأن الله أعتقه من الجبابرة أن يصلوا الى تخريبه وهدمه .

وبسنده أن ابن الزبير قال : انما سمى البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة .

وبسنده عن مجاهد قال : انما سمى العتيق لأنه أعتق من الجبابرة .
وبسنده عن قتادة قال : أعتق من الجبابرة .
وقال آخرون : قيل له عتيق لأنه لن يملكه أحد من الناس .

وبسنده عن مجاهد ، قال : انما سمى البيت العتيق لأنه ليس لأحد فيه شيء .

وقال آخرون : سمى بذلك لقدمه .
وبسنده عن ابن زيد قال العتيق القديم ، لأنه قديم كما يقال : السيف العتيق لأنه أول بيت وضع للناس بناه آدم ، وهو أول من بناه ثم بوأ الله موضعه لإبراهيم بعد الغرق فبناه إبراهيم واسماعيل .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٥ .

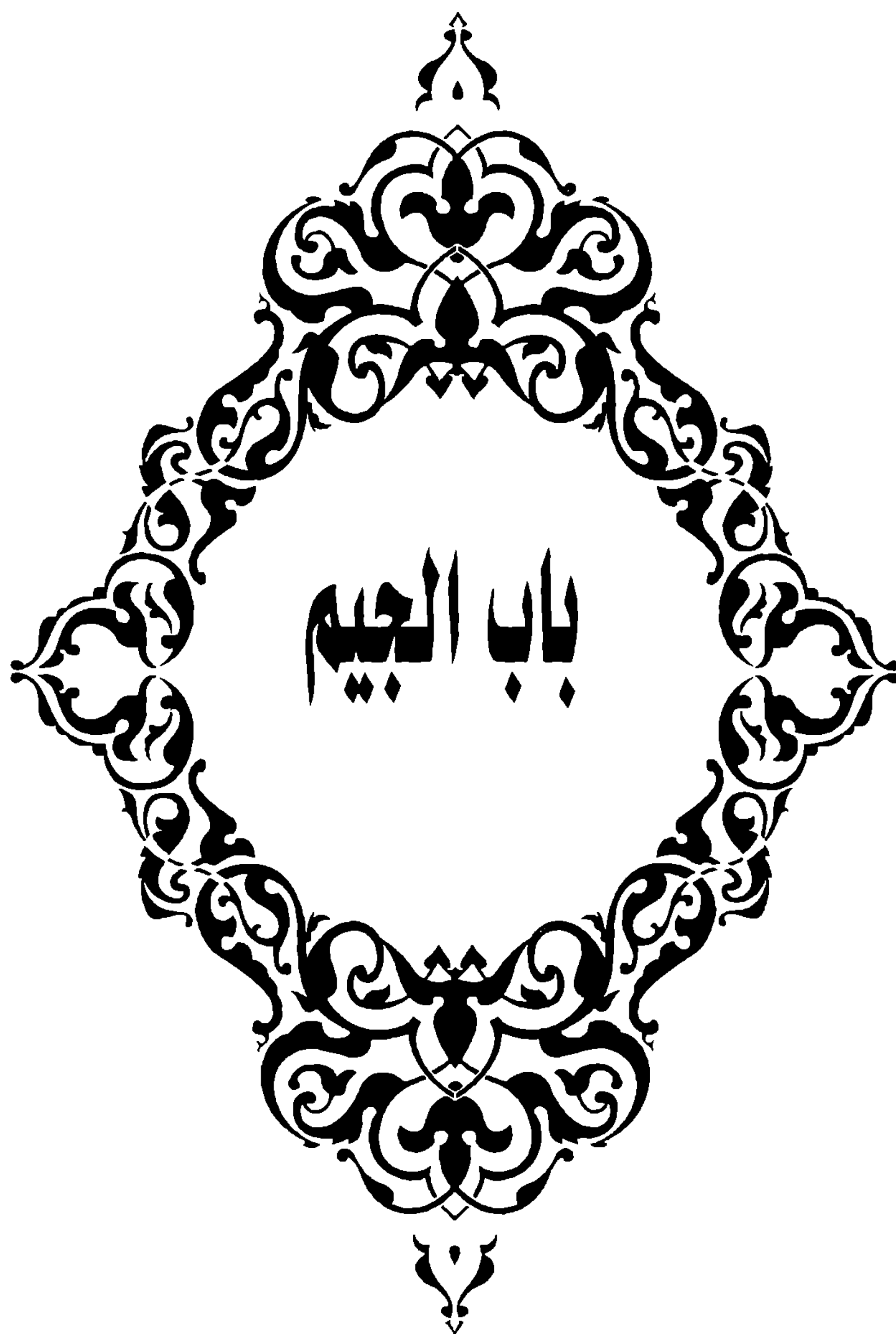
وبسنده عن عبد الله بن الزبير ، قال : قال رسول الله ﷺ (انما سمى البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجابرة فلم يظهر عليه قط) .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ قال : لأنه أول بيت وضع للناس ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وعن عكرمة أنه قال : انما سمى البيت العتيق لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح ، وقال خصيف : انما سمى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط .

وقال ابن أبي نجيح والليث عن مجاهد : أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه ، وكذا قال قتادة . وقال حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن سلم عن مجاهد : لأنه لم يرده أحد بسوء الا هلك . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن الزبير قال : انما سمى البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة .

وقال ياقوت : البيت العتيق : هو الكعبة ، وقيل هو اسم من أسماء مكة ، سمى بذلك لعتقه من الجبارين أى لا يتجبرون عنده بل يتذللون ، وقيل بل لأن جبارا لا يدعيه لنفسه ، وقد يكون العتيق بمعنى قديم ، وقد يكون معنى العتيق الكريم ، وكل شيء كرم وحسن قيل له عتيق .

قلت : هذا خلاصة ما ذكره علماء التفسير عن تسمية البيت العتيق ، وبهذا القدر من الحديث أكتفى لما لهذا البيت المقدس العتيق الحرام من الشهرة الاسلامية والتاريخية عند المسلمين .


باب الجيم

الجبـــل : بجيم معجمة مفتوحة وباء موحدة مفتوحة وآخره لام : جبل الطور .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ [2] .

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قول الله ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال ما تجلى منه الا قدر الخنصر ﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال : ترابا ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ قال : مغشيا عليه .

وروى بسنده عن قتادة قوله : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال : انقعر بعضه على بعض ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ أي : ميتا .

وروى بسنده عن أنس : أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال هكذا باصبعه - ووضع النبي ﷺ الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل .

قال ابن كثير : وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ فأنه أكبر منك وأشد

---

(1) سورة الأعراف الآية رقم : ١٤٣ .
(2) سورة الأعراف الآية رقم : ١٧١ .

خلقا ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ فنظر الى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا وقال عكرمة : جعل دكا قال نظر الله الى الجبل فصار صحرا ترابا وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه والمعروف أن الصعق هو الغشى همنا كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسرة قتادة بالموت وأن دى ن ذلك صحيحا في اللغة .

ويفهم من الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي سعيد رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور .

أن الجبل الذي تجلى له ربه تعالى هو جبل الطور .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ ﴾

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : واذكر يامحمد اذ اقتلعنا الجبل فرفعناه فوق بنى اسرائيل ، كأنه ظله غمام من الظلال ، وقلنا لهم : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ من فرائضنا وألزمناكم من أحكام كتابنا فاقبلوه ، اعملوا باجتهاد منكم في أدائه من غير تقصير ولا توان ، ﴿ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ ﴾ يقول : ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، يقول : كي تتقوا ربكم ، فتخافوا عقابه بترككم العمل به اذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المواثيق .

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل :

وروى بسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ ، فهو قوله: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾[1] فقال : خذوا ما آتيناكم بقوة والا أرسلناه عليكم .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ ، قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شيء قلعته فرميت به فقد نتقته ، وقيل : نتقناه رفعنا .

قال ابن الأعرابي : الناتق الرافع ، والناتق الباسط ، والناتق الفاتق ، وامرأة ناتق ومنتاق : كثيرة الولد .

واختلف في الطور ، فقيل : الطور اسم للجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه في التوراه دون غيره ، رواه ابن جريج عن ابن عباس .

قال ابن كثير : وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التواراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم . فقالوا : انشرها علينا فأن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها ، فقال : بل

---

(١) سورة النساء الآية رقم : ٥٤ .

أقبلوها بما فيها ، فراجعوه مرارا ، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤسهم حتى صار كأنه ظلة أي غمامة على رؤسهم ، وقيل لهم أن لم تقبلوها بما فيها والا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود ، فجعلوا إلى الجبل بشق وجوههم ، فصارت سنة اليهود الى اليوم ، يقولون : لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب .

قلت : من هذه النصوص يفهم أن الجبل الذي رفعه الله على بنى اسرائيل هو جبل الطور . وسيأتي في رسم (الطور) مزيد من الايضاح عن الطور بما فيه كفاية ان شاء الله .

الجـودىّ : بجيم معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة فدال مهملة بعدها ياء : جبل مطل على الجزيرة في العراق ، من أعمال الموصل .

قال الله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

قال البخاري في صحيحة، عن مجاهد: الجودىّ جبل بالجزيرة.

وقال ابن حجر : وقال مجاهد : الجودىّ جبل بالجزيرة ، وصله ابن أبى حاتم من طريق ابن أبي نجيح عنه ، وزاد : تشامخت الجبال يوم الغرق وتواضع هو لله فلم يغرق وأرسيت عليه سفينة نوح عليه السلام .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ يعنى الفلك ، ﴿ وَٱسْتَوَتْ ﴾ أرست ﴿ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ وهو جبل فيما ذكر بنا حية الموصل أو الجزيرة .

---

(١) سورة هود الآية رقم : ٤٤ .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ ، أبقاها الله لنا بوادى أرض الجزيرة عبرة وآية .

وبسنده عن الضحاك يقول : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ هو جبل الموصل .

قال ياقوت : الجودىّ : ياؤه مشددة : وهو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة ، من أعمال الموصل ، عليه استوت سفينة نوح عليه السلام . هـ

قال ابن بطوطة في وصف طريقة من الموصل الى نصيبين : رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبنى وبه خان كبير ، ثم رحلنا ونزلناقرية تعرف بالمويلحة ، ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر ، وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ، ولذلك سميت جزيرة ، أكثرها خراب ولها سوق حسنة عتيق مبنى بالحجارة محكم العمل ، وسورها مبنى بالحجارة أيضاً وأهلها فضلاء لهم محبة بالغرباء ، يوم نزلنا بها رأينا جبل الجودى المذكور في كتاب الله ، عز وجل ، الذي استوت عليه سفينة نوح ، عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل .

ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين[1] .

وقال المسعودي : وكان ركوبهم- يعنى نوحا ومن معه- في السفينة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من آذار ، فأقام نوح ومن معه في السفينة على ظهر الماء وقد غرق جميع الأرض خمسة أشهر ثم أمر الله تعالى الأرض أن تبتلع الماء والسماء أن تقلع واستوت

---

(١) رحلة ابن بطوطة / ٢٣٦ .

السفينة على الجوديّ ، والجودى جبل ببلاد باسورى ، وجزيرة ابن عمر ببلاد الموصل ، وبينه وبين دجلة ثمانية فراسخ ، وموضع جنوح السفينة على رأس هذا الجبل إلى هذه الغاية .

ونزل نوح من السفينة ومعه أولادة الثلاثة ، وهم : سام وحام ، ويافث ، وكناته الثلاث أزواج أولاده وأربعون رجلا وأربعون أمرأة وصاروا الى سفح الجبل فابتنوا هنالك مدينة وسموها ثمانين ، وهو اسمها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٣٢ ، ودثر عقب هؤلاء الثمانين نفسا ، وجعل الله نسل الخليقة من نوح من الثلاثة من ولده ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (١) .

قال ابن كثير : ذكر الله تعالى في كتابة الجوديّ على التعيين، وهو جبل عظيم في شرق جزيرة ابن عمر الى جانب دجلة ، عند الموصل ، إمتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام ، وارتفاع مسيرة نصف يوم ، وهو أخضر لأن فيه شجرا من البلوط ، والى جانب قرية يقال لها : قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام(٢) . هـ

وقال ابن الأثير : قال ابن عباس : وطافت السفينة - يعنى سفينة نوح - بالأرض كلها لا تستقر حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ودارت بالحرم أسبوعاً ثم ذهبت في الأرض تسير بهم ، حتى أنتهت الى الجوديّ ، وهو جبل بقردى بأرض الموصل فاستقرت عليه فقيل عند ذلك : ﴿ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٣) . هـ

---

(١) مروج الذهب ١ - ٥١ .
(٢) البداية والنهاية ١ - ٢١ .
(٣) الكامل في التاريخ ١ - ٧٢ .

قلت : هذا هو جبل الجوديّ ، الذي إستوت عليه سفينة نوح عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم- وهو واقع في شمال العراق ، في ناحية الموصل ، مطل على جزيرة ابن عمر . وقد إستوفيت الحديث عن جزيرة ابن عمر في رسم (الجزيرة) ، وقد اتفق المؤرخون في وصفه وتحديده .

قال ياقوت : والجودى أيضاً : جبل بأجإ أحد جبلي طيء ، واياه أراد أبو صعترة البولانى بقوله :

فما نطفة من حب مزن تقاذفت ... به جنبتا الجودى والليل دامس
فلما أقرته اللصاف تنفست ... شمالا لأعلى مائه فهو قارس
بأطيب من فيها وما ذقت طعمة ... ولكننى فيما ترى العين فارس

قلت : والجوديّ أيضاً ، ذكره ابن الأثير ، في حديثه عن حوادث سنة (٦٠٢) ، قال : إنهزم شهاب الدين محمد بن سام الغوريّ ، صاحب غزنة ، من الخطا الكفار .. وظهر الخبر ببلادة أنه عدم من المعركة ، ولم يقف أصحابه له على خبر ، فلما أشتهر هذا الخبر ثار المفسدون في أطراف البلاد ، وكان ممن أفسد دانيال ، صاحب جبل الجودى ، فانه كان قد أسلم ، فلما بلغه الخبر إرتد عن الإسلام ، وتابع بنى كوكر ، وكان في جمله الخارجين عليه بنو كوكر ، ومساكنهم في جبال بين الهاوور والمولتان حصينة منيعة ، وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين ، وحملوا له الخراج ، فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائرهم ، وأطاعهم صاحب جبل الجودى وغيره من القاطنين بتلك الجبال ، ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرهم الى غزنة .

وذكر أن شهاب الدين أخذ يجهز لغزو الخطا الكفار وبنى كوكر وقال : أتاه- يعنى شهاب الدين- خبر ابن كوكر أنه نازل في عساكره ما بين جيلم وسودرة ، فجد السير اليه ، فدهمه قبل

الوقت الذي كان يقدر وصوله فاقتتلوا قتالا شديدا .. من بكرة الى العصر ، واشتد القتال ، فبينما هم في القتال أقبل قطب الدين أبيك في عساكره ، فنادوا بشعار الإسلام ، وحملوا حملة صادقة ، فانهزم الكوكرية ومن إنضم اليهم ، وقتلوا بكل مكان ، وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله ، وهرب ابن كوكر بعد أن قتل اخوته وأهله .

وأما ابن دانيال ، صاحب جبل الجودى فإنه جاء ليلا الى قطب الدين أبيك فاستجاربه فأجاره وشفع فيه الى شهاب الدين فشفعه فيه ، وأخذ منه قلعة **الجودى**[1] . هـ

هذا هو جبل الجودي الواقع بين غزنة وبلاد الهند .

الجودى أيضاً : - جبل ذكره حمد الجاسر وقال : الجودى : جبل بقرب منهل جودة ، وذكره في كتاب (دليل الخليج) في الكلام على جبال الحساء ، بأنه يقع على مسافة ١٢ ميلا غربي جبل الطف ، وآبار جودة بينه وبينها . وذكر بعضهم أن فروع وادى الفروق تنحدر من جبل الجودى وما بقربه من المرتفعات . هـ .

والجودى أيضاً طريق بين نجد والاحساء ، نسبة الى (جودة) وهو منهل جاهلي في أشعار العرب وأخبارها ، إلا أن المتأخرين أسقطوا من إسمه الجاهلى ياء من أوله ، فقد كان إسمه الجاهلي يجودة ، وقد ذكرها صاحب معجم البلدان وقال : هي في بلاد بنى تميم ، وهي قريب منتصف الطريق بين الدهناء وبين الاحساء إلا أن المسافة الواقعة بين الاحساء وجودة أقرب[2] . هـ

---

(١) الكامل في التاريخ ١٢ - ٢٠٨ - ٢١١ .
(٢) صحيح الأخبار ٢ - ١٨٢ .


باب الحاء

الحجـر : بحاء مهملة وجيم معجمة مفتوحتين وآخره راء مهملة : الحجر الذي كان موسى يضربه فيتفجّر عيونا .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾ (٢) .

قال ابن كثير : قال ابن عباس رضي الله عنه وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا ، وأمر عليه السلام فضربة بعضاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينها ، في كل ناحية منه ثلاث عيون ، وأعلم كل سبط عينه يشربون منها لا يرتحلون من منقلة الا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول .

وقال عطية العوفي : وجعل لهم حجرا مثل رأس الثور يحمل على ثور فاذا نزلوا منزلا وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشر عينا ، فاذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء .

وقال عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه : كان لبنى اسرائيل حجر فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا . وقال قتادة : كان حجرا طوريا من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٦٠ .
(٢) سورة الأعراف الآية رقم : ١٦٠ .

بعصاه . وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه . قال : وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة ، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس . وقال الضّحاك : قال ابن عباس : لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهارا . وقال النووى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : قال ذلك في النيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتى عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ ، انفتحت ، والأنبجاس أضيق من الانفجار ، لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا وقيل : تبجس وتفجر وتفتق بمعنى واحد ، حكاء الهروى وغيره .

وقال : لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا ، قيل مربعا طوريا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى في كسر جوالق ويرحل به فاذا نزلوا وضع في وسط محلتهم . وذكروا أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدون في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى ، وهذا أعظم في الآية والأعجاز .

وقيل : أن الله تعالى أمره أن يضرب حجرا بعينه بينه لموسى عليه السلام ، ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جبير : هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه لما أغتسل ، وفر بثوبه حتى برأة الله مما رماه به قومة .

قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا ، تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والأسباط في بنى إسرائيل كالقبائل في العرب ، وهم ذرية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليه السلام .

وقال ابن جرير : قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ قال : كان هذا اذ هم في البرية اشتكوا الى نبيهم الظمأ ، فأمروا بحجر طورى - أى من الطور - أن يضربه موسى بعصاه . فكانوا يحملونه معهم ، فاذا نزلوا ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشر عينا ، لكل سبط عين معلومة ، مستفيض ماؤها لهم . وعن ابن عباس قال : ذلك في التيه - جعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا ، وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، في كل ناحية منه ثلاث عيون لكل سبط عين ، ولا يرتحلون منقلة الا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان به معهم في المنزل الأول .

وقال الشوكاني : الحجر يحتمل أن يكون حجرا معينا فتكون اللام للعهد ، ويحتمل أن لا يكون معينا فتكون للجنس ، وهو أظهر في المعجزة وأقوى للحجة ، قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا مربعا يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون وأذا استغنوا عن الماء جفت .

قلت : وفيما تقدم من أقوال المفسرين نرى أنهم اختلفوا في الحجر هل هو حجر معين ، أم أنه حجر غير معين ؟ ويترجح من مفهوم بعض الأقوال أنه حجر طورى - أى منقول من جبل الطور - وأنه يتنقل معهم في كل نقلة من نقلاتهم ، وأنه مربع الشكل ، إذا ضربه موسى بعصاه انفجرت من كل ناحية منه ثلاث عيون من الماء ، وأن ذلك كان في التيه :

الحجـــر : بحاء مهملة مكسورة وجيم معجمة ساكنة وآخره راء مهملة : المقصود به : منازل ثمود قوم صالح .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ ﴾[1]

قال ابن جرير : والحجر مدينة ثمود .

وروى بسنده عن قتادة : أصحاب الحجر ، قال : أصحاب الوادى .

وروى بسنده عن عبد الله بن عمر قال : مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر ، فقال لنا رسول الله ﷺ : (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم) ، ثم زجر فأسرع حتى خلفها .

وروى بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال وهو بالحجر : (هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله الا رجلا كان في حرم الله منعه حرم الله من عذاب الله) ، قيل : يارسول الله من هو ؟ قال : (أبو رغال) .

يقول تعالى ذكره : وكان أصحاب الحجر ، وهم ثمود قوم صالح ، ﴿ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ **من عذاب الله ، وقيل : آمنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال .**

وقيل : آمنين من الموت . وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ **يقول فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وعدوا العذاب ، وقيل لهم : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام .**

---

(١) سورة الحجر الآية رقم : ٨٠ - ٨١ .

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها ، فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهرقوا ذلك الماء .

قال ابن حجر : قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ - وقال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ﴾ وكانت منازلهم بالحجر وهو بين تبوك والحجاز .

قال ابن كثير : قال الامام أحمد في سنده عن ابن عمر ، قال لما نزل رسول الله ﷺ ، بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله ﷺ ، فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الابل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، انى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم .

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة ، فكانوا يبنون البيوت من المدر ، فتخرب قبل موت الواحد منهم ، فنحتوا لهم بيوتا في الجبال . هـ[1] .

قال ياقوت : الحجر : إسم ديار ثمود بوادى القرى ، بين المدينة والشام ، قال الاصطخرى : الحجر قرية صغيرة قليلة السكان ، وهو من وادى القرى على يوم بين جبال ، وبها كانت منازل ثمود ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ قال : رأيتها

(١) البداية والنهاية ١ - ١٣٨ .

بيوتا مثل بيوتنا في أضعاف جبال ، وتسمى تلك الجبال الأثالث ، وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة ، فاذا توسطها رأي كل قطعة منها منفردة بنفسها ، يطوف بكل قطعة منها الطائف ، وحواليها الرمل لا تكاد ترتقى ، كل قطعة منها قائمة بنفسها ، لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة ، وبها بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ، قل جميل :

أقول لداعى الحب والحجر بيننا ... ووادى القرى لبيك لما دعانيا

فما أحدث النأى المفرق بيننا ... سلوا ولا طول اجتماع تقاليا . هـ

وقال الحميري : الحجر : بلد ثمود بين الشام والحجاز وقيل : هو من وادى القرى وهو حصين بين الجبال وبه بيوت منقورة بالحجر ، وبها الآن بئر ثمود ، ويحيط بالحجر من كل ناحية جبال ورمال لا يكاد أحد يرتقى ذروتها إلا بعد الجهد والمشقة ، ومن الحجر إلى تيماء أربع مراحل .

والحجر هو المذكور في القرآن في قرولة تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) .

واجتاز النبي ﷺ به في طريقة إلى تبوك فأمر أصحابه بالإسراع ولا يستقوا من بئرها ، وقال : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا الا وأنتم باكون .

وكان نبيهم صالح عليه السلام ، وبيوتهم باقية منحوتة في الجبال ، ورمتهم باقية وآثارها بادية ، وهم بين الشام والحجاز . هـ

---

(١) سورة الحجر - الآية : ٨٠ .

قال البكرى : الحجر : بكسر أوله ، المذكور في التنزيل : هو بلد ثمود ، بين الشام والحجاز . ولما نزل رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك ، إستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا : قال لا تشربوا من مائها، ولا تتوضئوا منه للصلاة ، ولا يخرجن منكم الليلة أحد إلا ومعه صاحبه ففعل الناس ما أمرهم به إلا رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحالجته فخنق على مذهبه فدعا له رسول الله ﷺ فشفى ، وخرج الآخر في طلب بعير له ، فاحتملته الريح حتى طرحته بجلى طىء ، فأهدته طىء لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة . هـ

وقد كتب حمد الجاسر بحثا بعنوان (ليس الحجر مدائن صالح) قال فيه : يطلق الناس الآن إسم مدائن صالح على الوادى الواقع شمال مدينة العلا ، المعروف باسم الحجر- بكسر الحاء المهملة واسكان الجيم وبالراء- ذى الآثار التي تناولها الباحثون بالدراسات الوافية .

والواقع أن إطلاق ذلك الإسم على هذا الوادى خطأ ، وقع فيه الناس منذ عهد قديم وتوضيح هذا :

(أ) أن الحجر هو الوادى الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وورد النهى عن الشرب من مائه سوى بئر الناقة التي كانت معروفة الى عهد قريب ، لأن هذا الوادى كانت منازل قوم غضب الله عليهم فأهلكهم قبل ظهور الاسلام بعصور مجهولة .
وهذا الوادى لا يزال معروفا باسم (الحجر) عند سكان جهاته ، وعند غيرهم ، لا خلاف في ذلك .

(ب) وفي جنوب مدينة العلا بنحو ٥٥ كيلا آثار عمران قديم ، من أسس بناء ومجارى مياه وآثار زراعة ، يطلق على موضعها الآن

إسم غريب هو (المابيات) جمع (مابية) بالميم المفتوحة بعدها ألف فباء موحدة مكسورة فهاء- وهذا الاسم حادث ، فقد كان الموضع في القرن السابع الهجرى وما قرب منه يعرف باسم مدينة صالح ، ثم مدائن صالح .

وله قبل ذلك إسم آخر أرجح أنه (الرحبة) الوارد في كثير من كتب الرحلات ومعجمات الأمكنة فنسى إسم الرحبة ، واسم مدينة صالح- أو مدائن صالح- وعرف باسم وادى (العطاس) على ما جاء في رحلة ابن بطوطة ، الذي مر بهذا الموضع في عشر الثلاثين من القرن الثامن ، مع أن الوادى كان معروفا باسم وادى الديدان ، الذي نجد له في الكتب الأعجمية وما عرب عنها صورا غريبة (ددان) و (دادان) و (ديدان) .

(ج) وادى الديدان ، الذي تقع فيه مدينة صالح التي عرفت باسم مدائن صالح- ليس متصلا من حيث الجوار بوادى الحجر الذي قرر العلماء أخيراً عدم سكناه ، بل يفصل بينهما مسافة من الأرض تقارب خمسين كيلا بل تزيد .

(د) أما كيف نشأ الخطأ فهو أن الحجر كان من منازل قوم النبي صالح عليه السلام فكذبوه فأهكهم الله ، ونجا صالح والذين آمنوا معه ، وقد ذكر الله خبرهم في سور من القرآن الكريم ومنها (سورة الحجر) ففي الآية الحادية والثمانين منها : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

وقد بقيت آثار القوم ، في البيوت المنحوتة في الجبال ، وفي الآبار المحفورة في الوادى ، وفي غيرها فكان المسافرون الذين يذهبون من

الحجاز الى الشام أو من يمرون بهذه الجهات يشاهدون تلك الآثار ، ويتناقلون أخبارهم ، من الكتب أو من الرواة وكثير من رواة الأخبار ومدونيها لا يلتزمون الدقة وتحرى الصواب فيما ينقلون أو يكتبون ، فوقع الخلط بين الآثار الواقعة شمال مدينة العلا في وادى الحجر ، وهي آثار سابقة وبين الآثار الواقعة جنوب مدينة العلا ، وهي مما حدث في صدر الاسلام ، وساعد على وقع الخلط أن الموضع الأخير الواقع جنوب العلا كان يعرف بمدينة صالح ، وهو رجل مسلم من بنى العباس ومدينته هذه كانت قائمة الى القرن الرابع الهجري- وأن الموضع الأول الذي هو الحجر ، الواقع شمال العلا عرف سكانه بقوم صالح ، وعرفت إحدى آباره ببئر ناقة صالح ، وعرف موضع بأحد جباله بمسجد صالح- أي المكان الذي كان يتعبد فيه

ومن هنا أطلق على الحجر خطأ إسم (مدائن صالح) .

وأقدم من رأيته فعل ذلك ما عرب من مؤلف تركى إسمه (بهجة المنازل) أو (نهجة المنازل) مؤلفه يدعى محمد أديب الموقع الرومى- على ما جاء في كتاب (ايضاح المكنون) فقد نقل عن كتابه أن الحجر يعرف بمدائن صالح أو قرى صالح ، أو عدال ، والمساكن في مدائن صالح منحوتة في الصخر ، ولا يسكنها أحد .

أما أول من وقع منه الخلط بين الموضعين ، فوصف الموضع الواقع جنوب العلا بصفات الحجر ، فأقدم نص أطلعت عليه هو ما جاء في رحلة البلوى الأندلسي ... وقد حج سنة ٧٣٨- قادما من الشّام مع حجاج الكرك . هـ[(١)]

قلت : وقد أورد حمد الجاسر كلام البلوى كاملا ثم أورد نصوصا من أقوال العلماء وأقوال الرحالة الذين تحدثوا عن هذين الموضعين ، لا يتسع مقامنا هذا لذكرها . هـ

---

(١) مجلة العرب ٣/١٣ – ٥ .

وقد إعترض عليه أحد القراء منكرا عليه ما قاله في التفريق بين مدائن صالح وبين الحجر ، فرد عليه حمد الجاسر ، وكان فيما قاله في الرد عليه : لقد تحدثت مبينا أن إطلاق إسم مدائن صالح على موقع الحجر ليس معروفا لدى قدماء العلماء ممن وصلت إلينا مؤلفاتهم ، وأوضحت أن اسم مدائن صالح لم يطلق على وادى الحجر الا في العصور المتأخرة وأن إطلاقه كان ناشئا عن وهم أوضحته فيما كتبت . فجاء أحد المعلقين من الأخوان يقول : ليس غريبا بأن تسمى الحجر مدائن صالح ، وهي موطن ثمود ، وقد أرسل اليهم صالح رسولا من عند الله ، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم مكانا وقد جعل الله لهم آية ناقة الله . وكل ذلك حدث في مدائن صالح المعروفة الآن باسم الحجر) وقال قبل ذلك : (والواقع أن مدائن صالح هي الحجر نسبة لرسول الله صالح عليه السلام) .

- من ذا الذي أنكر أن الحجر موطن ثمود وأنه يسمى في الوقت الحاضر مدائن صالح ؟ بل من الذي أنكر أن صالح عليه السلام نبيا لثمود حتى يأتى أخونا ليرشده إلى هذا الخطأ الشنيع ؟
- وإنما السؤال هو من الذي يستطيع أن يثبت أن واحدا من العلماء المتقدمين أطلق على الحجر مدائن صالح ؟ ، ومن الذي يستطيع بالأدلة التاريخية أن يثبت قول الأخ : (كل ذلك حدث في مدائن صالح) ؟ بينما النصوص القاطعة تدل على أنه حدث في الحجر .

بين يدى الباحثين مالا يحصى من الكتب في التفسير والتاريخ وتحديد المواضع وفي كثير منها ذكر قصة ثمود وسكناهم الحجر وإرسال صالح عليه السلام اليهم ، ولكن هل فيها أن هذا الحجر مدائن صالح ؟

أن الحجر بلاد قوم ظلموا أنفسهم فأهلكهم الله بالنص الثابت في القرآن الكريم والسنة النبوية وصالح عليه السلام لا يصح أن يوصف بما وصفوا به .

وقد أنجاه الله ومن آمن معه من الرجفة التي حلت بأولئك القوم ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ولو كان مقيما في تلك البلاد لأصابة ما أصابهم ، وقد أمر رسول الله ﷺ بالأسراع عند المرور بتلك الديار خشية الإصابة بما أصاب أهلها . هـ[1]

قلت هذا بعض ما قال حمد الجاسر في الرد على من انكر قوله في المغايرة بين الحجر وبين مدائن صالح .

وتحدث عبد القدوس الأنصارى عن الحجر في بحث كتبه بعنوان الحجر أومدائن صالح ، ذكر فيه أن (نادى البحر الأحمر) في جدة قام برحلة إلى مدائن صالح في أواسط عام ١٣٨٤هـ - وعاد أعضاء النادى الى جدة ، وتحدث بعضهم عن نتائج الرحلة وما شاهدوا هناك من الآثار الخالدة . وكتب بعضهم ، في بعض الصحف المحلية آراءهم المبنية على المشاهدة والمطالعة ، فذكر أن منحوتات مدائن صالح لم تكن منازل لأحياء السكان ، وإنما كانت مساكن لأمواتهم : أي مقابر ومدافن وأضرحة واستند في إثبات هذه النظرية على ضيق البيوت المنحوتة ، وعلى ما أورده بعض المستشرقين الرحالين الذين شاهدوها فيما قبل ، وكتبوا عنها ما كتبوا إذ ذاك .

وهذا الرأي لم يأخذ به ما أطلعنا عليه من التفاسير وكتب التاريخ والجغرافيا العربية الاسلامية القديمة .. وإنما مصدره الأول والأخير هو جماعة المستشرقين ، ومن سار على دربهم من مؤلفى العرب بعدهم ، في العصر الحديث .

وقد إعتنق هذا المذهب بعض من كتبوا في الصحف المحلية عن (رحلة نادى البحر الأحمر بجده) إلى مدائن صالح .

---

(١) مجلة العرب ٦١٩/١٤ - ٦٢٠ .

وتحدث به إلى بعضهم ، جازما بأن المنحوتات ليست إلا قبورا لقوم صالح .. ولا يمكن أن تكون منازلهم ، لضيقها الشديد ، ولأنها عبارة عن كهوف ومغاور ، ولوجود عظام موتى بها ... وقلت له : إن ضيق البيوت لا يدل دائما على عدم صلاح البيوت للسكنى .. وها نحن أولاء نرى في البلاد المكتظة بالسكان اليوم كيف أن أشخاصا عديدين يسكنون غرفة واحدة .. لكل منهم ما هو على قدر نومة وجسمه منها

ولأن أصل هذه النظرية وارد ووافد من المستشرقين كما أوردناه آنفا ، فأرى أن علينا أن نأخذ دائما معلومات المستشرقين بحذر ، خاصة فيما يتصل بديننا ولغتنا وآثارنا وبلادنا .. وذلك من جهتين لا من جهة واحد ...

وأولاهما : أن أفهامهم بعض الأحيان ملتوية تغلب عليها طبيعة بيئاتهم فتشذ وتند عن الصواب الواضح ، بحكم طبيعتها إلى خطأ فاضح ...

وثانيهما : الغرض الدفين طبعيا وتقليديا بين جوانح الكثيرين منهم ، وواجب علينا اليوم - وقد نهضنا من إغفاءتنا الطويلة- أن لا نتكل على مجهوداتهم العلمية وحدها .. بل نسعى بأنفسنا لكشف كنوز حضارتنا علميا وفكريا وقوليا وأثريا وخبريا .

وكان مؤرخو الاسلام ورحالته وعلماؤه يرون أن البيوت التي نقرت في جبل أو جبال مدائن صالح هي بيوت كانت معمورة بأحياء الثموديين الذين نحتوها .. وبذلك فسروا قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ .. وبذلك فسروا الآية الكريمة الأخرى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ .. فخواؤها أي فراغها منهم بعد هلاكهم دليل صارخ على سكناهم فيها في حياتهم .هـ[1]

- وقد أورد عبد القدوس الأنصاري في بحثة هذا نصوصا كثيرة من أقوال المؤرخين المسلمين وأقوال المستشرقين لا يتسع مقامنا هذا لذكرها .

وفي الكتاب الذي أصدرته إدارة لآثار والمتاحف في وزارة المعارف في المملكة العربية السعودية ، بعنوان : (مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية) ما نصه : مدائن صالح : تقع على مسافة ١٥ كيلو مترا شمال العلا . وقد جاءت في القرآن الكريم باسم (الحجر) كحاضرة ثمود قوم نبى الله صالح ، وتشتمل المنطقة على عدة كهوف ومقابر منحوته في الجبال الرملية المتقاربة ، وهذه الكهوف كما تدلل نقوشها كانت مقابر لأقوام كثيرة ممن حكموا المنطقة من أنباط وروما‌ن وعرب ، وهي تشبه الى حد كبير مقابر (البتراء) عاصمة الأنباط القديمة وتقع الآن بالأردن ، وعلى واجهات المقابر تماثيل وصور ورؤوس خرافية وثنية يعود نحتها إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، وتوجد بالقرب من منطقة المقابر آثار مستوطنات قديما وربما كانت مساكنا لسكان مدائن صالح في عصورها المختلفة ، وقد إشتهرت عند المؤرخين اليونان والرومان بهجرا وكان لها ميناء يسمى باسمها (الوجة حاليا) وكان يعتبر شريانا تجاريا هاماً .

ويظهر من تنوع آثار الحجر وفنونها المختلفة أن بدء حياة وازدهار المنطقة يعود إلى ما قبل آلاف السنين إذ ظلت زمنا طويلا تتلقى تجارة الشرق القادمة بواسطة الموانىء العربية في الجنوب

---

(١) بين التاريخ و الآثار ٢٤٠ - ٢٦٤ .

وتصدرها نحو الغرب بواسطة موانئ سوريا في الشمال ، كما يستشف من دراسة الخرائب المتناثرة في المنطقة وحولها أن شعوبا كثيفه قد تجمعت هناك وعاشت لعدة قرون . هـ

قلت : ومن الملاحظ أن هذا التقرير نضمن قولا جازما بأن المساكن المنحوتة في الجبال الرملية في منطقة الحجر ما هي إلا مقابر لأقوام كثيرة ممن حكموا المنطقة من أنباط وروما وعرب ، ولم يتضمن شيئاً من الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذه البلاد وعن أهلها وعن نبيهم صالح عليه السلام وما حل بهم ، مع أن بعض الآيات القرآنية الكريمة يفهم منها أن هذه البيوت المنحوتة كانت مساكن للأحياء ، وقد تقدم في هذا البحث شيء من الآيات التي تضمنت ذلك .

بل إنه جزم بأن هذه البيوت المنحوتة لم تكن خاصة بثمود ، وأنها مقابر لأقوام كثيرة من أنباط ورومان وعرب . وآيات القرآن الكريم صريحة قاطعة بنسبة نحت هذه البيوت الى ثمود قوم صالح .

وتحدث عاتق البلادى عن بلاد الحجر في موضعين من معجمة ، ذكرها باسم (وادى الحجر) مرة ، وذكرها باسم (مدائن صالح) مرة أخرى ، وقال في حديثة : وادى الحجر المعروف : لا زال باسمه يصب في وادى العلا (القرى) من الشمال .. وقد وصل الأن بطريق معبدة بالمدينة ، وكان يرتبط بها بسكة الحديد المعطلة الآن ، ويبعد عن المدينة (٣٤٥) كيلا شمالا ، وعن العلا قرابة (٢٤) كيلا ، ويعرف بمدائن صالح ذات الآبار العجيبة .. وهو رأس وادى القرى المعروف اليوم باسم وادى العلا .

ومدائن صالح : بلدة في شمال الحجاز ذات صبغة أثرية سياحية، كان أهلها ثمود قوم صالح وقد أرسل الله إليهم صالحا فعصوا

فأهلكهم الله بفتنة الناقة ، وقد فصلت أخبارهم في القرآن ... وواديها الحجر المذكور في القرآن يصب في وادى القرى من الشمال .. فيها آثار عجيبة ، بيوت منحوتة في الصخر وقلات مخازن للمياه في صخر ، وجبالها بارزة ، ينفرد معظمها عن غيره ، كأنه مغروس في الأرض .. وإنما سمى الناس هذه المساكن مدائن صالح إختيارا لاسم صالح عليه السلام وأنفة عن إسم ثمود الكفار ، وهكذا صارت لا تعرف إلا بمدائن صالح . هـ

قلت : قوله وهكذا صارت لا تعرف إلا بمدائن صالح ، يتناقض مع قوله في أول حديثة وادى الحجر المعروف ، لا زال باسمة .

والواقعِ أن هذه البلاد ما زالت تعرف باسمها القديم (الحجر) وتسمى أيضاً في هذا العهد مدائن صالح .

الحجر أيضاً : قال عرام وهو يصف قرية الرحضية : قرية للأنصار وبنى سليم من نجد ، وبها آبار عليها زرع كثيرة ونخيل . وحذاؤها قرية أو أرض يقال لها الحجر ، وبها مياه وعيون وآبار لبنى سليم خاصة وحذاؤها جبل ليس بالشامخ يقال له قنة الحجر . هـ

وفي هذا الموضع يقول الشاعر :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا ... أروم فآرام فشابة فالحضر
وهل تركت أبلى سواد جبالها ... وهل زال بعدى عن قنينته الحجر

قلت : وقد أصبحت هذه القرية في هذا العهد تسمى (الحجرية) ، تعرف في هذا العهد بهذا الاسم وكذلك قرية الرحضية ما زالت معروفة باسمها وهما اليوم من بلاد مطير بنى عبد الله .

حجر بالفتح والسكون : هي مدينة اليمامة وأم قراها ، وبها ينزل الوالى ، وهي شركة الا أن الأصل لحنيفة- قاله ياقوت .

قلت : والمقصود بحجر اليمامة منطقة الرياض التي تقع فيها عاصمة المملكة العربية السعودية .

الحجر أيضاً : واد ببلاد عذرة وغطفان . قاله ياقوت .

الحجر أيضاً : جبل في بلاد غطفان- قاله ياقوت .

الحجر بالكسر والسكون : أحد شعب وادى ينبع النخل إذا فاض ماؤه في الخبت ، وهي الشعبة الوسطى- والجنوبية شطب ، والشمالية المرخية تصب على بلدة ينبع من الجنوب ، يبعد الحجر ١٣ كيلا جنوب مدينة ينبع البحر .

حجر : بفتح أوله وضم الجيم وراء .. واد ذو نخل وقرى وعيون جارية لزبيد من حرب ، يقع شرق رابغ ويعتبر أحد الروافد الرئيسية لوادى مرعنب (وادى- رابغ) ، ويقع على قرابة (١٠٠) كيل من رابغ ، وكان يعرف باسم (السائرة)- قاله عاتق البلادى .

حجر : بفتح المهملة والجيم وآخره راء مهملة : جبال على شكل سلسلة تمتد غرب الطريق بين خيبر والجهراء (الجناب) تسيل مياهها الشرقية الى وادى الزهيراء ثم الطبق والغربية الى وادى الصحن وبرمة فاطبق أيضاً ، وهي من ديار عنزة ، وحدها الشمالى حفيرة الأيداء وحدها الجنوبي شرف العمامة ، الذي يأخذه الطريق بين غمرة والعلاء ، وكل جبل من هذه السلسلة له إسم يعرف به ، وهي تشرف على قرية العشاش من الغرب .

الحجـــرات : بحاء مهملة مضمومة وجيم معجمة مضمومة بعدها راء مهملة ثم ألف وآخره تاء مثناة : جمع حجرة : والمقصود به حجرات النبي ﷺ في المدينة - وهي بيوت نسائية .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن الذين ينادو يامحمد من وراء حجراتك . والحجرات : جمع حجرة .

وقوله : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم جهال بدين الله ، واللازم لهم من حقك وتعظيمك ، وذكر أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في قوم من الأعراب جاءوا ينادون رسول الله ﷺ من وراء حجراته : يامحمد أخرج الينا .

وبسنده عن مجاهد ، قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ ، أعراب بنى تميم .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ثم أنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات ، وهي بيوت نسائية كما يصنع أجلاف الأعراب ، فقال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة .

وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه فيما أورده غير واحد .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٦٠ .

قال الامام أحمد : حدثنا عثمان حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد يامحمد وفي رواية يارسول الله فلم يجبه فقال يارسول الله : أن حمدى لزين وأن ذمى لشين فقال : (ذاك الله عز وجل) .

وقال ابن هشام : قدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب فقدم عليه عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي ، في أشراف بنى تميم ، منهم الأقرع بن حابس التميمي والزبرقان بن بدر التميمي أحد بنى سعد وعمرو بن الأهتم والحبحاب بن يزيد .

قال ابن اسحاق : وفي وفد بنى تميم نعيم بن يزيد ، وقبيس بن الحارث ، وقيس بن عاصم أخو بنى سعد ، في وفد عظيم من بنى تميم .

قال ابن اسحاق : ومعهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى ، وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنينا والطائف .

فلما قدم وفد بنى تميم كانا معه . فلما دخل وفد بنى تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن أخرج الينا يامحمد فأذى ذلك رسول الله من صياحهم ، فخرج اليهم ، فقالوا : يامحمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن ، وهو أهله الذي جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن

فاخرنا فليعدد مثل عددنا ، وانا لو نشاء لأكثرنا بالكلام ، ولكن نحيا من الأكثار فيما أعطانا ، وانا نعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس ، ، أخي بنى الحارث بن الخزرج : قم ، فأجب الرجل في خطبته . فقام ثابت ، فقال : الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شيىء قط الا من فضلة ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقة رسولا ، أكرمه نسبا ، وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابة وأتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس الى الايمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومة وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالاً . ثم كان أول الخلق اجابة ، واستجاب الله حين دعاه رسوله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

فقام الزبرقان بن بدر ، فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم كسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء اذا لم يؤنس القزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هويا ثم تصطنع
فننحر الكوم عبطا في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا الى حى نفاخرهم ... الا استفادوا فكانوا الرأس يقتطع

فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع
انا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... أنا كذلك عند الفخر نرتفع

قال ابن هشام : ويروى :

منا الملوك وفينا تقسم الربع
من كل أرض هوانا ثم نتبع

ويروى :

قال ابن اسحاق : وكان حسان غائباً ، فبعث اليه رسول الله ﷺ قال حسان : جاءنى رسوله ، فأخبرنى أنه انما دعانى لأجيب شاعر بنى تميم ، فخرجت الى رسول الله ﷺ وأنا أقول :

منعنا رسول الله اذ حل وسطنا ... على أنف راض من معد وراغم
منعناه لما حل بين بيوتنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم
ببيت حريد عزه وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم
هل المجد الا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

قال : فلما انتهيت الى رسول الله ﷺ ، وقام شاعر القوم ، فقال ما قال ، عرضت في قوله ، وقلت على نحو ما قال . قال : فلما فرغ الزبرقان ، قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : قم ياحسان ، فأجب الرجل فيما قال . فقام حسان ، فقال :

أن الذوائب من فهر وأخواتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الا له وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... أن الخلائق فاعلم شرها البدع

أن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لادنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
أن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
أعفة ذكرت في الوحى عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم طمع
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طبع
إذا نصبنا لحى لم ندب لهم ... كما يدب الى الوحشية الذرع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وأن أصيبوا فلا خور ولا هلع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع ... أسد بحلية في أرساعها فدع
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فان في حربهم فاترك عداوتهم ... شرا يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدى لهم مد حتى قلب يؤازره ... فيما أحب لسان حائك صنع
فانهم أفضل الأحياء كلهم ... أن جد بالناس جد القول أو شمعوا

قال ابن هشام : أنشدنى أبو زيد :

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الا له وبالأمر الذي شرعوا

وقال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم بالشعر من بنى تميم : أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بنى تميم قام فقال :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وانا نذود المعلمين إذا انتخوا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم

وانا لنا المرباع في كل غارة   نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان بن ثابت فأجابه ، فقال :

هل المجد الا السؤدد العود والندى   وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبي محمدا   على أنف راض من معد وراغم
بحي حريد أصله وثراؤه   بجابية الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل وسط ديارنا   بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا   وطبنا له نفسا بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا   على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها   ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بني دارم لا تفخروا أن فخركم   يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم   لنا خول ما بين ظئر وخادم ؟
فان كنتم جئتم لحقن دمائكم   وأموالكم أن تقسموا في المغانم
فلا تجعلوا الله ندا وأسلموا   ولا تلبسوا زياكزي الأعاجم

قال ابن اسحاق : فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبى ، أن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم .

قال ابن أسحاق : وفيهم نزل من القرآن : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الزين المراغى : قال رزين : ثم لم يزد في المسجد شيء يعنى بعد الزيادة التي سبقت ، وهي زيادة عثمان بن عفان رضي الله

عنه- حتى كان أيام الوليد بن عبد الملك وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة ومكة .

قيل : وكان استعماله عليها سنة سبع وثمانين ، فبعث الوليد الى عمر بن عبد العزيز بمال وقال : زد في المسجد ومن باعك فأعطه ثمنه ومن أبى فاهدم عليه وأعطه المال ، فان أبى أن يأخذه فاصرفه ألى الفقراء .

واشترى عمر بن عبد العزيز الدور وأدخلها مع حجرات النبي ﷺ وأدخل القبر الشريف فيه .

ونقل السهيلى أن الحجرات والبيوت خلطت بالمسجد في زمن عبد الملك بن مروان ، ويرده تصريح رزين وغيره بضد ذلك .

قال عطاء : وحضرت كتاب الوليد الى عمر بن عبد العزيز يأمره فيه بادخال حجرات أزواج النبي ﷺ في المسجد ، فما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم .

وسمعت سعيد بن المسيب يقول يؤمئذ : والله لوددت لو تركوها على حالها ، ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرى ما أكتفى به رسول الله ﷺ في حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والفخر .

وقال أبو أمامة : ليتها لو تركت حتى يقصر الناس من البنيان ويروا ما رضى الله عز وجل لنبيه ﷺ ، ومفاتيح الدنيا بيده .

قلت : ومما تقدم فيما رواه الزين المراغى عن رزين وغيره يتبين أن حجرات زوجات النبي ﷺ قد أزيلت وأدخلت أرضها في توسعه مسجد النبي ﷺ في عهد الوليد بن عبد الملك .

حـــرم : بحاء مهملة مفتوحة وراء مهملة مفتوحة وآخرة ميم : المقصود به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (٢) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وقالت كفار قريش : إن نتبع الحق الذي جئتنا به معك ، ونتبرأ من الأنداد والآلهة ، يتخطفنا الناس من أرضنا باجماع جميعهم على خلافنا وحربنا ، يقول الله لنبيه : فقل ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ﴾ يقول : أولم نوطىء لهم بلدا حرمنا على الناس سفك الدماء فيه ، ومنعناهم من أن يتناولوا سكانه فيه بسوء ، وأمنا على أهله أن يصيبهم بها غارة أو قتل أو سباء .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ قال : كان أهل الحرم آمنين يذهبون حيث شاؤا ، إذا خرج أحدهم فقال : انى من أهل الحرم لم يتعرض له . وكان غيرهم من الناس إذا خرج أحدهم قتل .

وروى بسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ قال : آمناكم به ، قال : هي مكة وهم قريش .

---

(١) سورة القصص الآية رقم : ٥٧ .
(٢) سورة العنكبوت الآية رقم : ٦٧ .

وروى بسنده عن ابن عباس في ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ قال : ثمرات الأرض .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ يقول تعالى مخبرا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : (أن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أي أن يقصدو الأذى والمحاربة ويتخطفونا أينما كنا ، قال الله تعالى مجيبا لهم ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ يعنى هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل ، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ هذا قول مشركى مكة ، قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشى ، قال للنبي ﷺ : أنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا - يعنى مكة - لاجتماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم .

وكان هذا من تعللاتهم ، فأجاب الله تعالى عما اعتل به فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ أي ذا أمن ، وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضا ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم ، فأخبر أنه قد أمنه بحرم

البيت ، ومنع عنهم عدوهم فلا يخافون أن تستحل العرب حرمه في قتالهم والتخطف الانتزاع بسرعة .

قال يحيى بن سلام يقول : كنتم آمنين في حرمي ، تأكلون رزقي ، وتعبدون غيري ، أفتخافون ؟ إذا عبد تموني وآمنتم بي .

قلت : من أقوال المفسرين يتضح لنا أن المقصود في الآيتين الكريمتين هو مكة البلد الحرام .

حنيــن : بحاء مهملة مضمومة ونون موحدة مفتوحة وياء مثناه ساكنة وآخره نون موحدة : موضع بين مكة والطائف .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾[1] .

وروى البخاري بسنده : عن اسماعيل قال : رأيت بيد ابن ابى أوفى ضربة قال : ضربتها مع النبي ﷺ يوم حنين .

وقال ابن حجر : حنين بمهملة ونون مصغر : واد الى جنب ذى المجاز قريب من الطائف ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات ، قال أبو عبيد البكرى : سمى باسم حنين ابن قانية بن مهلائيل .

وقال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أيها المؤمنون في أماكن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ،

(١) سورة التوبة الآية رقم : ٢٥ .

ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة ، ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، يقول : وفي يوم حنين أيضاً قد نصركم .

و ﴿ حُنَيْنٍ ﴾ واد فيما ذكر بين مكة والطائف ، وأجرى لأنه مذكر اسم لمذكر . وقد يترك اجراؤه ، ويراد به أن يجعل اسما للبلدة التي هو بها ، ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

وروى بسنده عن عروة قال : ﴿ حُنَيْنٍ ﴾ واد الى جنب ذى المجاز .

وروى بسنده عن قتادة قوله : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ ، قال : حنين ما بين مكة والطائف ، قاتل عليها نبى الله هوازن وثقيفا ، قال وذكر لنا أنه خرج يومئذ مع رسول الله ﷺ اثنا عشر ألفا : عشر آلاف من المهاجرين والأنصار ، وألفان من الطلقاء . وذكر لنا أن رجلا قال يؤمئذ : لن نغلب اليوم بكثرة .

وقال القرطبي : نهض رسول الله ﷺ حتى أتى وادى حنين وهو من أودية تهامة ، وكانت هوازن قد كمنت في جنبتى الوادى وذلك في غبش الصبح ، فحملت على المسلمين حملة رجل واحد فانهزم جمهور المسلمين ولم يلو أحد على أحد .

وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته على والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن عبيد- وهو أيمن بن أم أيمن قتل يومئذ بحنين- وربيعة بن الحارث والفضل بن عباس ، وقيل في موضع جعفر بن أبى سفيان : قثم بن العباس فهؤلاء عشرة رجال ، ولهذا قال العباس :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه وأقشعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه بما مسه في الله لا يتوجع

وثبتت أم سليم في جملة من ثبت ، محتزمة ممسكة بعيرا لأبى طلحة وفي يدها خنجر . ولم ينهزم رسول الله ﷺ ولا أحد من هؤلاء .

قال ياقوت : ﴿ حُنَيْنٍ ﴾ : يجوز أن يكون تصغير الحنان ، وهو الرحمة تصغير ترخيم ، ويجوز أن يكون تصغير الحن ، وهو حى من الجن ، وقال السهيلي : سمى بحنين بن قانية بن مهلائيل ، قال : وأظنه من العماليق ، حكى عن أبى عبيد البكرى ، وهو اليوم الذي ذكره جل وعزّ في كتابه الكريم ، وهو قريب من مكة ، وقيل : هو واد قبل الطائف ، وقيل : واد بجنب ذى المجاز ، وقال الواقدى : بينه وبين مكة ثلاث ليال ، وقيل : بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا ، وهو يذكر ويؤنث ، فان قصدت به البلد ذكرته وصرفته كقوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ ، وأن قصدت به البلدة والبقعة انثته ولم تصرفه كقول الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

وقال خديج بن العوجاء النصرى :

ولما دنونا من حنين ومائه رأينا سوادا منكر اللون أخصفا
بملمومة عمياء لو قذفوا بها شماريخ من عروى اذا عاد صفصفا
ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم إذا ما لقينا العارض المتكشفا
إذا ما لقينا جند آل محمد ثمانين ألفا واستمدوا بخندفا

كأنه تصغير حن عليه إذا أشفق ، وهي لغة في أحنى موضع عند مكة . هـ

وقال البكري : ﴿ حُنَيْنٍ ﴾ : واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا ، والأغلب عليه التذكير لأنه إسم ماء . قال عباس بن مرداس :

لدن غدوة تركنا عشية ... حنينا وقد سألت دوافعة دما

وربما أنثته العرب ، لأنه إسم للبقعة قال حسان :

نصروا نبيهم وشدوا أزرة ... بحنين يوم تواكل الأبطال

وهو الموضع الذي هزم فيه رسول الله ﷺ هوزان ، وقيل إنه سمى بحنين بن قانية بن مهلائيل . هـ

قلت : وفيما تقدم من أقوال العلماء نرى إختلافا بين هذه الأقوال ، في تحديد موقع حنين ، وفي تحديد المسافة بينه وبين مكة، وكذلك في المسافة بينه وبين الطائف ، وأقرب الأقوال إلى الصواب في تحديد البعد بينه وبين مكة ، قول بعضهم : بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا ، أما قول بعضهم هو واد قبل الطائف فإنه قول غير صائب ، والواقع أنه قريب من مكة- كما قال ذلك بعضهم .

وقال الهمداني : قال أحمد بن عيسى الرداعى في أرجوزته ، - وهى أرجوزة رسم بها طريق الحج من اليمن إلى مكة :

لضيعة الطليحى مستقيمة ... صادرة عنها تؤم الزيمة
ثم على سبوحة القديمة ... حيث بريد الصخرة المقيمة
مطنبة في السير ذى العزيمة ... الى أريك تعتلى صميمة
حميدة في الركب لا مليمة ... باقية أعراقها كريمة
انى لأرجو أن ترى سليمة ... محمودة في الركب لا ذميمة

ضيعة الطليحى من قريش نخل قد يمات ، الزيمة موضع في بستان عبد الله بن عبيد الله الهاشمي ، وسبوحة موضع ، وأريك عقبة تضاف الى مكان فيقال عقبة أريك بضم الألف .

ثم انتحت وخدا على انكماش ... بئر الجذامى باحتياش

الى حنين المنهل الجياش ... حتى إذا أفضت الى المشاش

حيث بريد الصخر لا تحاش ... عجت بتحنان لشوق غاش

آبار الجذامى بئر معمورة ، والجذامي من أهل مكة . وحنين هو الذي كانت به وقعة حنين بين النبي ﷺ وبين هوازن ، والمشاش موضع يلتقى فيه محجة اليمن ونجد ومحجة العراق والبحرين .

قلت : هكذا رسم الرداعى الطريق وحدد موقع حنين ، وسار على هذا الترتيب : الزيمة ، سبوحة ، بئر الجذامي ، حنين ، - وذكر أن حنينا منهل جياش ، أى يجيش بالمياه الكثيرة - .

قال محمد بن بليهد : وادى الشرائع : واسم الشرائع حديث ، وزعم بعض المعاصرين أنها حنين المشهورة في التاريخ الأسلامي والتي ذكرها الله تعالى بقوله ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ وأن تلك العيون هي عيون حنين ، وأنا أقول إن وادى حنين ليس فيه عيون، ولو كان فيه شيء من ذلك لما أغفل أصحاب السير ، والصحيح أن حنينا هو الوادى الذي يحاذى الشرائع على يمين الذاهب من مكة الى الطائف يبعد عن الشرائع الى جنوبيه بمسافة ثلاثة آلاف متر ، نذكر هذا التحديد مستندين قول صحيح ذكره ابن هشام في سيرته عند ذكر معركة حنين ، قال ابن هشام : ولما نزل المشركون بأوطاس قال دريد بن الصمة ، وكان مع هوازن ، وهو شيخ كبير : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : إنزلوا ، نعم مجال

الخيل ، لا حزن ضرس ، ولا سهل دهس (فكانت المعركة فيه ، وهو باق بهذا الإسم الى الآن ، وامتدت المعركة الى قرب أميال الحرم ، ثم انهزمت هوازن وامتدت المعركة الى ما يقارب الزيمة) قوله : فكانت المعركة فيه وما بعده من قوله هو ، لا من حديث بن هشام .

وأهل السير قالوا في ذكر منزلهم : فنزلوا الشعب من حنين ، ونأخذ من ذلك أنهم نزلوا في واد وتبين لنا من قصة دريد أن ذلك الوادى . هو أوطاس ، وليس ببعيد أن الشعب يقال له أوطاس ، والوادى يقال له حنين ، لأن في شعب أوطاس آثار باقية(١) .

قلت : ومما يلاحظ في هذا النص أنه نفى أن يكون في حنين عيون ، زعما منه أنه لو كان في حنين عيون لما أغفلها أصحاب السير ، وهذا بالنسبة لعلمه .

ثانياً : قال والصحيح أن حنينا هو الوادى الذي يحاذى الشرائع على يمين الذاهب من مكة الى الطائف ولم يذكر إسم هذا الوادى .

ثالثاً : ذكر منزل هوازن في وادى أوطاس ولم يذكر منزل النبي ﷺ وأصحابة .

رابعاً : قال وتبين لنا من قصة دريد أن ذلك الوادى هو أوطاس ، وليس ببعيد أن الشعب يقال له أوطاس والوادى يقال له حنين ، لأن في شعب أوطاس آثار آبار قديمة .

قلت : أما نفيه وجود عيون في حنين فهو مردود بالأخبار الصحيحة . قال الفاكهى : وهو يذكر أعمال زبيدة الخيرية في مكة - : وأجرت فيها عيونا من الحل منها : عين مشاش ، واتخذت لها

---

(١) سورة صحيح الأخبار ٢/١٤٢ - ١٤٣ .

بركا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ، ثم أجرت لها عيونا من حنين ، واشترت حائط حنين ، فصرفت عينه الى البركة ، وجعلت حائطة سدا تجتمع فيه السيول ، فأهل مكة يشربون من مائها إلى يومنا هذا .

وقال الأزرقي في حديثه عن أعمال زبيدة : وأجرت فيها -أي في مكة- عيونا من الحل ، منها عين من المشاش ، واتخذت لها بركا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ، ثم أجرت لها عيونا من حنين ، واشترت حائط حنين ، فصرفت عينه الى البركة ، وجعلت حائطة سدا يجتمع فيه السيل ، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحد قبلها .

وفي أرجوزة الرداعى قال :

ثم انتحت وخداً على انكماش ... بئر الجذامي باحتياش

الى حنين المنهل الجياش ... حتى إذا أفضت الى المشاش

وبهذا أوضح الرداعى أن حنينا منهل جياش ، أى مورد ماء يجيش بالمياه الكثيرة .

أما قوله والصحيح أن حنينا هو الوادى الذي يحاذى الشرائع على يمين الذاهب من مكة فهو قول لا يستند إلى دليل .

وفي الثالث والرابع نسب المعركة الى أوطاس بينما المشهور في القرآن وفي السير أنها في حنين ويلاحظ أنه في آخر حديثه جعل أوطاس وحنينا موضعا واحدا والمشهور أنهما واديان يسمى كل واحد منهما باسم يعرف به .

وقال في موضع آخر : بعد أن أورد ما ذكر ياقوت في تحديده : حنين موضع قد أعيانا الوقوف على حقيقته ، ومن كتاب هذا العصر

من قال أنه عين الشرائع أنها هي عين حنين ، وهذا قريب من الصواب فإن لم تكن عين حنين فهي قريبة منها في الوادى الذي يقع عن الشرائع جنوبا لأنه قريب من ذى المجاز الذي ذكر في آخر رواية السهيلي[1] .

قلت : وفي هذا النص إختلاف عما ذكر في النص السابق ورد على قوله بالنسبة لعيون حنين وموقعة .

وقال حمد العبيدي في إستدراكاته على أحد أجزاء مجلة العرب : يظن كثير من الكتاب أن عين زبيدة التي أوردتها الى مكة المكرمة ، هي التي توجد منابعها جنوب شداد ، والصواب أنها عين حنين التي تقع في أسفل الشرائع وتعرف اليوم بعين سمحاء ، وقد بعثها قبل سنين الشيخ حمد السليمان الحمدان وكيل وزارة المالية سابقا وأجرى ماءها الى مزرعة أقامها هناك[2] .

وقال حمد الجاسر : المتوجه الى وج من طريق نخلة اليمانية يمر بحنين فسبوحة فنخلة اليمانية فقرن المنازل وبعد ذلك الطائف ، وليس حنين قبل وج ، فحنين يقع على مقربة من مكة في تهامة ، وموضعة يعرف الآن باسم الشرائع ، قرية عظيمة ، وفي شرقيها يقع وادى يدعان الذي حصلت فيه معركة حنين ، وبه نزل الرسول ﷺ ، ويعرف الآن باسم جدعان- بالجيم -[3].

وقال حمد الجاسر تعقيبا على أحد الكتاب : أوطاس وحنين موضعان بينهما عشرات الأميال ، أحدهما في تهامة والثاني شرق جبال الحجاز خارجا عنها .

---

(١) صحيح الأخبار ٣ ، ١٢٧ .
(٢) مجلة العرب ٥ - ٣٠٢ .
(٣) مجلة العرب ٦ - ٣٩١ .

حنين هو أعلى وادى الشرائع واسمه يدعان معروف الآن ولكن أهل تلك الجهة يبدلون الياء جيما فيقولون (جدعان) قال نصر الاسكندرى في كتابه - الذي لا يزال مخطوطا - : يدعان واد به مسجد للنبي ﷺ ، وبه عسكرت هوازن يوم حنين ، في وادى نخلة .

ونقل هذا ياقوت ، ولم يذكر مصدره . والقول بأنه في وادى نخلة فيه تجوز ، فهو بقرب وادى نخلة اليمانية يقع جنوبها ، وليس فيها .

أما أوطاس فأقرب المواضع المسكونة منه عشيرة ، التي كانت منهلا من مناهل طريق الحجاز من نجد ، فأصبحت الآن قرية ... وقال بجير بن زهير بن أبى سلمى :

كانت علالة يوم بطن حنين   وغداة أوطاس ، ويوم الأبريق

ففرق بين الموضعين . والغزوة واحدة ، إبتدأت في حنين وهو - كما جاء وصفه في كتب المغازى - : واد من أودية تهامة أجوف ، حطوط ، ينحدر فيه إنحدارا - فوقعت الهزيمة على المسلمين في أول الأمر - ثم ثبتوا وانتصروا حتى هزموا أعداءهم فمنهم من هرب نحو الطائف ومنهم من فر الى أوطاس وتوجه بعضهم الى نخلة . وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس بعثا من المسلمين هزم من تجمع هناك من الأعداء[1] .

وقال حمد الجاسر معقبا على بعض ما قاله أحد الكتاب (حنين واد قريب من مكة الى جانب ذى المجاز) وهو واد يعرف الآن باسم (الشرائع) وأعلاه (يدعان) يبدل العامة الياء جيما فيقولون (جدعان) وليس بجانب ذى المجاز - الواقع بقرب عرفات ، ولكن سيلة يفضى إليه ، والمسافة بينهما قصيرة[2] .

---

(١) مجلة العرب ١٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) مجلة العرب ١٦ - ٨٢٧ .

وقال حمد الجاسر : ومن اشهر المواضع الأثرية قرب مكة : وادى حنين (يدعان) أعلى وادى الشرائع ، الذي حدثت فيه الواقعة المذكورة في القرآن الكريم : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ الأية . وتحسن الإشارة الى التفريق بين موضعى حنين وأوطاس ، حيث وقع من بعض المؤرخين ما يفهم منه إعتبارهما موضعا واحدا ، مع تغايرهما ، فأوطاس يقع شرق سلسلة جبال الحجاز ، أقرب المواضع المأهولة منه عشيرة ، يقع غرب وادى العقيق ، على مقربة من البركة شمالها بميل نحو الغرب(١) .

وقال عاتق البلادى- بعد أن ذكر ما قاله ياقوت والبكري في تحديد حنين- حنين يعرف اليوم بالشرائع ، وهو على طريق مكة من نخلة اليمانية- واد يسيل من جبال طاد والتنضب ، ثم ينحدر غربا مارا بين جبلى لبن وكنثيل ، يسمى رأسه الصدر وأسفله الشرائع ، ثم يدفع في أعلى عرنة قرب ذى المجاز شمالاً ، ومن روافده وادى يدعان ، يبعد حنين عن مكة (٢٦) كيلاشرقا ، وعن حدود الحرم (١١) كيلا ، عن علمى طريق نجد ، سكانه هذيل والأشراف .

قلت : ومما تقدم من أقوال العلماء في تحديد موقع حنين ووصفه الجغرافي يترجح أن حنينا هو الوادى الذين يسمى في هذا العهد الشرائع ، وقد صرح بذلك بعضهم على ضوء دراستهم لهذا الموقع ومشاهدتهم له .

وتحدث ابن اسحاق عن غزوة حنين فقال : ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصرى ، فاجتمع اليه مع هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت نصر

---

(١) مجلة العرب ١٧ - ١٦٧ .

وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء ، وغاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب وكلاب ، ولم يشهدها منهم أحد له إسم وفي بنى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخا مجربا ، - وفي ثقيف سيدان لهم ، وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب ، وفي بنى مالك .و الخمار سبيع بن الحارث بن مالك ، وأخوه أحمر بن الحارث ، وجماع أمر الناس الى مالك بن عوف النصرى .

فلما أجمع السير الى رسول الله ﷺ حط مع الناس أموالهم ونساءهم ، فلما نزل بأوطاس إجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة في شجار له يقاد به ، فلما نزل قال : بأى واد أنتم ؟ قالوا بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرس ولا سهل دهس ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ، قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ودعى له ، فقال : يامالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ قال : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال : ولم ذاك ؟ قال أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، قال : فانقض به ، ثم قال راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ، ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد ، قال : غاب الحد والجد ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، قال : ذلك الجذعان من عامر ، لا ينفعان ولا يضران ،

يامالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن الى نحور الخيل شيئا ، إرفعهم إلى متمنّع بلادهم وعليا قومهم ، ثم الق الصباء على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت عليك الفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك . قال : والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك . والله لتطيعننى يامعشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى . وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر أو رأى ، فقالوا : أطعناك فقال دريد بن الصمة : هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى :

ياليتنى فيها جذع ... أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع ... كأنها شاة صدع

قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول الله ﷺ السير الى هوازن ليلقاهم ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا له وسلاحاً ، فأرسل اليه وهو يومئذ مشرك ، فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا ، فقال صفوان : أغصبا يامحمد ؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل .

قال ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، فكانوا إثنى عشر ألفا ، واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة ، أميرا على من تخلف عنه من الناس، ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهة يريد لقاء هوازن .

وروى ابن إسحاق بسنده عن جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادى حنين إنحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط ،

إنما ننحدر فيه إنحدارا ، قال : وفي عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا الى الوادى ، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه وموائقه وقد أجمعوا وتهيؤا وأعدوا ، فو الله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين ، لا يلوى أحد على أحد .

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال : أين أيها الناس ؟ هلموا إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . قال : فلا شيء ، حملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس ، إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ ، نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

قال ابن إسحاق : فلما انهزم الناس ، ورأى من كان مع سول الله ﷺ من جفات أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام لمعه في كنانته ، وصرح جبلة بن الحنبل - وهو مع أخيه صفوان بن أميه مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ -: ألابطل السحر اليوم ، فقال له صفوان : إسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل مكة ، أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة الى حنين ، ورأى كثرة من معه من جنود الله: لن نغلب من قلة .

قال ابن إسحاق : وزعم بعض الناس أن رجلا من بنى بكر قالها .

وروى ابن إسحاق بسنده عن العباس بن عبد المطلب ، قال انى لمع رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها ، قال وكنت أمرءا جسيما شديد الصوت ، قال ورسول الله ﷺ يقول حين

رأى ما رأى من الناس : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال : ياعباس ، إصرخ يامعشر الأنصار : يامعشر أصحاب السمرة ، قال : فأجابوا : لبيك ، لبيك ، قال : فيذهب الرجل ليثنى بعيرة فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذ فها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيلة ، فيؤم الصوت حتى ينتهى الى رسول الله ﷺ . حتى إذا إجتمع اليه منهم مائة إستقبلوا الناس فاقتتلوا ، وكانت الدعوى أول ما كانت : ياللأنصار ، ثم خلصت أخيراً : ياللخزرج وكانوا صبرا عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه ، فنظر إلى مجلتد القوم وهم يجتلدون فقال : الآن حمى الوطيس .

قال : واجتلد الناس ، فوالله ما رجعت راجعه الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : فلما انهزمت هوازن إستحر القتل من ثقيف في بنى مالك ، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم ، فيهم عثمان بن عبدالله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب ، وكانت رايتهم مع ذى الخمار ، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ، قال : لما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال : أبعده الله فإنه كان يبغض قريشا .

قال ابن إسحاق : ولما إنهزم المشركون ، أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنوا غبرة من ثقيف . وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا .

قال ابن اسحاق : وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعرى ، فأدرك من الناس بعض من إنهزم ،

فناوشوه القتال فرمى أبو عامر بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن عمه فقاتلهم ، ففتح الله على يديه وهزمهم .

قال ابن اسحاق : ثم جمعت إلى رسول الله ﷺ سبابا حنين وأموالها وكان على المغانم مسعود بن عمرو الغفارى وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها .

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس ، ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانه ، وكان مع رسول الله ﷺ من سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الابل والشاء مالا يدرى ماعدته .

قال ابن إسحاق فيما رواه بسنده عن عبد الله بم عمرو : أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا ، فقالوا : يارسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك قال : وقام رجل من هوازن ، ثم أحد بنى سعد بن بكر ، يقال له زهير ، يكنى أبا صرد ، فقال يارسول الله ، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يارسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا ، فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم ، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : وأما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا

فهو لرسول الله ﷺ . وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنوا تميم فلا . وقال عيينة بن حسن: أما أنا وبنوا فزارة فلا . وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنوا سليم فلا. فقالت بنوا سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

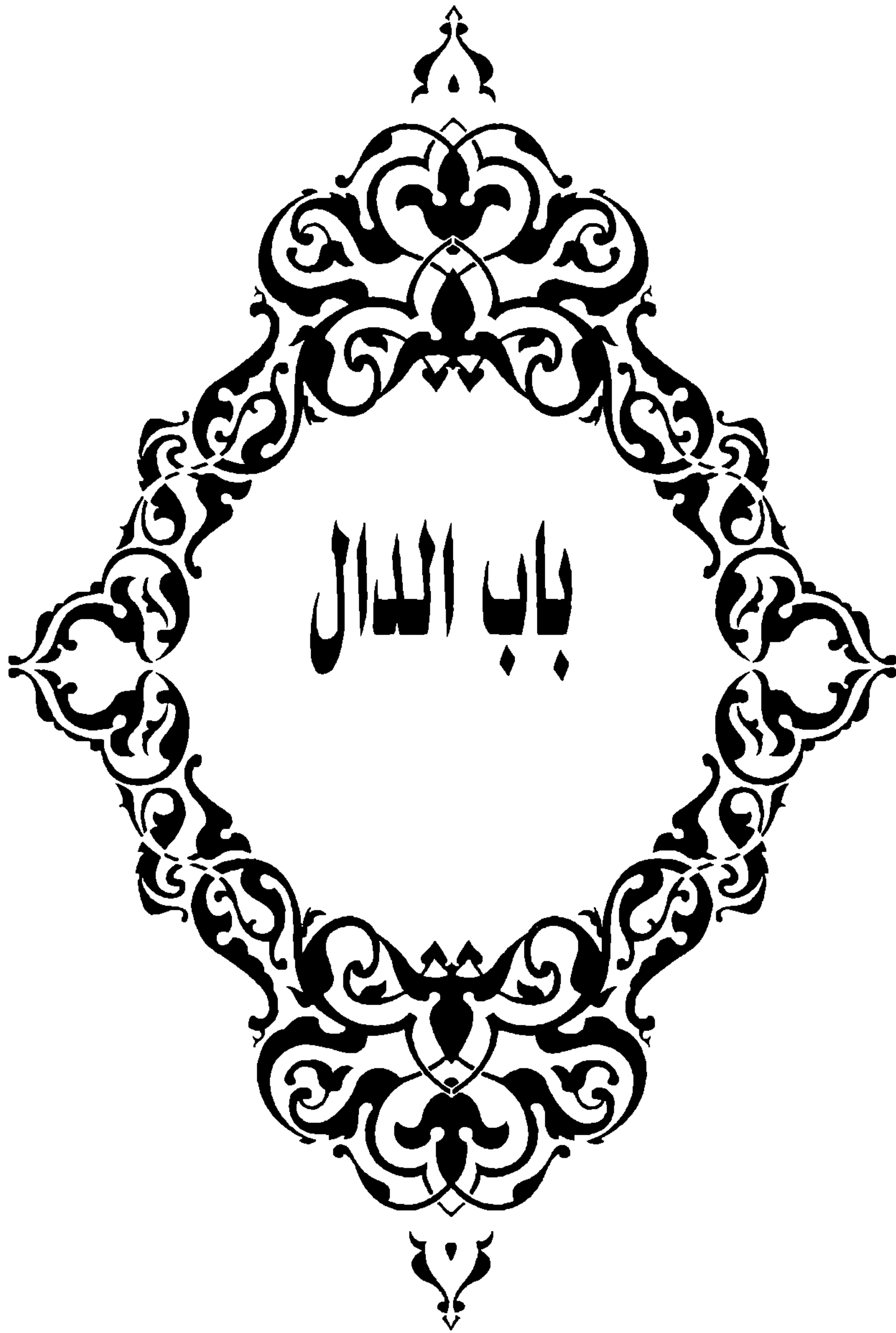
قال : يقول عباس بن مرداس لبنى سليم : وهنتمونى .

فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض ، من أول سبى أصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

قلت : هذا خلاصة ما ذكره ابن هشام من خبر غزوة حنين موجزا ومجردا من الأخبار الجانبية والأشعار التي قيلت في هذه الغزوة وتخصيص المؤلفة قلوبهم بالعطاء الكثير من غنائم حنين .

حنين أيضاً : بالمهملة والياء بين نونين : خليج صغير تدخل فيه السفن الصغيرة شمال رابغ ، بين الخرار ومستورة ، يجاوره من الجنوب الرأس الأبيض ، وفيه الزيائر وقد يكون حنين هذا مأوى لبعض المهربين .

ورأس حنين : رأس بطرف ذلك الخليج قاله عاتق البلادى .



باب الدال

ديار بنى النضيـــر : جمع دار ، بدال مهملة مكسورة بعدها ألف ثم راء مهملة : منازل بنى النضير في المدينة ، في البويرة (حصونهم : جمع حصن) .

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ (١) .

قال ابن كثير في تفسير الآية : يعني يهود بني النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد ، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه فأحل الله بهم من بأسه الذي لا مرد له فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع المسلمون وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله ، وجاءهم من الله مالم يكن ببالهم وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائقة ذهبوا الى أذرعات من أعالى الشام ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر .

وقوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومناعتها ولهذا قال تعالى : ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ أي جاءهم من الله أمر لم يكن لهم في بال .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي الخوف والهلع والجزع .

---

(١) سورة الحشر الآية رقم : ٢ .

وقال ابن جرير عن قتادة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ قيل : الشام ، وهم بنوا النضير حى من اليهود فأجلاهم نبى الله ﷺ من المدينة الى خيبر مرجعه من أحد .

قلت : وكانت منازل بنوا النضير في المدينة في مكان يقال له البويرة .

روى البخاري في صحيحة عن نافع عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه حرق نخل بنى النضير وقطع ، وهي البويرة ، ولها يقول حسان :

لهان على سراة بنى لؤى ... حريق بالبويرة مستطير

قال ابن حجر : والبويرة بضم الباء الموحدة مصغر موضع معروف .

وقال زين الدين المراغى : ونقل رزين ، ووفاته سنة أربع وعشرين وخمسمائة من أن الموضع المعروف بالبويرة بقباء صدقة النبي ﷺ من النخل ، قال : ولم تزل معروفة للمساكن محبوسة على من مربها الى عهد قريب من تاريخ الخمسمائة كالعشرين سنة ونحوها ، فتغلب عليها بعض ولاة المدينة لنفسه ، قال : وبها حصن النضير وحصون قريظة .

والبويرة اليوم معروفة في قبلة مسجد قباء الى جهة المغرب وبالقرب منها أطم خراب ولعله الذي أراد ، وقد توالت عليها يد الملاك بالغلبة .

وقال ياقوت : البويرة : تصغير البئر التي يستقى منها الماء ، والبويرة : هو موضع منازل بنى النضير اليهود الذين غزاهم رسول الله ﷺ ، بعد غزوة أحد بستة أشهر ، فأحرق نخلهم وقطع زرعهم وشجرهم . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ .

قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

يعز على سراة بنى لؤى　　حريق بالبويرة مستطير

فأجاب حسان بن ثابت :

أدام الله ذالكم حريقا　　وضرم في طوائفها السعير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه　　وهم عمى عن التوراة بور

وقال جمل بن جوال التغلبى :

وأوحشت البويرة من سلام　　وسعد وابن أخطب فهي بور

وقال ياقوت أيضاً : والنضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقريظة نزولا بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم ، وغزوة بنى النضير لم أر أحدا من أهل السير ذكر أسماء منازلهم ، وهو مما يحتاج اليه الناظر في هذا الكتاب فبحثت فوجدت منازلهم التي غزاهم النبي ﷺ فيها تسمى وادى بطحان .. وبموضع يقال له البويرة .

وفي المغانم المطابة : أورد ما ذكره ياقوت في غزوة النضير وتحديد منازلهم ، ولم يزد عليه .

وقال البكري : البويرة : بضم أوله ، وبالراء المهملة على لفظ التصغير ، فعليه ... وهي من تيماء . ثم ذكر غزوة النبي ﷺ لبنى النضير ، وسيأتى أيضاحه .

وقال السمهودى : بويرة- تصغير البئر التي يستقى منها- وفي الصحيح حرق نخل النضير وهو البويرة .

وقال المجد : البويرة موضع منازل بنى النضير وذكره المرجاني . وقال ابن سيد الناس في قوله :

حريـــق بالبويـــرة مستطيـــر

ويروى (بالبويلة) قال وذكر ابن سعد أن رسول الله ﷺ أعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة البويلة من أرض بنى النضير .

وقد أطال السمهودى الحديث في التفريق بين البويرة هي منازل بنى النضير التي غزاها النبي ﷺ ، وبين البويلة ، باللام التي هي مال من أموالهم أعطاها النبي ﷺ الزبير بن العوام وأبا سلمة .

قلت : مما تقدم من أقوال العلماء يتضح وبدون خلاف أن البويرة بالراء المهملة هي منازل بنى النضير التي غزاها النبي ﷺ وأحرق نخلها وقطع أشجارها وأجلاهم منها .

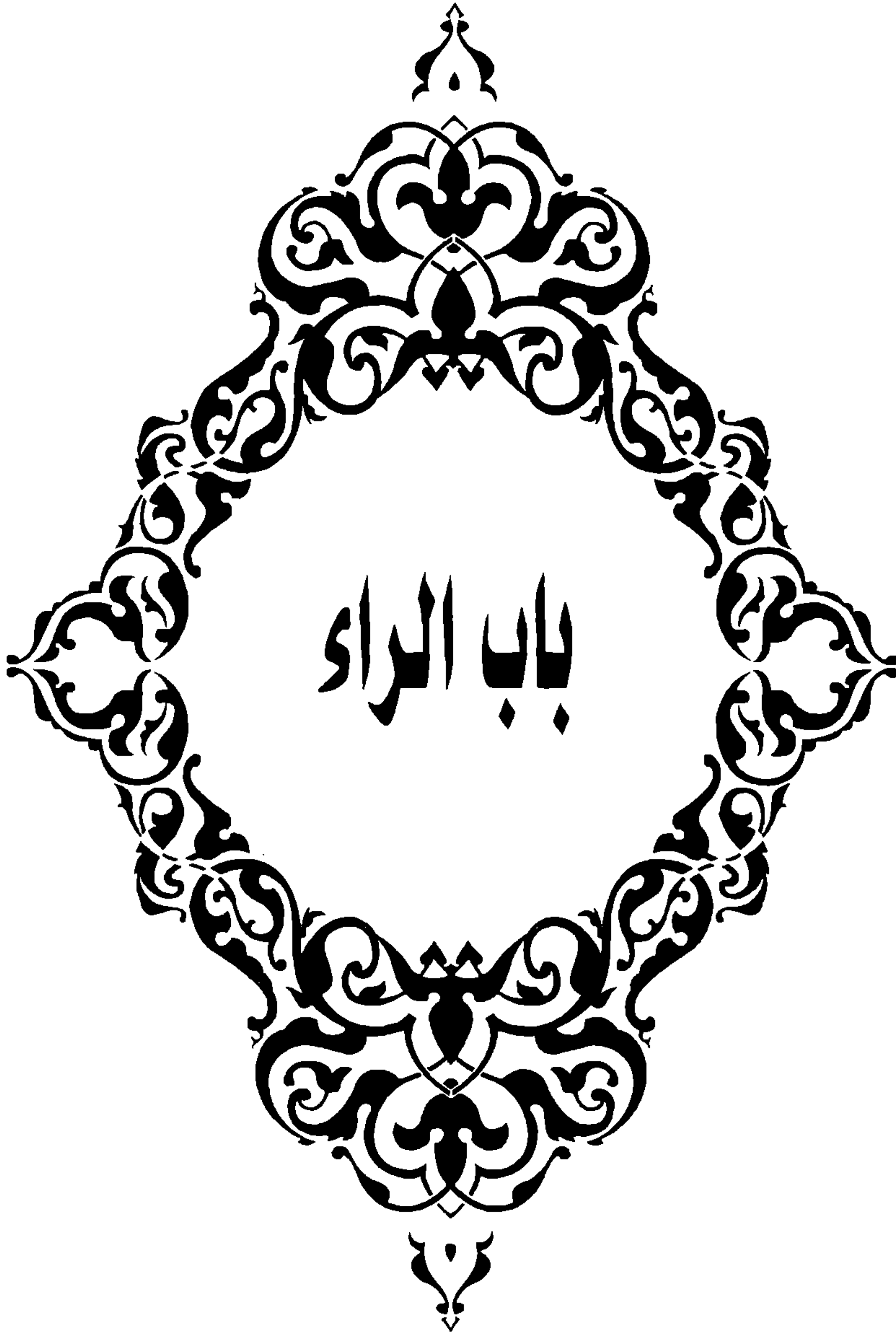
أما البويلة باللام ، فانه حصن من حصونهم .

قال الواقدى : وهو يتحدث عن أموال بنى النضير التي أفاء الله على رسوله ﷺ ، وما أعطاه لبعض أصحابه منها : وأعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة بن عبد الأسد البويلة .

وذكر السمهودي أن البويلة أطم من آطام اليهود ، نقلا عما ذكر ابن زبالة .

أما ما قاله ياقوت في تحديد منازل بنى النضير فانه لا خلاف في ذلك بين قوله : وادى بطحان وبموضع يقال له البويرة ، لما يأتي .

أما قول البكرى : في تحديد البويرة وهي من تيماء ، فان البويرة التي ذكر أنها في تيماء غير البويرة التي هي منازل بنى النضير في المدينة كما هو مفهوم من أقوال المؤرخين . وفي رسم المدينة مزيد من الايضاح فانظره .


باب الراء

ربـــوة : براء مهملة مفتوحة وباء موحدة ساكنة بعدها واو مفتوحة وآخره هاء : موضع في دمشق ، على أرجح الأقوال .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : قول تعالى : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ يقول : وضممناهما وصيّرناهما إلى ربوة ، يقال : آوى فلان إلى موضع كذا ، فهو يأوى إليه إذا صار إليه . وقوله ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ يعني : إلى مكان مرتفع من الأرض على ما حوله ، وفيها لغتان : ضم الراء ، وكسرها إذا أريد بها الاسم ، وإذا أريد بها الفعلة من المصدر ، قيل : ربى ربوة . واختلف أهل التأويل في المكان الذي وصفه الله بهذه الصفة ، وآوى إليه مريم وابنها ، فقال بعضهم : هي الرملة من فلسطين .

وروى بسنده عن أبي هريرة قال : الزموا هذه الرملة من فلسطين ، فإنها الربوة التي قال الله : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ .

وروى بسنده عن كريب ، قال : ما أدري ما حدّثنا مرّة البهزي ، أنه سمع رسول الله ﷺ ذكر أن الربوة : هي الرملة من فلسطين .

وروى بسنده عن سعيد بن المسيّب أنه قال في هذه الآية ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : زعموا أنها دمشق .

---

(١) سورة المؤمنون الآية رقم : ٥٠ .

وروى بسنده عن سعيد بن المسيّب ، في قوله ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : إلى ربوة من ربى مصر ، قال : وليس الربى إلا في مصر ، والماء حين يرسل تكون الربى عليها القرى ، ولولا الربى لغرقت تلك القرى .

وروى بسنده عن كعب ، مثله .

وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك : أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر ، وليس كذلك صفة الرملة ، لأن الرملة لا ماء بها معين ، والله تعالى ذكر وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ قال : الربوة المستوية .

وبسنده عن مجاهد : مثله .

وروى بسنده عن ابن عباس ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ قال : المعين : الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ الربوة المكان المرتفع من الأرض . والمراد بها ههنا في قول أبي هريرة فلسطين . وعنه أيضا : الرملة . وروى عن النبي ﷺ . وقال ابن عباس وابن المسيّب وابن سلام : دمشق . وقال كعب وقتادة : بيت المقدس . قال كعب : وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . قال :

فكنت هميدا تحت رمس بربوة ... تعاورني ريح جنوب وشمأل

وقال ابن زيد : مصر . وروى سالم الأفطس عن سعيد بن جبير : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ قال : النشز من الأرض . ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أي مستوية يستقر عليها . وقيل : ذات ثمار ، ولأجل الثمار يستقرّ فيها الساكنون . ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ماء جار ظاهر للعيون . وقال الزجاج : هو الماء الجاري في العيون .

وقال ياقوت : ربوة : بضم أوله وفتحه وكسره ، والضم أجود ، وأصله ما ارتفع من الأرض وجمعها ربى ، قال المفسّرون في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ، إنها دمشق ، وذات قرار أي قرار من العيش ، وبدمشق في لحف جبل على فرسخ منها موضع ليس في الدنيا أنزه منه ، لأنه في لحف جبل ، تحته سواء نهر بردي ، وهو مبني على نهر ثوري ، وهو مسجد عال جدا وفي رأسه نهر يزيد يجرى ويصب منه ماء إلى سقايته وإلى بركة ، وفي ناحية ذلك المسجد كهف صغير يزار يزعمون أنه المذكور في القرآن وأن عيسى ، عليه السلام ، ولد فيه .

وتحدّث ابن بطوطة عن أرباض دمشق فقال : وفي آخر جبل قايسون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وأمّه ، عليهما السلام ، وهي من أجمل مظاهر الدنيا ومنتزهاتها ، وبها القصور المشيّدة والمباني الشريفة ، والبساتين البديعة .

والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير وإزاءها بيت يقال إنه مصلّى الخضر ، عليه السلام ، يبادر الناس إلى الصلاة فيه، وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به ، وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو ، وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ، ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل.

وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجرى فيها الماء . وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق ، وبها منابع مياهها ، وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار ، كل نهر آخذ في جهة ، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم . وأكبر هذه الأنهار النهر المسمّى بتعورة ، وهو يشق تحت الربوة، وقد نحت له مجرى في الحجر الصلد كالغار الكبير ، وربّما انغمس ذو الجسارة من العوّامين في النهر من أعلى الربوة ، واندفع في الماء حتى يشقّ مجراه ويخرج من أسفل الربوة ، وهي مخاطرة عظيمة .

وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ، ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها ، وتلك الأنهار السبعة تذهب في طرق شتّى فتحار الأعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف .

قلت : وممّا تقدّم من أقوال المفسّرين - على اختلافها - وأقوال المؤرخين يترجّح أن الربوة في دمشق حيث حددها ووصفها المؤرخون فيما ذكر .

الــرس : براء مهملة مفتوحة وسين مهملة مشدّدة : قيل قرية بأنطاكية ، وقيل بأذربيجان ، وقيل قرية من بلاد ثمود بفلج باليمامة ، وقيل : غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾[1] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية رقم : ٥٠ .

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾[1] .

قال ابن جرير: يقول تعالى: ودمّرنا ايضا عادا وثمود وأصحاب الرس .

واختلف أهل التأويل في أصحاب الرس ، فقال بعضهم : أصحاب الرس من ثمود .

وروى بسنده عن ابن عباس : ﴿ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ قال : قرية من ثمود .

وقال آخرون : بل هي قرية من اليمامة يقال لها الفلج .
وروى بسنده عن قتادة قال : الرس :قرية من اليمامة يقال لها الفلج .
وروى بسنده عن عكرمة قال : أصحاب الرس بفلج هم أصحاب يس .
وقال آخرون : هم قوم رسّوا نبيّهم في بئر .
وروى بسنده عن عكرمة : قال كان الرس بئرا رسّوا فيها نبيّهم .
وقال آخرون : هي بئر كانت تسمّى الرس .
وروى بسنده عن ابن عباس ، ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ ﴾ هي بئر كانت تسمى الرس .

وروى بسنده عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ ﴾ قال الرس بئر كان عليها قوم .

وقال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك ، قول من قال : هم قوم كانوا على بئر وذلك أن الرس في كلام العرب كل محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك ومنه قول الشاعر :

---

(١) سورة المؤمنون الآية رقم : ٥٠ .

تنابـــل يحفــــرون الرساســـــا

يريد أنهم يحفرون المعادن ، ولا أعلم قوما كانت لهم قصة بسبب حفرة ذكره الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود .

وقال ابن كثير : قال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يسن ، وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ ﴾ قال : بئر بأذربيجان . وقال الثوري : عن أبي بكر عن عكرمة : الرس بئر رسّوا فيه نبيّهم أي دفنوه .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس الأخدود الذي ذكروا في سورة البروج .

وقال القرطبي : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ ﴾ والرس في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية والجمع رساس ، قال :

تنابـــل يحفــــرون الرساســـــا

يعني آبار المعادن ، وقال ابن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرس قال : صاحب ﴿ يسٓ ﴾ الذي قال :﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قتله قومه ورسّوه في بئر لهم يقال لها : الرس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل .

وقال السدّي : هم أصحاب قصة ﴿ يسٓ ﴾ فنسبوا إليها .

وقال عليّ رضي الله عنه : هم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ، وكان من ولد يهوذا ، فيبست الشجرة فقتلوه ورسوه في بئر ، فأضلّتهم سحابة سوداء فأحرقتهم .

وقال ابن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا نبيّا فجفّت اشجارهم وزروعهم فماتوا جوعا وعطشا .

وقال وهب بن منبّه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشي ، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم شعيبا فكذّبوه وآذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت بهم وبديارهم ، فخسف الله بهم فهلكوا جميعا .

وقال قتادة: أصحاب الأيكة أمّتان أرسل الله إليهما شعيبا فكذّبوه فعذّبهما الله بعذابين ، قال قتادة : والرس قرية بفلج اليمامة .

وقيل هم أصحاب الأخدود حفروا الأخاديد وحرّقوا فيها المؤمنين ، وقيل هم بقايا من قوم ثمود .

وفي الصحاح : والرس اسم بئر كانت لبقية من ثمود .

وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السّحق وكان نساؤهم كلّهم سحّاقات .

وروى من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : (إن من أشراط الساعة أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق) وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرنا ، ذكره الثعلبي وغيره .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية : قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ وقال تعالى في سورة ق ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ

لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمّروا وتبّروا وهو الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج ، لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضا .

وفي القاموس الإسلامي قال : الرس في اللغة أول مسّ الحمى ، والرس البئر المعقودة بالحجارة أو البئر القديمة ، وقيل : هي بئر معيّنة ينسب إليها أصحاب الرس . الذي ألقوا نبيّهم في هذه البئر .

وقد ورد اسم أصحاب الرس مرّتين في القرآن مقرونا باسم ثمود .

الرس : الاسم الذي أطلقه العرب على نهر أراكس الذي يعتبر اليوم حدّا يفصل بين إيران وجمهورية أرمينيا وأذربيجان السوفيتية ، وكان في الماضي يمثّل الحدّ الشمالي لولاية أذربيجان التاريخية ، ويلتقي نهر الرس قبيل مصبّه في بحر قزين بنهر الكرّ ويضمّان بينهما عددا من المواضع التاريخية .

وتذكر رواية اسطورية أن بلاد هذا الإقليم كانت عامرة في الماضي القديم ثم اندثرت وتحوّلت إلى أطلال ، وأن أهلها هم الذين ورد ذكرهم في القرآن ، وتذكر رواية أخرى أن أهل هذا الإقليم هم رهط جالوت ، الذي قتله داود النبي عليه السلام .

وفي الروض المعطار : الرس : نهر يأخذ من مدينة قاليقلا على فرسخين ثم يشقّ مغرّبا إلى ديبل ، وخلف الرس – فيما يقال – ثلاثمائة وستون مدينة خرابا ، وهو قول الله عزّ وجلّ ﴿ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ .

وقيل : الرس بناحية صيهد من ارض اليمن والله أعلم .

وقال ياقوت : الرس بفتح أوله والتشديد : البئر ، والرس : المعدن، والرس : إصلاح ما بين القوم .

قال أبو منصور : قال أبو إسحاق : الرس في القرآن بئر ، يروى أنهم قوم كذّبوا نبيهم ورسّوه في بئر أي دسّوه فيها ، قال : ويروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود ، وكل بئر رسّ .

وقال آخرون في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ ، قال : الرس وادي أذربيجان وحدّ أذربيجان ما وراء الرس ، ويقال : إنه كان بأرّان على الرس ألف مدينة فبعث الله إليهم نبيّا يقال له موسى ، وليس بموسى بن عمران ، فدعاهم إلى الله والإيمان به فكذّبوه وجحدوه وعصوا أمره فدعا عليهم فحوّل الله الحارث والحويرث من الطائف فأرسلهما عليهم ، فيقال أهل الرس تحت هذين الجبلين ، ومخرج الرس قاليقلاء ويمر بأرّان ثم يمر بروثان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، ويمر الكرّ والرس جميعا فيصبّان في بحر جرجان .

والرس هذا واد عجيب فيه من السمك أصناف كثيرة .

ونهر الرس يخرج إلى صحراء البلاجسان ، وهي إلى شاطئ البحر في الطول من برزند إلى برذعة ، ومنها ورثان والبليقان ، وفي هذه الصحراء خمسة آلاف قرية وأكثرها خراب إلا أن حيطانها وأبنيتها باقية لم تتغيّر لجودة التربة وصحتّها ، ويقال أن تلك القرى كانت لأصحاب الرس الذين ذكرهم الله في القرآن المجيد ويقال إنهم رهط جالوت قتله داود وسليمان عليهم السلام ، لمّا منعوا الخراج وقتل جالوت بأرمية .

قلت : كلّ ما قاله المفسّرون فيما تقدّم لا يختلف فيه بعضهم عن بعض فهي أقوال كثيرة غير أنها لم تتفق على تعريف واحد لأصحاب الرس ومساكنهم- أهي قرية في الفلج في اليمامة أو بلدة بأذربيجان أو بلدة بأنطاكية أو أنهم أصحاب الأخدود الذين جرى حدثهم في نجران ويبدوا ن قولهم : الرس قرية من قرى ثمود في الفلج في اليمامة أكثر وضوحاً وترجّحا في أقوالهم .

وقال القزويني في حديثه عن أذربيجان : وبها نهر الرّس وهو نهر عظيم شديد جري الماء . وفي أرضه حجارة كبيرة لا تجرى السفن فيه ، وله أجراف هائلة وحجارة كبيرة . وأرّان ناحية بين أذربيجان وأرمينية وبلاد أبخاز بها مدن كثيرة وقرى ، قصبتها جنزة وشروان وبيلقان .

وبها نهر الكرّ وهو ونهر بين أرمينية وأرّان ، يبدأ من بلاد خزران ثم يمرّ ببلاد الأبخاز من ناحية اللّان ، فيمرّ بمدينة تفليس يشقّها ثم يمرّ بجنزة وشمكور ويجرى على باب برذعة ، ثم يختلط بالرّس ، والرّس أصغر منه وينصبّ في بحر الخزر على ثلاثة فراسخ من برذعة .

وقال ابن الفقيه : وحدّ أذربيجان إلى الرّس والكرّ بأرمينية ، ومخرج الرّس من قاليقلا ، ويمرّ بأرّان فيصب فيه نهر أرّان ، ثم يمرّ بورثان ويمرّ بالمجمع فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، ويمرّان جميعاً فيصبّان في بحر جرجان . والرس واد عجيب ، وفيه أنواع من السمك .

وقال ابن خرداذبة : ومخرج الرّس نهر أرمينية من قاليقلا ويمرّ بأرّان ويصبّ فيه نهر أرّان ثم يمرّ بورثان حتى يبلغ المجمع- وهو مجمع البحرين الذي ذكره الله جلّ وتقدّس- فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، فإذا اجتمعا مرّا حتى يصبّا في بحر جرجان .

وفي نخبة الدهر قال : نهر الكرّ ونهر الرّس : وهما نهران غزيران جرّاران ، فأمّا نهر الرّس فسريع الجرية لا يحتمل السفينة .. ويقال : إن أصحاب الرّس المذكورين في القرآن العزيز كانوا سكان جوانب هذا النهر وبهم سمّي الرّس ، وأن بشواطئه آثاره ظاهرة إلى الآن ، ويخرج نهر الرّس من أقاصي بلاد الروم ، على ما ذكره المسعودي .

وقال غيره : يخرج من أرض طرابزندة هي اليوم طرابزون فإذا جاوزها مرّ بقاليقلا على فرسخين منها ثم يمرّ على أردبيل ، ثم على توران ثم يصبّ في نهر الكرّ عند برديج .

وأمّا نهر الكرّ : فهو نهر بأرض أرمينية ، وانبعاثه من بلاد اللان ، ويمرّ ببلاد الأبخاز حتى يأتي ثغر تفليس ويجرى في جبال الساورديّة ، ثم يخرج بأرض بردعة ، ويجري إلى برديج فيصب فيه نهر الرّس فيصيران نهراً واحداً ، والذي يختلط بنهر الرّس ليس هو كل نهر الكرّ بل فرع منه ، ثم يدخلان بحر الخزر فيصبّان فيه .

قلت : ومن أقوال هؤلاء المؤرخين يفهم أنهم يرجّحون أن أصحاب الرّس الذين أهلكهم الله لمّا كذّبوا نبيّهم الذي أرسله الله إليهم كانوا يعيشون على ضفاف نهر الرس الذي يدفع بعد التقائه بنهر الكرّ في بحر قزوين من الناحية الغربية . والله أعلم.

قلت : الرس من الأسماء المشتركة التي يسمّى بها أكثر من مكان واحد ، فمن هذه الأمكنة غير ما تقدّم عن موطن أهل الرس :

١- نهر الرس الذي يخرج من قاليقلاء ويمر بأرّان ثم بورثان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان فيصبّان جميعاً في بحر جرجان كما تقدّم .

٢- الرس : مدينة مشهورة في غربي مدن القصيم وهي في هذا العهد من المدن النامية عمرانيا واجتماعيا .

والرس قديماً من منازل بني أسد وهو معروف بهذا الاسم .

قال ياقوت : قال ابن دريد : الرس والرسيس بوزن تصغير الرس، واديان بنجد أو موضعان ، وبعض هذه أرادت ابنة مالك بن بدر ترثي أباها إذ قتله بنو عبس بن مالك بن زهير فقالت :

ولله عينا من رأى مثل مالك عقيرة يوم ، إن جرى فرسان
فليتهما لم يشربا قط شربة وليتهما لم يرسلا لرهان
أحلّ به أمس جنيدب نذره فأيّ قتيل كان في غطفان
إذا سجعت بالرقمتين حمامة أو الرس تبكي فارس الكتفان

وقال الزمخشري : قال عليّ : الرس من أودية القبليّة ، وقال غيره : الرس ماء لبني منقد بن أعيا من بني أسد ، قال زهير :

لمن طلل كالوحي عاف منازله عفى الرس منه فالرسيس فعاقله

وقال أيضا :

بكرنا بكورا واستحرن بسحرة فهنّ لوادي الرس كاليد للفم

وقال الأصمعي : الرس والرسيس (فالرسيس) لبني أعيا رهط حمّاس ، والرسيس لبني كاهل .

وقال ياقوت : الرسيس تصغير الرس : واد بنجد ، عن ابن دريد لبني كاهل من بني أسد بالقرب من الرس ، قال القتّال :

نظرت وقد جلى الدجى طاسم الصّوى بسلع وقرن الشمس لم يترجل

الى ظعن بين الرسيس فعاقل عوامد للشيقين أو بطن خنثل

وقال الحطيئة :

كأنى كسوت الرحل جونا رباعيا شنونا تربته الرسيس فعاقل

قلت : الرس والرسيس وعاقل أودية متقاربة ، كلها في غربى منطقة القصيم ما زالت معروفة ، وكثيرا ما يذكر المؤرخون ﴿ ٱلرَّسِّ ﴾ الذي في منطقة القصيم مع ذكر الرس الذي هو منازل أهل الرس الذين أهلكهم الله ، وللرس الواقع في بلاد القصيم في بلاد بنى أسد قديما شهرة في كتب المعاجم وفي أشعار المتقدمين .

الرقيم : براء مهملة مفتوحة وقاف مثناة مكسورة وياء مثناة ساكنة وآخره ميم : قيل : واد ، وقيل : قرية ، وقيل : لوح كتبت عليه أسماء أهل الكهف ، وقيل : غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾[1] .

قال ابن كثير : أما الكهف : فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ اليه هؤلاء الفتية المذكورون . وأما الرقيم : فقال العوفى عن ابن عباس هو واد قريب من أيلة وكذا قال عطية العوفى وقتادة . وقال الضحاك : أما الكهف فهو غار في الوادى والرقيم اسم الوادى ، قال مجاهد : الرقيم كان بنيانهم ، ويقول بعضهم هو الوادى الذي فيه كهفهم .

وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ قال يزعم كعب أنها القرية ، وقال ابن

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٩ .

جريج عن ابن عباس الرقيم الجبل الذي فيه الكهف . وقال ابن اسحاق : عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال اسم ذلك الجبل بنجلوس ، وقال ابن جريج أخبرني وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي أن اسم جبل الكهف بنجلوس ، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران . وروى عبد الرزاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : القرآن أعلمه الا حنانا والأواه والرقيم .

وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال ابن جرير : أما الكهف فانه كهف الجبل الذي أوى اليه القوم الذين قص الله شأنهم في هذه السورة .

وأما الرقيم : فان أهل التأويل اختلفوا في المعنى به ، فقال بعضهم هو اسم قرية ، أو واد على اختلاف بينهم في ذلك .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : يزعم كعب أن الرقيم القرية .
وروى بسنده عن عطية ، قال : الرقيم واد .
وبسنده عن قتادة ، قوله ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ كنا نحدث أن الرقيم : الوادى الذي فيه أصحاب الكهف .

وبسنده عن الضحاك ، يقول : أما الكهف فهو غار الوادى ، والرقيم اسم الوادى .

وقال آخرون : الرقيم الكتاب .
وروى بسنده عن ابن عباس ، قوله ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ يقول الكتاب .

وروى بسنده عن سعيد بن جبير قال : الرقيم : لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال آخرون : بل هو أسم جبل أصحاب الكهف .

وروى بسنده عن ابن جريج ، قال : قال ابن عباس : الرقيم الجبل الذي فيه الكهف .

قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب في الرقيم أن يكون معنيا به : لوح ، أو حجر ، أو شيء كتب فيه كتاب .

وقال القرطبي : اختلف الناس في الرقيم ، فقال ابن عباس : كل شيء في القرآن أعلمه الا أربع : غسلين ، وحنان ، والأواه ، والرقيم . وسئل مرة عن الرقيم فقال : زعم كعب أنها قرية خرجوا منها ، وقال مجاهد : الرقيم واد ، وقال السدى : الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف . وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غم الله علينا أمره ، ولم يشرح لنا قصته .

وقالت فرقة : الرقيم كتاب في لوح نحاس . وقال ابن عباس : في لوح من رصاص كتب فيه القوم الكفار الذين فر الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخا لهم ، ذكروا وقت فقدهم . وقال الفراء : الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا .

قال القرطبي : ما روى عن ابن عباس ليس متناقضا ، لآن القول الأول انما سمعه من كعب ، والقول الثاني يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده .

وقال الضحاك : الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفسا كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف ، فعلى هذا هم فتية آخرون ، جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف والله أعلم .

وقال ابن الأثير في تاريخه : كان أصحاب الكهف أيام ملك اسمه ديقوس ، ويقال : دقيانوس ، وكانوا بمدينة للروم اسمها أفسوس ، وملكهم يعبد الأصنام ، وكانوا فتية آمنوا بربهم كما ذكر الله تعالى - ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ ، والرقيم خبرهم كتب في لوح وجعل على باب الكهف الذي أووا اليه ، وقيل : كتبه بعض أهل زمانهم وجعله في البناء ، وفيه أسماؤهم وفي أيام من كانوا وسبب وصولهم الى الكهف .

وقال المسعودي : دقيوس ملك يعبد الأوثان ستين سنة ، وأمعن في قتل النصرانية وطلبهم - ، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف ، وقد اختلف الناس في أصحاب الكهف والرقيم .

فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم ، وزعموا أن الرقيم هو ما رقم من أسماء أهل الكهف في لوح من حجر على باب تلك المغارة ، ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف ، وقد ذكرنا كلا الموضعين بأرض الروم .

وقال ابن خرداذبة : أفسيبس في رستاق الأواسى ، وهى مدينة أصحاب الكهف . فأما أصحاب الرقيم فبخرمة رستاق بين عمورية ونيقية .

قلت : فيما قاله المفسرون والمؤرخون عن تحديد موقع الكهف والرقيم نرى اختلافا كثيرا بينهم ولم نر أن أحدا منهم بلغ تعريفا يتفق عليه المفسرون والمؤرخون . كما أنهم اختلفوا في أمر الرقيم : هل هو واد أو جبل أو قرية أو لوح من حجر أو من رصاص ، وهل أهل الرقيم هم أهل الكهف ، أم أنهم قوم آخرون ، غير أن أقوالهم لا تستبعد أن يكون الكهف والرقيم في بلاد الروم ، وقد صرح بذلك بعضهم وجزم به ، والله أعلم .

وتحدث ياقوت عن الرقيم حديثا شاملا لأقوال العلماء فقال : الرقيم ، بفتح أوله وكسر ثانية ، وهو الذي جاء ذكره في القرآن ، والرقيم والترقيم : تعجيم الكتاب ونقطة وتبيين حروفة ، وكتاب رقيم أي مرقوم ، فعيل بمعنى مفعول ، قال الشاعر :

سأرقم في الماء القراح اليكم ... على بعدكم أن كان للماء راقم

ويقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له الرقيم ، يزعم بعضهم أن به أهل الكهف ، والصحيح أنهم ببلاد الروم كما نذكره .

وهذا الرقيم أراد كثير بقوله ، وكان يزيد بن عبد الملك ينزله ، وقد ذكرته الشعراء :

أمير المؤمنين اليك نهوى ... على البخت الصلادم والعجوم
إذا اتخذت وجوه القوم نصبا ... أجيج الواهجات من السموم
فكم غادرن دونك من جهيض ... ومن نعل مطرحة جذيم
يزرن على تنائيه يزيدا ... بأكناف الموقر والرقيم
تهنئة الوفود إذا أتوه ... بنصر الله والملك العظيم

قال الفراء في قولة تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ قالوا : وهو لوح رصاص كتبت فيه انسابهم وأسماؤهم ودينهم ومما هربوا .

وقيل : الرقيم القرية التي كانوا فيها ، وقيل : انه اسم الجبل الذي فيه الكهف .

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال : ما أدرى ما الرقيم أكتاب أم بنيان ، وروى غيره عن ابن عباس : أصحاب

الرقيم سبعة ، وأسماؤهم : يمليخا ، مكسملينا ، مشلينا ، مرطونس ، دبريوس ، سرابيون ، أفستطيوس واسم كلبهم قطمير ، واسم ملكهم دقيانوس ، واسم مدينتهم التي خرجوا منها أفسنس ورستاقها الرس ، واسم الكهف الرقيم ، وكان فوقهم القبطى دون الكردى . وقد قيل غير ذلك في أسمائهم .

والكهف المذكور الذي فيه أصحاب الكهف بين عمورية ونيقية ، وبينه وبين طرسوس عشر أيام أو أحد عشر يوماً .

وكان الواثق قد وجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم للنظر الى أصحاب الكهف والرقيم ، قال : فوصلنا الى بلد الروم فاذا هو جبل صغير قدر أسفله أقل من ألف ذراع وله سرب من وجه الأرض فتدخل السرب فتمر في خسف من الأرض مقدار ثلاثمائه خطوة ، فيخرجك إلى رواق في الجبل على أساطين منقورة وفيه عدة أبيات ، منها : بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليها باب حجارة فيه الموتى ورجل موكل بهم يحفظهم معه خصيان ، وإذا هو يحيدنا عن أن نراهم ونفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة في بدنه ، يريد التمويه ليدوم كسبه ، فقلت : دعنى أنظر اليهم وأنت برىء ، فصعدت بمشقة عظيمة غليظة مع غلام من غلمانى فنظرت اليهم واذا هم في مسوح شعر تتفتت في اليد ، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامها غير أنني أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة ثيابه .

ثم أحضرنا الموكل بهم طعاما وسألنا أن نأكل منه ، فلما أخذناه منه ذقناه وقد أنكرت أنفسنا وتهوعنا وكأن الخبيث أراد قتلنا أو قتل بعضنا ليصح له ما كان يموه به عند الملك أنه فعل بنا هذا

الفعل أصحاب الرقيم فقلنا له : أنا ظننا أنهم أحياء يشبهون الموتى وليس هؤلاء كذلك ، فتركناه وانصرفنا .

قال غيرهم : أن بالبلقاء بأرض العرب من نواحى دمشق موضعا يزعمون أنه الكهف والرقيم قرب عمان ، وذكروا أن عمان هي مدينة دقيانوس ، وقيل : هي في أفسس من بلاد الروم قرب أبلستين ، قيل : هي مدينة دقيانوس .

وفي بر الأندلس موضع يقال به : جنان الورد به الكهف والرقيم ، وبه قوم موتى لا يبلون كما ذكر أهلها ، وقيل : أن طليطلة هي مدينة دقيانوس .

وذكر على بن يحيى أنه لما قفل من غزاته دخل ذلك الموضع فرآهم في مغارة يصعد اليها من الأرض بسلم مقدار ثلاثمائة ذراع ، قال : فرأيتهم ثلاثة عشر رجلا ومنهم غلام أمرد ، عليهم جباب صوف وأكسية صوف ، وعليهم خفاف ونعال ، فتناولت شعرات من جبهة أحدهم فمددتها فما منعنى منها شيء .

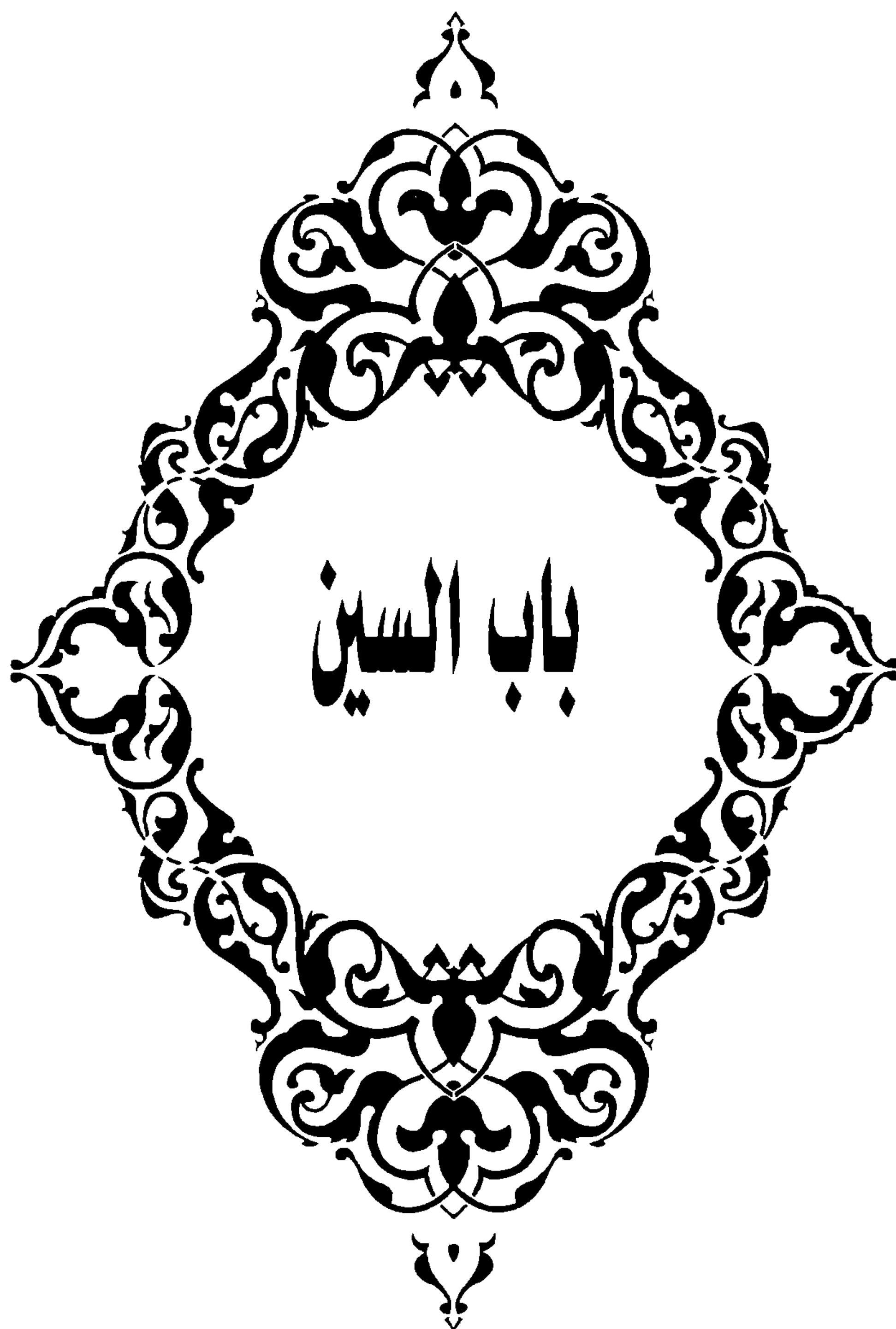
والصحيح أن أصحاب الكهف سبعة وانما الروم زادوا الباقى من عظماء أهل دينهم وعالجوا أجسادهم بالصبر وغيره على ما عرفوه .

وروى عن عبادة بن الصامت قال : بعثنى أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، سنة استخلف الى ملك الروم أدعوه الى الاسلام أو أوذنه بحرب ، قال : فسرت حتى دخلت بلد الروم فلما دنوت الى القسطنطينية لاح لنا جبل أحمر قيل أن فيه أصحاب الكهف والرقيم، ودفعنا فيه الى دير وسألنا أهل الدير عنهم فأوقفونا على سرب في الجبل ، فقلنا لهم : انا نريد أن ننظر اليهم فقالوا : أعطونا شيئا فوهبنا لهم دينارا فدخلوا ودخلنا معهم في ذلك السرب ، وكان عليه باب حديد ففتحوه فانتهينا الى بيت عظيم محفور في الجبل فيه ثلاثة

عشر رجلا مضطجعين على ظهورهم كأنهم رقود على كل واحد منهم جبة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم الى أرجلهم ، فلم ندر ما ثيابهم أمن صوف أو وبر أم غير ذلك ، الا أنها كانت أصلب من الديباج ، وإذا هي تقعقع من الصفاقة والجودة ، ورأينا على أكثرهم خفافا الى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال مخصوفة ، ولخفافهم ونعالهم من جودة الخزولين الجلود مالم ير مثله ، فكشفنا عن وجوههم رجلا بعد رجل فاذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء ، اذا الشيب قد وخط بعضهم وبعضهم شبان سود الشعور ، وبعضهم موفورة شعورهم ، وبعضهم مطمومة وهم على زي المسلمين ، فلما انتهينا الى آخرهم فاذا هو مضروب الوجه بالسيف وكأنه في ذلك اليوم ضرب ، فسألنا أولئك الذين أدخلونا اليهم عن حالهم فأخبرونا أنهم يدخلون اليهم في كل يوم عيد لهم ، يجتمع أهل تلك البلاد من سائر المدن والقرى الى باب هذا الكهف فنقيمهم أياما من غير أن يمسهم أحد فتنفض حباهم وأكسيتهم من التراب ونقلم أظافيرهم ونقصّ شواربهم ثم نضجعهم بعد ذلك على هيئتهم التي ترونها ، فسألناهم من هم وما أمرهم ، ومنذ كم هم بذلك المكان ، فذكروا أنهم يجدون في كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح ، عليه السلام ، بأربعمائة سنة وأنهم كانوا أنبياء بعثوا بعصر واحد وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئاً غير هذا .

قال : عبد الله الفقير اليه ياقوت : هذا ما نقلته من كتب الثقات ، والله أعلم بصحته .

قلت : وقد ذكر المؤرخون عن أهل الكهف والرقيم أخبارا غير ما تقدم يختلف بعضها عن بعض لا يتسع مقامنا هذا لذكر كل ما جاء فيها ، غير أننا لا نرى اتفاقا من المؤرخين على خبر واحد من هذه الأخبار ولا نرى أحدا منهم جزم بصحة ما ذكره من أخبارهم ، والله أعلم .



باب السين

السدّين : بسين مهملة مفتوحة ودال مهملة مشددة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وآخره نون موحدة ، مثنى سد : المقصود به سد يأجوج ومأجوج الذي ورد ذكره في القرآن الكريم .

قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾[1] .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ثم سار طرقا ومنازل ، وسلك سبلا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ .

والسد : الحاجز بين الشيئين ، وهما ههنا فيما ذكر جبلان سد ما بينهما ، فردم ذو القرنين حاجزا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم ، ليقطع مد غوائلهم وعبثهم عنهم .

وروى بسنده عن ابن عباس ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ قال : الجبلين الردم الذي بين يأجوج ومأجوج ، أمتين من وراء ردم ذى القرنين ، قال : الجبلان أرمينية وأذبيجان .

وبسنده عن قتادة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان .

وبسنده عن الضحاك يقول في قوله ﴿ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ يعنى بين جبلين .

قال ابن كثير : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ أى سلك طريقا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين ، وهما جبلان

---

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٩٣ .

متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم كما ثبت في الصحيحين أن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول ابعث بعث النار فيقول وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال أن فيكم أمتين ما كانتا في شيء الاكثرتاه يأجوج ومأجوج .

وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ ﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذا به رؤس الجبلين طولا وعرضا ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿ قَالَ ٱنفُخُواْۖ ﴾ أي أجّج عليه النار . حتى صار كله نارا : ﴿ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى هو النحاس زاد بعضهم المذاب ويستشهدون بقوله : ﴿ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ ﴾ ولهذا يشبه بالبرد المحبر .

قال : قوله ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾ يقول تعالى مخبرا عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السدّ ولا قدروا على نقبة من أسفلة .

قلت : يبدوا لى أن هذا كان في الوقت الذي سبق بعث النبي محمد ﷺ ، وقد قال ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن الزهرى عن عروة عن زينب بنت أبى سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبى سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش عن النبي ﷺ – قال سفيان أربع نسوة – قالت استيقظ النبي ﷺ من نومة وهو

محمر وجهة وهو يقول (لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا) وحلق قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال (نعم إذا كثر الخبث) هذا حديث صحيح اتفق البخارى ومسلم على اخراجه من حديث الزهرى ولكن سقط في رواية البخاري ذكر أم حبيبة وأثبتها مسلم ، وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الاسناد : منها رواية الزهرى عن عروة وهما تابعيان ، ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده كلهن يروى بعضهن عن بعض ، ثم كل منهن صحابية ثم ثنتان ربيبتان ، وثنتان زوجتان رضى الله عنهن .

وقد روى نحو هذا عن أبى هريرة أيضاً فقال البزار حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا مؤمل بن اسماعيل حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبي ﷺ أنه قال (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد التسعين) ، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهب به .

قلت : وقد أشار النبي ﷺ بعقد ابهامة والتي تليها الى ضيق ما فتح من سد يأجوج ومأجوج الذي أخبر عنه- حين قال ويل للعرب من شر قد اقترب- ويبدو أن هذا أشارة الى ضيق ما فتح منه بالنسبة الى ما يفتح منه حين (يجيء وعد الله فيجعله دكاء) أى مساويا للأرض .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان ، وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس : ﴿ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ ﴾ الجبلين أرمينية وأذربيجان .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ ﴾ يعنى البناء ، قال أبو عبيدة هما جانبا الجبل ، وسميا بذلك لتصادفهما أى لتلاقيهما ، ويقال : للبناء المرتفع : صدف تشبيه بجانب الجبل .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱنفُخُواْ ﴾ أي على زبر الحديد بالأكيار ، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القدر ، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة ، فاذا التأم اشتد ولصق البعض بالبعض استأنف وضع طاقة أخرى ، إلى أن استوى العمل فصار جبلا صلدا ، قال قتادة : هو كالبرد المحبر ، طريقة سوداء ، وطريقة حمراء .

ويروى أن رسول الله ﷺ جاءه رجل فقال : يالرسول الله انى رأيت سدَّ يأجوج وماجوج قال (كيف رأيته) قال : رأيته كالبرد المحبر طريقة صفراء وطريقة حمراء وطريقة سوداء ، فقال رسول الله ﷺ : (قد رأيته) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أى ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه ، لأنه أملس مستو مع الجبل ، والجبل عال لا يرام .

وارتفاع السد مئتا ذراع وخمسون دراعا ، وروى : في طوله ما بين طرفى الجبلين مائة فرسخ : وفي عرضه خمسون فرسخا .

وقال ياقوت : سد يأجوج ومأجوج : قيل : أن يأجوج ومأجوج أبناء يافث بن نوح عليه السلام .

وروى عن الشعبى أنه قال : سار ذو القرنين الى ناحية يأجوج ومأجوج فنظر إلى أمة صهب الشعور زرق العيون فاجتمع اليه منهم خلق كثير ، وقالوا له : أيها الملك المظفر أن خلف هذا الجبل أمما لا يحصيهم الا الله وقد خربوا علينا بلادنا يأكلون ثمارنا وزروعنا ، قال : وما صفتهم ؟ قالوا : قصار صلع عراض الوجوه ... فهل نجعل لك خرجا على أن تسد عليهم وتكفينا أمرهم ؟ ، قال : ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة تبذلون لى من الأموال في سدة ما يمكن كل واحد منكم ، ففعلوا ثم أمر بالحديد فأذيب وضرب منه لبنا عظاما وأذاب النحاس ثم جعل منه ملاطا لذلك اللبن وبنى به الفج وسواه مع قلتى الجبل فصار شبيها بالمصمت .

وفي بعض الأخبار قال : السد طريقة حمراء وطريقة سوداء من حديد ونحاس ويأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة ، منهم الترك قبيلة واحدة كانت خارج السد لما ردمه ذو القرنين فسلموا أن يكونوا خلفه .

وقد أطال ياقوت في حديثة عن يأجوج ومأجوج وقال عن صفاتهم الخلقية والاجتماعية أشياء لا تنطبق على الانسان ، ولا يتسع مقامنا هذا الذكر شيء منها ، وقد أسهب بعض المفسرين وبعض المؤرخين في الحديث عن يأجوج ومأجوج ، وأطالوا في وصفهم . ووصف السد الذي أقامة ذو القرنين في بلادهم ، بأقوال بعضها لا يختلف عن الآخر اختلافا كبيرا ، بل أن بعضها يكمل بعضا ، وقد أكتفيت بما قدمته في هذا الحديث تلافيا للاطالة .

وقد ألف الشيخ عبد الرحمن بن سعدى رسالة مفيدة في هذا الموضوع قال فيها : والمشهور أنهم في شمال آسيا بدليل ما هو معروف عند المؤرخين أن ذى القرنين ترك منهم طائفة خلف السد من

جهة الناس وهم قليلون فقيل لهم الترك ومعلوم أن بلاد الترك تجاورها والمقصود أن يأجوج ومأجوج في ذلك الوقت لا نفوذ لهم على الناس الا من تلك الثغرة التي بين جبال شاهقة فسدها ذو القرنين فلم يتمكنوا من صعود السد ولا الجبال التي عن يمينه ويساره ومن باب أولى وأحرى ولا من البحار لفقد الأسباب التي تمكنهم من العبور على ذلك في تلك الأوقات حتى إذا جاء وعد الله تعالى هيأ الأسباب المتنوعة لخروجهم فابتدأ الأمر من وقت النبي ﷺ ولذلك ثبت عنه في الصحيح أنه قال : ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد الابهام والتي تليها وسواء كان المراد أنه انفتح من ردم ذى القرنين الذي باشر بناءه بين الصدفين وهما الجبلان أو أنه ابتدأ من ذلك الوقت بالانفتاح ولم يزل ينفتح شيئاً فشيئا حتى انفتح فتحا ظهورا به على الناس ولا يشترط أن يشاهد الناس ذلك الفتح من الردم فان الله يقول :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ .

ســـواع : بسين مهملة مضمومة بعدها واو ثم ألف وآخره عين مهملة : صنم لهذيل .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾[1] .

قال ابن جرير : كان هؤلاء نفرا من بنى آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

---

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

وروى بسنده عن محمد بن قيس ﴿ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ يقال : كانوا قوما صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم ، فلما ماتوا ، وجاء آخرون دب اليهم ابليس ، فقال : انما كانوا يعبدونهم . وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

وقال آخرون : هذه أسماء أصنام قوم نوح .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان ود لهذا الحى من كلب بدومة الجندل ، وكانت سواع لهذيل برهاط ، وكان يغوث لبنى غطيف من مراد بالجوف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذى كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

وروى بسنده أيضاً عن قتادة ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كانت آلهة يعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك ، قال : فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع لهذيل ، وكان يغوث لبنى غطيف من مراد بالجوف ، وكان يعوق لهمدان ، وكان نسر لذى الكلاع من حمير .

وروى بسنده عن ابن عباس قوله ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح .

وبسنده عن الضحاك في قوله ﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : هذه أصنام وكانت تعبد في زمان نوح .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ قال ابن عباس وغيره : هي أصنام وصور ، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور . وقيل : انها للعرب لم يعبدها غيرهم . وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم ، فلذلك خصوها بالذكر بعد قوله تعالى : ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ويكون معنى الكلام كما قال قوم نوح لأتباعهم : ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ قالت العرب لأولادهم وقومهم : ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ ، ثم عاد بالذكر بعد ذلك الى قوم نوح عليه السلام . وعلى القول الأول ، الكلام كله منسوق في قوم نوح . وقال عروة بن الزبير وغيره : اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر . وكان ود أكبرهم وأبرهم به . قال محمد بن كعب : كان لآدم عليه السلام خمس بنين : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكانوا عبادا فمات واحد منهم فحزنوا عليه ، فقال الشيطان : أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم اليه ذكرتموه . قالوا : أفعل . فصوره في المسجد من صفر ورصاص . ثم مات آخر ، فصوره حتى ماتوا كلهم فصورهم . وتنقصت الأشياء كما تتنقص اليوم الى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين . فقال لهم الشيطان : ما لكم لا تعبدون شيئا ؟ قالوا : ما نعبد ؟ قال : آلهتكم وآلهة آبائكم ، ألا ترون في مصلاكم . فعبدوها من دون الله ، حتى بعث الله نوحا فقالوا : ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ﴾ الآية وقال محمد بن كعب أيضا ومحمد بن قيس : بل كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم تبع يقتدون بهم ، فلما ماتوا زين لهم ابليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم ،

وليتسلوا بالنظر اليها ، فصورهم . فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا : ليت شعرنا ! هذا الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها !؟ فجاءهم الشيطان فقال : كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر . فعبدوها فابتدىء عبادة الأوثان من ذلك الوقت .

وقال القرطبي : وبهذا المعنى فسر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة تسمى مارية ، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : (أن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبرة مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

وقال القرطبي : عن الماوردى : فأما ود فهو صنم معبود ، سمى ودا لودهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل ، في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل . وفيه يقوم شاعرهم :

حـيال ود فانـا لا يحـل لـنا لهو النساء وان الدين قد عزما

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، في قولهم .

وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجوف من سبأ ، في قول قتادة . وقال المهدوى : لمراد ثم لغطفان . الثعلبى : وأخذت أعلى وأنعم وهما من طىء وأهل جرش من مذحج يغوث فذهبوا به الى مراد فعبدوه زمانا . ثم أن بنى ناجيه أرادوا نزعة من أعلى وأنعم . ففروا به الى الحصن أخى بنى الحارث بن كعب من خزاعة . وقال أبو عثمان النهدى : رأيت يغوث وكان من رصاص وكانوا يحملونه على جمل أحرد ، ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك ، فاذا برك نزلوا وقالوا : قد رضى المنزل ، فيضربون عليه بناء وينزلون حوله .

وأما يعوق فكان لهمدان ببلخع ، في قول عكرمة وقتادة وعطاء . ذكره الماوردى . وقال الثعلبي : وأما يعوق فكان لكهلان من سبأ ، ثم توارثه بنوه ، الأكبر فالأكبر حتى صار الى همدان ، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني :

يريش الله في الدنيا ويبرى ... ولا يبرى يعوق ولا يريش

وأما نسر فكان لذى الكلاع من حمير ، في قول قتادة ونحوه عن مقاتل . وقال الواقدى : كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير ، فالله أعلم .

قال ابن كثير : قال البخاري : حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام عن ابن جريج ، وقال عطاء عن ابن عباس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى كلاع وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاب وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت . وكذا روى عن عكرمة والضحاك وقتادة وابن اسحاق نحو هذا ، وقال عن ابن أبى طلحة عن ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران عن سفيان بن موسى عن محمد بن قيس ﴿ وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا

ذكرناهم ، فصورهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم ابليس ، فقال : انما كان يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

وقال الشوكاني : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أى لا تتركوا عبادة آلهتكم ، وهي الأصنام والصور التي كانت لهم ، ثم عبدتها العرب من بعدهم ، وبهذا قال الجمهور ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ أى لا تتركوا عبادة هذه . قال محمد بن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة ، فقال بهم ابليس : لو صورت مصورهم كان أنشط لكم وأسوق الى العبادة ، ففعلوا ، ثم نشأ قوم من يعدهم فقال لهم ابليس : ان الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتدأ عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم . وقال عروة بن الزبير وغيره : أن هذه كانت أسماء لأولاد آدم ، وكان ود أكبرهم . قال الماوردى : فأما ود فهو أول صنم معبود ، سمى ودا لودهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حياك ود فان لا يحل لنا لهو النساء وأن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر . وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة . وقال المهدوى : لمراد ثم لغطفان ، وأما يعوق فكان لهمدان في قول قتادة وعكرمة وعطاء . وقال الثعلبي : كان لكهلان بن سبأ ، ثم توارثوه حتى صار في همدان وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني .

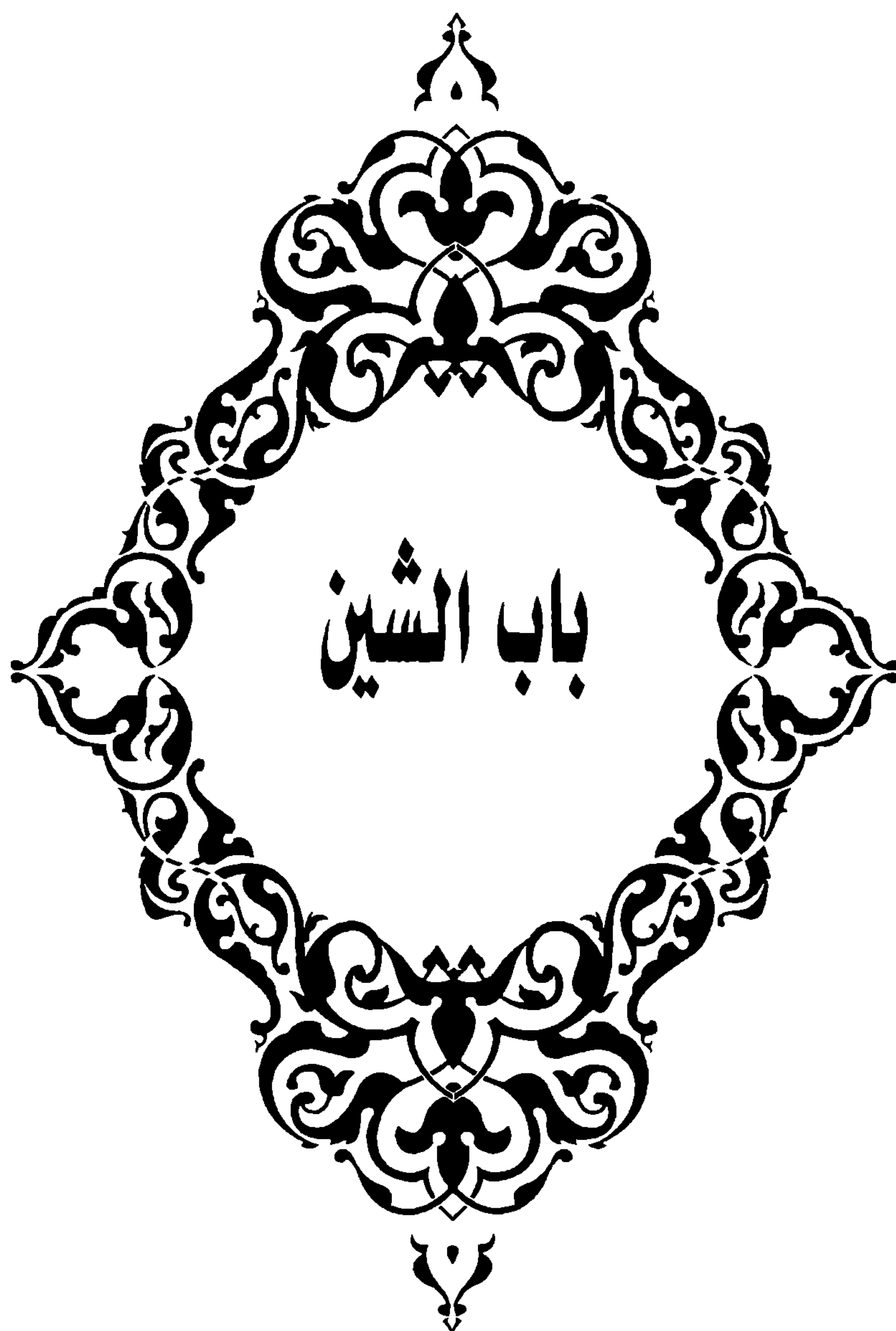
يريش الله في الدنيا ويبرى ولا يبرى يعوق ولا يريش

وأما نسر فكان لذى الكلاع من حمير في قول قتادة ومقاتل .

قلت : هذا ما قاله المفسرون في تفسير الآية الكريمة التي اشتملت على خمسة أسماء من أسماء الأصنام القديمة التي كانت تعبد في الجاهلية في أحياء العرب .

وقال ياقوت : سواع : اسم صنم ، قال أبو المنذر : وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس وسموها بأسمائها على ما بقى منهم من ذكرنا حين فارقوا دين اسماعيل هذيل بن مدركة اتخذ سواعا فكان لهم برهاط من أرض ينبع ، وينبع: عرض من أعراض المدينة ، وكانت سدنته بنى لحيان ، قال : ولم أسمع لهذيل في أشعارها له بذكر الا شعر رجل من اليمن ، ولم يذكره ابن الكلبي . ولما أخذ عمرو بن لحى أصنام قوم نوح من ساحل جدة ، كما ذكرناه في ود ، ودعا العرب الى عبادتها أجابته مضر بن نزار فدفع الى رجل من هذيل يقال له الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر سواعا فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة بعيدة من مضر ، فقال رجل من العرب :

تراهم حول قيلهم عكوفا كما عكفت هذيل على سواع
يظل جنابه صرعى لديه عشائر من ذخائر كل راع



باب الشين

الشجرة : بشين معجمه مفتوحة وجيم معجمة مفتوحة وراء مهملة مفتوحة وآخره هاء ، واحدة الشجر : كانت سمرة بأرض الحديبية بايع أصحاب رسول ﷺ تحتها النبي في غزوة الحديبية .

قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وكان عددهم ألفا وأربعمائة ، والشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية ، قال البخاري : حدثنا محمود حدثنا عبيد الله عن اسرائيل عن طارق أن عبد الرحمن رضي الله عنه قال انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان .

وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية - : يقول تعالى ذكره : لقد رضى الله يامحمد عن المؤمنين ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ يعنى بيعة أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب وعلى أن لا يفروا ولا يولوهم الدبر تحت الشجرة ، وكانت بيعتهم اياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة ، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان ، وكان الذين بايعوه هذه البيعة

---

(١) سورة الفتح الآية رقم : ١٨ .

فيما ذكر في قول بعضهم ألفا وأربعمائة ، وفي قول بعضهم ألفا وخمسمائة ، وفي قول بعضهم ألفا وثلاثمائة .

قال ياقوت : الحديبية : بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحده مكسورة وياء : اختلفوا فيها فمنهم من شددها ومنهم من خففها ، فروى عن الشافعي رضي الله عنه ، أنه قال : الصواب تشديد الحديبية وتخفيف الجعرانة ، وأخطأ من نص على تخفيفها .

وقيل : كل الصواب أهل المدينة يثقلونها وأهل العراق يخففونها ، وهى قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها .

وقال الخطابي في أماليه : سميت الحديبية بشجرة حدباء وكانت في ذلك الموضوع . وبين الحديبية ومكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، وفي الحديث : أنها بئر ، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم ، وهو أبعد الحل من البيت ، وليس هو في طول الحرم ولا في عرضه بل هو في مثل زاوية الحرم ، فلذلك صار بينها وبين المسجد أكثر من يوم ، وعند مالك بن أنس أنها جميعها في الحرم .

وقال ابن اسحاق : خرج رسول الله ﷺ في ذى القعدة معتمرا لا يريد حربا . قال ابن هشام : واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ... وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم للعمرة ليأمن الناس من حربة ، وليعلم الناس أنه خرج زائرا لهذا البيت ومعظما ، لا يريد قتالا ، وقال : وكان جابر بن عبد الله ، فيما بلغنى يقول : كنا أصحاب الحريبية أربع عشرة مائة .

قال الزهرى : وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن شيبان الكعبى قال ابن هشام : ويقال : بسر فقال : يارسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم ، قد قدموها الى كراع الغميم .

وسلك رسول الله ﷺ في طريق تخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة .

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه انما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما .

قال ابن اسحاق : وخرج عثمان الى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ اليهم : أن شئت أن تطوف بالبيت فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل .

قال ابن اسحاق : حدثنى عبد الله بن ابى بكر : أن رسول الله ﷺ ، قال حين بلّغ أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا رسول الله ﷺ الناس الى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت

الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول : أن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر ، فبايع رسول الله ﷺ الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها الا الجد بن قيس أخو بنى سلمة ، فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر اليه لا صقا بأبط ناقته ، قد ضبأ اليها يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله ﷺ ان الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

وروى ابن هشام بسنده عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان ، فضرب باحدى يدية على الأخرى .

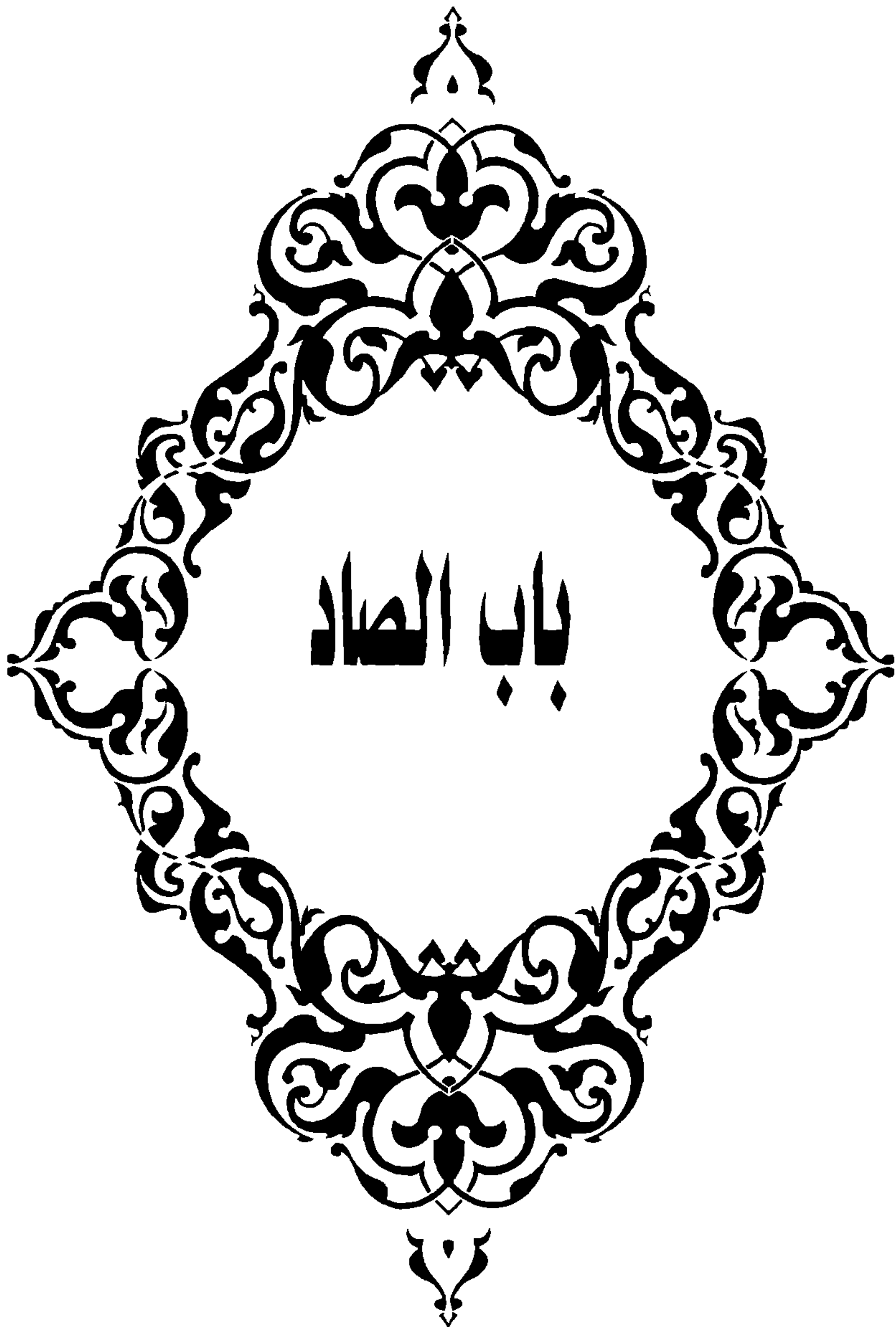
وروى الفاكهي بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، يقول : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، وقال لنا رسول الله ﷺ أنتم اليوم خير من أهل الأرض .

وروى بسنده عن ابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ قال سمرة كانت بالحديبية : فكانت هذه الشجرة يعرف موضعها ، ويؤتى هذا المسجد حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فبلغه أن الناس يأتونها ويصلون عندها فيما هنالك ويعظمونها ، فرأى أن ذلك من فعلهم حدث .

وروى بسنده عن ابن عون ، قال : بلغ عمر رضي الله عنه أن الشجرة التي بويع عندها تؤتي ، فأوعد في ذلك وأمر بها وقطعت .

وقال الفاسى : الحديبية : الموضع الذي نزل عنده رسول الله ﷺ لما قدم من المدينة محرما ، يريد دخول مكة ، فعاقه المشركون عن ذلك ، يقال : له للموضع الذي فيه البئر المعروف ببئر شميسى بطريقة جدة والله أعلم .

قلت : هذا خلاصة لبعض ما ذكره العلماء عن الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ أصحابه تحتها ، وقد استوفيت الحديث عن أحداث غزوة الحديبية في كتابي (معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري) في رسم (الحديبية) وقد أصبح موضع هذه الشجرة غير معروف ، أما قرية الحديبية فانها قد أصبحت في هذا العهد تسمى الشميسى ، وهي معروفة على الطريق من مكة إلى جدة .


باب الصاد

الصخرة : بصاد مهملة مفتوحة وخاء معجمة ساكنة وراء مهملة مفتوحة وآخره هاء : صخرة موسى عليه السلام وفتاه .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾(١) .

وروى البخاري بسنده عن أبى بن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول بينما موسى في ملأ من بنى اسرائيل جاءه رجل فقال هل تعلم أحدا أعلم منك قال موسى لا فأوحى الله الى موسى بلى عبدنا خضر فسأل موسى السبيل اليه فجعل الله له الحوت آية وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه وكان يتبع أثر الحوت في البحر فقال لموسى فتاه أرأيت أذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره .

وروى ابن جرير بسنده عن محمد بن معقل ، يحدث عن أبيه ، أن الصخرة التي أوى اليها موسى هي الصخرة التي دون نهر الذئب على الطريق .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : جعل الحوت لا يمس شيئا من البحر الا يبس حتى يكون صخرة ، فجعل نبي الله ﷺ يعجب من ذلك .

وقال ياقوت : صخرة موسى عليه السلام التي جاء ذكرها في الكتاب العزيز في بلد شروان ، قرب الدربند .

---

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٦٣ .

وقال في رسم دربند : هو باب الأبواب ، وقال في رسم باب الأبواب : ويقال له الباب غير مضاف ، والباب ، والأبواب وهو الدربند ، دربند شروان ، وشروان مدينة من نواحي باب الأبواب الذي تسميه العرب الدربند ، بناها أنو شروان فسميت باسمه ثم خففت باسقاط شطر اسمه ، وبين شروان وباب الأبواب مائة فرسخ ، خرج منها جماعة من العلماء ، ويقول بالقرب منها صخرة موسى عليه السلام التي نسى عندها الحوت في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ ، قالوا : فالصخرة صخرة شروان والبحر بحر جيلان والقرية باجروان ، حتى لقية غلام فقتله ، قالوا في قرية جيزان، وكل هذه من نواحي أرمينية قرب الدربند .

وقيل : شروان ولاية قصبتها شماخى وهي قرب بحر الخزر ، نسب المحدثون اليها قوما من الرواة .

وباب الأبواب على بحر طبرستان ، وهو بحر الخزر ، وهي مدينة تكون أكبر من أدربيل نحو ميلين في ميلين ، ولهم زروع كثيرة ، وعلى المدينة سور من الحجارة ممتد من الجبل طولا في غير ذى عرض ، لا مسلك على جبلها الى بلاد المسلمين لدروس الطرق وصعوبة المسالك من بلاد الكفر الى بلاد المسلمين .

وأما حديثها أيام الفتوح فان سلمان بن ربيعة الباهلي قد غزاها في أيام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وتجاوز الحصنين وبلنجر ، ولقية خاقان ملك الخزر في جيشه خلف نهر بلنجر فاستشهد سلمان بن ربيعة وأصحابه ، وكانوا أربعة آلاف ، فقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يذكر سلمان بن ربيعة وقتيبة بن مسلم الباهليين يفتخر بهما :

وان لنا قبرين : قبر بلنجر ... وقبر بصين استان يالك من قبر

فهذا الذي بالصين عست فتوحه ... وهذا الذي يسقى به سبل القطر

يريد أن الترك أو الخزر لما قتلوا سلمان بن ربيعة وأصحابه كانوا يبصرون في كل ليلة نورا عظيماً على موضع مصارعهم ، فيقال انهم دفنوهم وأخذوا سلمان بن ربيعة وجعلوه في تابوت وسيروه الى بيت عبادتهم ، فاذا أجدبوا وأقحطوا أخرجوا التابوت وكشفوا عنه فيسقون .

ووجدت في موضع آخر أن أبا موسى الأشعرى لما فرغ من غزو أصبهان في أيام عمر بن الخطاب في سنة (١٩) أنفذ سراقة بن عمرو وكان يدعى ذا النون إلى الباب ، وجعل في مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة ، وكان أيضاً يدعى ذا النون ، وسار في عسكره الى الباب ففتحه بعد حروب جرت ، فقال سراقة بن عمرو في ذلك :

ومن يك سائلا عنى فانّى ... بأرض لا يواتيها القرار
بباب الترك ذى الأبواب دار ... لها في كل ناحية مغار
نذود جموعهم عما حوينا ... ونقتلهم إذا باح السرار
سددنا كل فرج كان فيها ... مكابرة إذا سطع الغبار
وألحمنا الجبال جبال فيج ... وجاور دورهم منا ديار
وبادرنا العدو بكل فج ... نناهبهم وقد طار الشرار
على خيل تعادى كل يوم ... عتادا ليس يتبعها المهار

وقد ذكر ياقوت عددا من العلماء ينسبون الى مدينة الأبواب وفي رسم (مجمع البحرين) في هذا الكتاب مزيد من الايضاح عن الصخرة .

الصّفا : المقصود به الصفا الذي هو شعيرة من شعائر الحج في مكة .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ ﴾ [1].

قال ابن جرير : الصفا جمع صفاة ، وهي الصخرة الملساء ، ومنه قول الطرماح :

ابى لى ذو القوى والطول ألا   يؤبّس حافر أبدا صفاتى

ويعنى بالمرو : الصخر الصغار ، ومن ذلك قول أبى ذؤيب الهذلي :

حتى كأنى للحوادث مروة   بصفا المشرق كل يوم تقرع

ويقال : المشقّر :

وانما عنى الله تعالى ذكره بقولة : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ ﴾ ، في هذا الموضع الجبلين المسميين بهذين الاسمين اللذين في حرمه ، دون سائر الصفا والمروة ، ولذلك أدخل فيهما (الألف واللام) ، ليعلم عبادة أنه عنى بذلك الجبلين المعروفين بهذين الاسمين ، دون سائر الأصفاء والمرو .

وأما قوله : ﴿ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ ﴾ ، فانه يعنى : من معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعبادة معلما ومشعرا يعبدونه عندها ، أما بالدعاء ، واما بالذكر واما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها . ومنه قول الكميت :

نقتلهم جيلاً فجيلاً ، تراهم   شعائر قربان بهم يتقرب

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ١٥٨ .

قال القرطبي : أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس ، وهو هنا جبل بمكة معروف وكذلك المروة جبل أيضاً ، ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف .

وروى عن عائشة أنها قالت : (وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما) ، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : أن هذا العلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أن الناس الا من ذكرت عائشة ممن كان يهلّ بمناة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة ، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا : يارسول الله ، كنا نطوف بالصفا والمروة ، وأن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا ، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية : قال أبو بكر : فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما : في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة ، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الاسلام ، من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت .

وقال في شفاء الغرام : الصفا الذي هو مبدأ السعى ، وهو في أصل جبل أبى قبيس ، على ما ذكره غير واحد من العلماء ، ومنهم أبو عبيد البكر والنووى ، وهو موضع مرتفع من جبل له درج ، وفيه ثلاثة عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، والدرج الذي يصعد من الأولى الى الثانية منهن بثلاث درجات في وسطها ، وتحت العقود درجة وتحتها فرشة كبيرة ، ويليها ثلاث درجات ، ثم فرشة مثل الفرشة السابقة تتصل بالأرض ، وربما أهيل التراب عليها فغيب .

قال ياقوت : الصفا : بالفتح ، والقصر ، والصفا والصفوان والصفواء كله العريض من الحجارة الملس ، جمع صفاة ، ويكتب بالألف ، ويثنى صفوان ، ومنه الصفا والمروة : وهما جبلان بين بطحاء مكة والمسجد ، أما الصفا فمكان مرتفع من جبل أبى قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادى الذي هو طريق وسوق ، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الأسود والمشعر الحرام بين الصفا والمروة قال نصيب :

وبين الصفا والمروتين ذكرتكم بمختلف من بين ساع وموجف
وعند طوافى قد ذكرتك ذكره هي الموت بل كادت على الموت تضعف

وقال أيضاً :

طلعن علينا بين مروة والصفا يمرن على البطحاء سور السحائب
وكدن ، لعمر الله ، يحدثن فتنه لمختشع من خشية الله تائب

قلت : وبما أن الصفا له شهرة اسلامية وتاريخية ، وأن علماء المسلمين قد أفاضوا في الحديث عنه تحديد الموضوعه ووصفا ، وعن كل ما يتصل به من أحكام الحج فاننى أكتفى بهذه القدر في الحديث عنه .

صياصي : بصاد مهملة بعدها ياء مثناة بعد الياء ألف بعدها صاد ثانية مهملة وآخرة ياء : حصون يهود بنى قريظة في المدينة .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٦٣ .

قال ابن كثير : قوله تعالى ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى من حصونهم ، كذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وغيرهم من السلف ، ومنه سمى صياصى البقر ، وهى قرونها لأنها أعلى شيء فيها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ ، أي جعلها لكم من قتلكم لهم .

وفي لسان العرب : الصياص القرى ، وقيل : الحصون ، وفي التنزيل : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾، قال الفراء : من حصونهم . وقال الزجاج : الصياص كل ما يمتنع به، وهي الحصون ، وقيل : القصور لأنه يتحصن بها .

وقال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ ، يقول تعالى ذكره : وأنزل الله الذين أعانوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ وأصحابه ، وذلك هو مظاهرتهم اياهم وعنى بذلك بنى قريظة ، وهم الذين ظاهروا الأحزاب على رسول الله ، وقوله ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى من حصونهم وبسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ قال : الصياصى : حصونهم التي ظنوا أنها ما نعتهم من الله تبارك وتعالى وأصل الصياصى : جمع صيصة ، وعنى بها ههنا : حصونهم ، والعرب تقول لطرف الجبل : صيصة ، ويقال لأصل الشيء : صيصة ، ويقال لشوك الحاكة : صيص .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ يقول تعالى : وألقى في قلوبهم الخوف منكم ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ يقول : تقتلون

منهم جماعة ، وهم الذين قتل رسول الله ﷺ حين ظهر عليهم ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ يقول : وتأسرون منهم جماعة ، وهم نساؤهم وذراريهم الذين سبوا .

قال ابن كثير : لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة ، نقض بنوا قريظة ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العرب ، وكان ذلك في سفارة حيي بن أخطب النضرى لعنه الله ، دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال ، ويحك قد جئتك بعز الدهر ، فقال له كعب : بل والله أتيتنى بذل الدهر ، ويحك ياحيى انك مشئوم ، فدعنا منك فلم يزل يفتل في الذروة والغارب حتى أجابة ، واشترط له حيى أن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون أسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً فلما أيده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ورجع رسول الله ﷺ الى المدينة مؤيدا منصورا ، ووضع الناس السلاح فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنهما اذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يارسول الله ؟ قال ﷺ (نعم) لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم ، ثم قال : أن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض الى بنى قريضة .

وفي رواية فقال له : عذيرك من مقاتل أوضعتم السلاح ؟ قال (نعم) قال لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ، أنهض الى هؤلاء ، قال ﷺ (أين؟) قال : بنى قريظة فان الله تعالى أمرنى أن أزلزل عليهم ،

فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير الى بنى قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال ﷺ (لا يصلين أحد منكم العصر الا في بنى قريظة) فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ الا تعجيل السير وقال آخرون : لا نصليها الا في بنى قريظة فلم يعنت واحدا من الفريقين وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه ، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسب اليهم في ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبى بن سلول في مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعدا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى في أولئك ، ولم يعلموا أن سعدا رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق فكواه رسول الله ﷺ في أكحلهوأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب ، وقال سعد رضي الله عنه فيما دعابه ، اللهم أن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها ، وأن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمة باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار وقد وطئوا له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : ياسعد انهم مواليك فأحسن فيهم ويرفقونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال رضى الله عنه : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم .

فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ (قوموا إلى سيدكم) فقام اليه المسلمون فأنزلوه اعظاما واكراما واحتراما له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم ، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ (ان هؤلاء -وأشار اليهم- قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت) .

فقال رضى الله عنه : وحكمى نافذ عليهم ؟ قال ﷺ (نعم) . قال ، وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال (نعم) . قال : وعلى من ههنا وأشار الى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ ، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ اجلالا واكراما واعظاما قال له رسول الله ﷺ (نعم) فقال رضى الله عنه : انى أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وأموالهم ، فقال له رسول الله ﷺ (لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة) .

ثم أمر رسول الله بالأخاديد فخدت في الأرض ، وجيىء بهم مكتفين فضربت أعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة الى الثمانمائة ، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم . هـ

وكانت منازل بنى قريظة بالعليّة في أعلى وادى مهزور أحد الروافد الكبيرة لوادى بطحان في الجنوب الشرقى من المدينة وقد احتفروا فيه الآبار وغرسوا الأموال وابتنوا الآطام والمنازل .

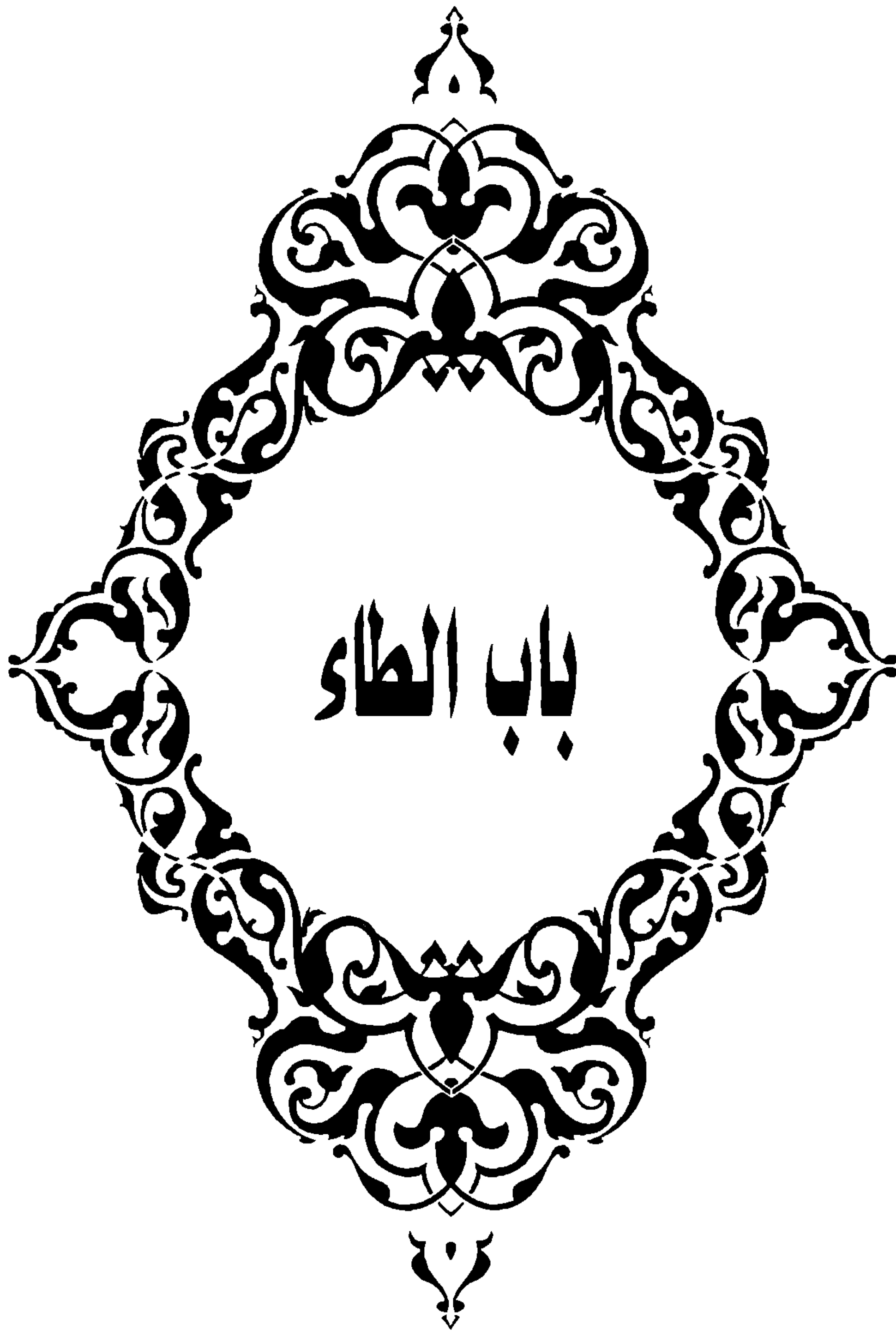
وقسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، سهمان للفرس وسهم للفارس ، وأسهم للراجل سهما واحدا ، وأصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو من خناقة فكانت عنده حتى توفى عنها وهي في ملكة في أحد الأقوال .

وقتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين ، خلاد بن سويد الذي طرحت عليه الرحى إمرأة من قريظة ، ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة .

ووقعت هذه الغزوة في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة ، ودام الحصار خمسا وعشرين ليلة .

وقال ابن القيم في زاد المعاد : وكانت قريظة أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ ، وأغلظهم كفرا ، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على اخوانهم .

وفي رسم المدينة مزيد من الايضاح .


باب الطاء

الطـور : بضم الطاء المهملة وسكون الواد وآخره راء مهملة : جبل في بلاد الشام أو فيما بينها وبين مصر .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ (٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ (٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ ﴾ (١٠) .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٦٣ .
(٢) سورة البقرة الآية رقم : ٩٣ .
(٣) سورة النساء الآية رقم : ١٥٤ .
(٤) سورة مريم الآية رقم : ٥٢ .
(٥) سورة طه الآية رقم : ٨٠ .
(٦) سورة المؤمنون الآية رقم : ٢٠ .
(٧) سورة القصص الآية رقم : ٢٩ .
(٨) سورة القصص الآية رقم : ٤٦ .
(٩) سورة الطور الآيات رقم : ١ – ٣ .
(١٠) سورة التين الآيات رقم : ١-٢ .

روى البخاري بسنده عن أبى سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور .

قال ابن جرير : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ وأما ﴿ ٱلطُّورَ ﴾ فأنه الجبل في كلام العرب ، ومنه قول العجاج :

دانى جناحية من الطور فمر تقضى البازى إذا البازى كسر

وقيل : أنه اسم جبل بعينه وذكر أنه الجبل الذي ناجى الله عليه موسى . وقيل : أنه من الجبل ما أنبت دون ما لم ينبت .

وروى بسنده عن مجاهد قال : رفع الجبل فوقهم كالسحابة ، فقيل لهم : لتؤمنن أو ليقعن عليكم فأمنوا . والجبل بالسريانية الطور .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ ، قال : الطور الجبل . اقتلعه فرفعة فوقهم ، فقال : ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ فأقروا بذلك .

وبسنده عن عكرمة قال : الطور الجبل .

وبسنده عن ابن زيد : الجبل بالسريانية الطور .

وقال آخرون : ﴿ ٱلطُّورَ ﴾ اسم للجبل الذي ناجى الله موسى عليه .

وبسنده عن ابن عباس : الطور الجبل الذي أنزلت عليه التوراة يعنى على موسى وكانت بنو اسرائيل أسفل منه .

وقال آخرون : الطور من الجبال ما أنبت خاصة .

وبسنده عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ٱلطُّورَ ﴾ قال: الطور من الجبال ما أنبت، وما لم ينبت فليس بطور.

قال ابن كثير: الطور: هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، وإنما يقال له جبل.

قال القرطبي: واختلف في الطور، قيل: الطور اسم للجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره، وروى ابن جريج عن ابن عباس. وروى الضحاك عنه أن الطور ما أنبت من الجبال خاصة دون ما لم ينبت، وقال مجاهد وقتادة: أى جبل كان. الا أن مجاهد قال: هو اسم لكل جبل بالسريانية، وقاله أبو العالية.

وقال القرطبي في موضع آخر من تفسيره: الطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى، أقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات، وهو أحد جبال الجنة. وروى اسماعيل بن اسحاق قال: حدثنا اسماعيل بن أويس قال: حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أنه قال: قال رسول الله ﷺ: أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة ملاحم من ملاحم الجنة قيل: فما الأجبل؟ قال: جبل أحد يحبنا ونحبه والطور جبل من جبال الجنة ولبنان جبل من جبال الجنة والجودى جبل من جبال الجنة وذكر الحديث.

قال مجاهد: الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سيناء. وقاله السدى، وقال مقاتل بن حيان: هما طوران يقال لأحدهما طور سيناء والآخر طور زيتا، لأنهما ينبتان التين والزيتون، وقيل هو جبل

بمدين واسمه زبير ، قال الجوهري : والزبير الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام .

قال القرطبي : ومدين الأرض المقدسة وهي قرية شعيب عليه السلام .

وطور سيناء من أرض الشام وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، قاله ابن عباس وغيره .. وقال ابن زيد : هو جبل بيت المقدس ممدود من مصر الى أيلة ، واختلف في سيناء ، فقال قتادة : معناه الحسن ، وقال مجاهد : معناه مبارك . وقال معمر عن فرقة : معناه شجر . وقال الجمهور : هو اسم الجبل ، كما تقول جبل أحد .

وقال البكري : الطور : جبل بيت المقدس ، ممتد ما بين مصر وأيلة ، سمى بطور ابن اسماعيل بن إبراهيم علية السلام ، وهو الذي نودى منه موسى ، قال تعالى : ﴿ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ، وهو طور سيناء قال الله سبحانه : وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ ﴾ ، ومعناهما واحد .

قال ابو الفدا : جبل الطور من المشترك : الطور في اللغة العبرانية اسم لكل جبل ، ثم صار علما لجبال بعينها : منها طور زيتا بلفظ الزيت علم لجبل معروف قرب رأس عين ، وطور زيتا أيضاً : جبل بالقدس ، وطور جبل بعينه مطل على طبرية ، وطور سيناء : اختلفوا فقيل هو جبل بقرب أيلة وقيل جبل بالشام ، وقيل سيناء حجارته وقيل شجر فيه ، وطور هارون : علم لجبل عال مشرف في قبلة القدس قبر هارون في رأسة .

وقال ايضاً : ومن بلاد مصر الطور وهو فرضة أهله وبها سوق ويقصدها التجار وهي بين القلزم وبين أيلة ، وعلى مرحلة من الطور المذكور طور سيناء ، وهو دير كبير هناك ، وجبال الطور داخلة في بحر القلزم حتى يصير بين الطور وبين بر مصر البحر ، وعلى طرف لسان البحر الداخل بين الطور وبين بلاد مصر مدينة القلزم .

وقال ياقوت : طور : بالضم ثم السكون ، وآخره راء ، والطور في كلام العرب : الجبل .. وقيل سمى طورا بطور ابن اسماعيل ، عليه السلام ويقال لجميع بلاد الشام الطور . وقال أهل السير : سميت بطور ابن اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وكان بملكها فنسبت اليه . وذكر بعض العلماء أن الطور هذا الجبل المشرف على نابلس ولهذا يحجة السامره .. والطور : جبل بعينه مطل على طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ . والطور أيضاً جبل عند كورة تشتمل على عدة قرى تعرف بهذا الأسم بأرض مصر القبلية وبالقرب منها جبل فاران هذا ما بلغنا في الطور غير مضاف .

وطور زيتا : بلفظ الزيت من الأدهان وفي آخره ألف : علم مرتجل لجبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور ، على رأسه شجر زيتون يسقيه المطر ولذلك سمى طور زيتا .

وطور سيناء : بكسر السين ويروى بفتحها ، وهو فيهما ممدود ، قال الليث : طور سيناء جبل ، وقال أبو اسحاق قيل أن سيناء حجارة والله أعلم .

وهو جبل بقرب أيلة ، وعنده بليد فتح في زمن النبي ﷺ سنة تسع صلحا على أربعين دينارا ، ثم فورقوا على دينار كل رجل فكانوا ثلاثمائة رجل ، وقال الجوهري : طور سيناء جبل بالشام ، وهو طور

أضيف الى سيناء ، وهو شجر وكذلك طور سينين ، قال الأخفش : السينين شجر واحدتها سينينة ، قال : وقرىء طور سيناء وسيناء بالفتح والكسر ، والفتح أجود في النحو لأنه بنى على فعلاء والكسر ردىء في النحو لأنه ليس في أبنية العرب فعلاء ممدود مكسور الأول غير مصروف الا أن تجعله أعجمي .

قلت : وبما تقدم يتبين أن الطور اسم مشترك ، يشترك فيه عدد من الأمكنة وقد اختلف العلماء في أى هذه الأمكنة عنى بالآيات الكريمة من القرآن ، غير أنهم لم يختلفوا في أن الطور ، وطور سيناء ، وطور سينين ، جبل واحد ويفهم من أقوال العلماء أن هذا الجبل واقع في بلاد الشام ، أو فيما بينها وبين مصر .

طوى : بضم الطاء المهملة بعدها واو مفتوحة وآخرة ألف مقصور : واد في بلاد الشام .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [1].

وقال تعالى : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾[2].

قال ابن جرير : قوله ﴿ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ ﴾ فانه يقول : انك بالواد المطهر المبارك .

وروى بسنده عن ابن ابي نجيح ، عن مجاهد : طوى : قال اسم الوادى .

---

(١) سورة طة الآية رقم : ١٢ .

(٢) سورة النازعات الآيات رقم : ١٥ - ١٦ .

قال البخاري في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ، قال ابن عباس : المقدس المبارك ، طوى اسم الوادى .

قال ابن كثير : طوى ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو اسم للوادى ، وكذل قال غير واحد .

وقال القرطبي : طوى : اسم الوادى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطوى ، وقرأ عكرمة : طوى ، والباقون طوى .

قال الجوهرى : طوى : اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفة جعله بلدة وبقعة وجعلة معرفة ، طوى مرتين أى قدس .

وقال البكري : طوى : بضم أوله وكسره ، مقصورة : اسم واد في أصل الطور بالشام ، وهو المذكور في التنزيل ، وقيل : بل طوى : جبل هناك ، قال أبو عمر الزاهد : سئل محمد بن زيد ، وأنا أسمع عن طوى اسم واد أيصرف ؟ قال : نعم ، لأن أحدى العلتين قد انخرمت عنه ، وبالتنوين قرأ الكوفيون وابن عامر .

وقال ياقوت : طوى : اسم أعجمى للوادى المذكور في القرآن الكريم ، يجوز فيه أربعة أوجه : طوى بضم أوله بغير تنوين وبتنوين ، فمن نون فهو اسم الوادى وهو مذكور على فعل نحو حطم وصرد ، ومن لم ينونه ترك صرفه من جهتين أحداهما أن يكون معدولا عن طاو فيصير كعمر المعدول عن عامر فلا ينصرف كما لا ينصرف عمر ، والجهة الأخرى أن يكون اسما للبقعة كما قال : في البقعة

المباركة من الشجرة ، ويقرأ بالكسر مثل معى وطلى فينون ، ومن ينون جعله اسما للمبالغة ، وسئل المبرد عن واد يقال له طوى أتصرفه فقال : نعم ، لأن أحدى العلتين قد انخرمت عنه ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو طوى ، وقرأ الكسائي وحمزة وعاصم وابن عامر طوى منونا في السورتين .

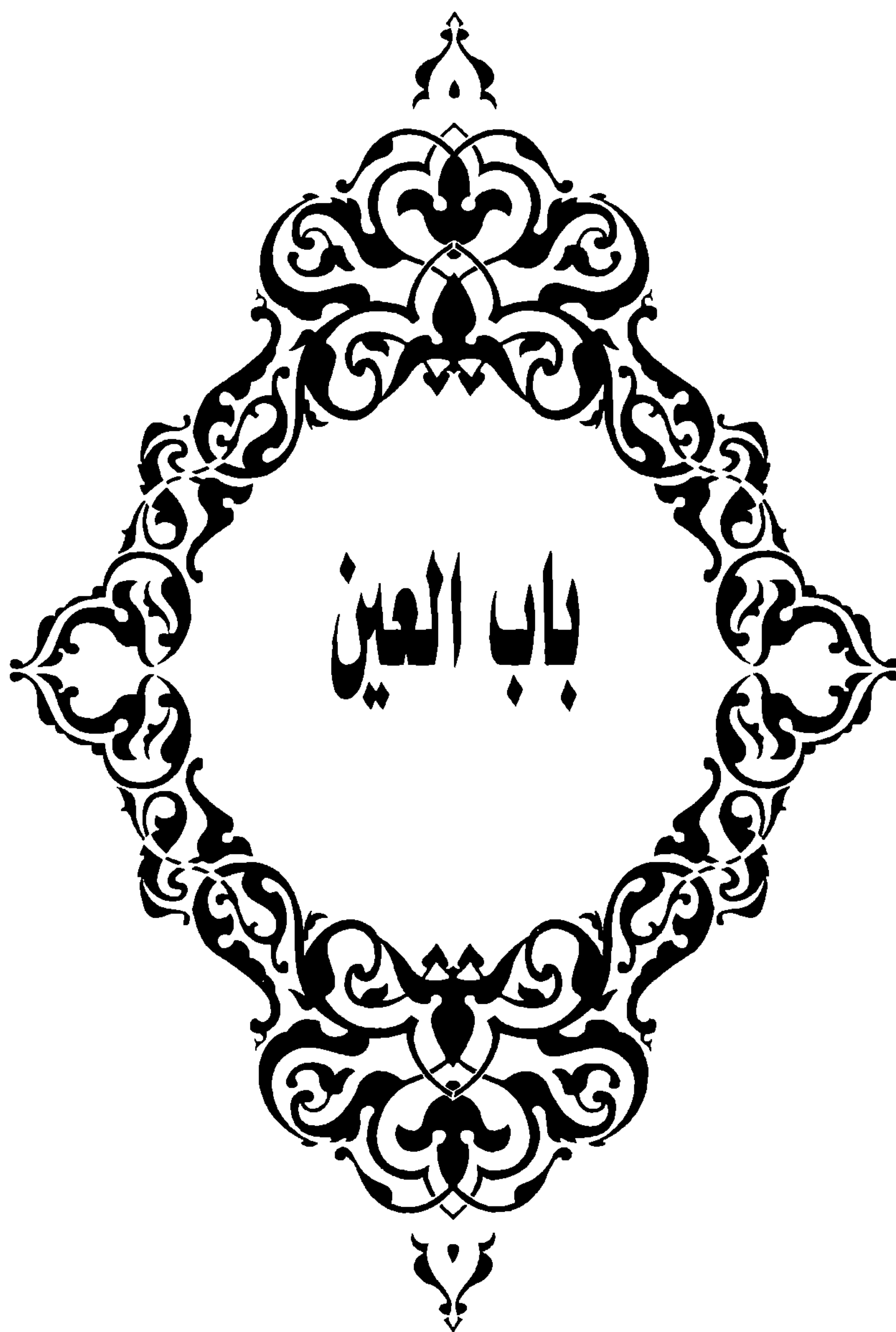
وقال بعضهم : وطوى وطوى بمعنى وهو الشيء المثنى ، ومنه قول عدى بن زيد :

أعاذل أن اللوم في غير كنهة على طوى من غيك المتردد

ويروى بالكسر والضم يعنى : أنك تلومنى مرة بعد مرة ، فكأنك تطوى غيك على مرة بعد مرة .. وقوله عز وجل : ﴿ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ أي طوى أي : قدس ، وقال الحسن بن أبى الحسن : ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين ، فعلى هذا ليس الا صرفه : وهو موضع بالشام عند الطور .

قلت : هذا ما ذكره العلماء في ضبط وتحديد موقعه ويرى اختلاف بينهم في ضبط كلمة طوى وتحديد موقعة ويرى اختلاف بينهم في ضبط طوى وفي اعرابها غير أنهم لم يختلفوا في تحديد موقعة في بلاد الشام .

وذو طوى موضع في مكة ، استوفيت الحديث عنه في كتابي (معجم الأمكنة الوارد ذكرها في البخاري) في رسمه .


باب العين

العـــدوة : **بعين مهملة مضمومة ودال مهملة ساكنة بعدها واو مفتوحة وآخره هاء : يقصد به عدوتا وادي بدر .**

قال الله تعالى : ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ ﴾[1].

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ **، يقول : بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة** ﴿ وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ ﴾ **، يقول: وعدوّكم من المشركين نزول بشفير الوادي الأقصى إلى مكة ،** ﴿ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ ﴾ **، يقول : والعير فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر .**

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ **، قال : شفير الوادي الأدنى ، وهم بشفير الوادي الأقصى ،** ﴿ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ ﴾ **، قال : أبو سفيان وأصحابه أسفل منهم .**

وبسنده عن ابن إسحاق : ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ ﴾ **، من الوادي إلى مكة ،** ﴿ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ ﴾ **أي عير أبي سفيان التي خرجتم لتأخذوها وخرجوا ليمنعوها ، من غير ميعاد منكم ولا منهم .**

---

(١) سورة الأنفال الآية رقم : ٤٢ .

وقال ابن كثير : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي إذا أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ، وهم أي المشركون نزول ﴿ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ، ﴿ وَٱلرَّكْبُ ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي مما يلي سيف البحر .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ والعدوة : جانب الوادي ، فالدنيا كانت مما يلي المدينة ، والقصوى مما يلي مكة ، أي إذ أنتم نزول بشفير الوادي بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وعدوّكم بالجانب الأقصى ، ﴿ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ يعني ركب أبي سفيان وغيره ، كانوا في موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة .

وقيل : هي الإبل التي كانت تحمل أمتعتهم ، وكانت في موضع يأمنون عليها توفيقا من الله عزّ وجلّ لهم ، فذكّرهم نعمه عليهم .

وفي التاج : أعداء الوادي جوانبه ، وأيضا ﴿ شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ﴾ وشفيره وجانبه ، وفي الصحاح : العدوة والعدوة جانب الوادي وحافته ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾ ، وفي المصباح : ضم العين لغة قريش والكسر لغة قيس . وقال الراغب : العدوة القصوى الجانب المتجاوز للقرب .

وقال ابن إسحاق : ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ، خلف العقنقل وبطن الوادي ، وهو يليل بين بدر وبين

العقنقل ، الكثيب الذي خلفه قريش ، والقلب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة .

قلت : مما تقدّم يتبيّن أن العدوة اسم جنس ، بشفير الوادي ، أيّ واد كان ، وبدر قد مضى الحديث عنه وصفا وتحديدا في رسمه في هذا الكتاب فانظره .

غير أن العدوتين اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم هما عدوتا وادي بدر (يليل) .

عرفات (عرفة) : أوله عين مهملة مفتوحة بعدها راء مهملة مفتوحة ثم فاء موحدة بعدها ألف وآخره تاء مثناة :مكان الوقوف في الحج .

ورد في القرآن الكريم بصيغة الجمع ، وورد في الأحاديث بصيغة المفرد والجمع .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ (1) .

وروى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، دفع رسول ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضّأ ولم يسبغ الوضوء فقلت الصلاة يا رسول الله فقال الصلاة أمامك فركب فلما جاء المزدلفة نزل فتوضّأ فأسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلّى المغرب ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله .

---

(1) سورة البقرة الآية رقم : ١٩٨ .

قال ابن جرير : واختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله قيل لعرفات : ﴿ عَرَفَـٰتٍ ﴾ فقال بعضهم : قيل لها ذلك من أجل أنّ إبراهيم خليل الله صلوات الله عليه ، لمّا رآها عرفها بنعتها الذي كان لها عنده ، فقال : قد عرفت . فسميت عرفات بذلك .

وروى بسنده عن السدّي قال : لما أذّن إبراهيم في الناس بالحج فأجابوه بالتلبية ، وأتاه من أتاه ، أمره الله أن يخرج إلى عرفات فخرج فلما بلغ الشجرة عند العقبة ، استقبله الشيطان يردّه ، فرماه بسبع حصيات يكبّر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية ، فصدّه أيضا فرماه وكبّر ، فطار فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبّر. فلما رأى أنه لا يطيقه ولم يدر إبراهيم أين يذهب ، انطلق حتى أتى ذا المجاز ، فلما نظر إليه فلم يعرفه جاز ، فلذلك سمّى : (ذا المجاز) .

ثم انطلق حتى وقع بعرفات ، فلما نظر إليها عرف النعت ، قال : (قد عرفت) فسمّى : ﴿ عَرَفَـٰتٍ ﴾ . فوقف إبراهيم بعرفات ، حتى إذا أمسى أزلف إلى جمع ، فسمّيت : (المزدلفة) ، فوقف بجمع .

قال ابن كثير : إنّما عرفات وإن كان علما على مؤنث لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات ، سمّى به بقعة معيّنة فروعي فيه الأصل فصرف ، اختاره ابن جرير .

وعرفة : موضع الوقوف في الحج وهي عمدة أفعال الحج .

قال ياقوت : عرفات : بالتحريك ، وهو واحد في لفظ الجمع ، قال الأخفش : إنما صرف لأن التاء صارت بمنزلة الياء والواو في مسلمين ، لا أنه تذكيره ، وصار التنوين بمنزلة النون فلمّا سمّى به ترك على حاله ، وكذلك القول في أذرعات وعانات .

وقال الفرّاء : عرفات لا واحد لها بصحة ، وقول الناس اليوم يوم عرفة مولّد ليس بعربي محض .

والذي يدل على ما قاله الفرّاء أن عرفة وعرفات اسم لموضع واحد ، ولو كان جمعا لم يكن لمسمّى واحدا ويحسن أن يقال : أن كل موضع منها اسم عرفة ثم جمع ولم يتنكر لما قلنا أنها متقاربة مجتمعة فكأنها مع الجمع شيء واحد .

وقيل أن الاسم جمع والمسمّى مفرد فلم يتنكّر ، والفصيح في عرفات وأذرعات الصرف ، قال امرؤ القيس :

تنوّرتهـــا مـــن أذرعـــات

وإنما صرفت لأن التاء فيها لم تخصّص للتأنيث بل هي أيضا للجمع فاشتبهت التاء ... وعرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم وليس كما قال بعضهم أن عرفة مولّد ، وعرفة حدّها من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفة ، وقرية عرفة : موصل النخل بعد ذلك بميلين ، وقيل في سبب تسميتها بعرفة أن جبرائيل ، عليه السلام ، عرّف إبراهيم ، عليه السلام ، المناسك فلمّا وقفه بعرفة قال له : عرفت ؟ قال : نعم فسمّيت عرفة ويقال : بل سمّيت بذلك لأن آدم وحواء تعارفا بها بعد نزولها من الجنّة ، ويقال : إن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف ، وقيل : بل سمّى بالصبر على ما يكابدون في الوصول إليها لأن العرف الصبر ، قال الشاعر :

قـل لابـن قـيس أخـي الرّقـيّات   مـا أحسـن العـرف في المصيبات

وقال ابن عباس : حدّ عرفة من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبالها إلى قصر آل مالك ووادي عرفة ، وقال البشاري : عرفة قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها

يوم عرفة ، والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطئ ، وبها سقايات وحياض وعلم قد بنى يقف عنده الإمام .

قلت : وبما أن عرفات مكان له شهرة إسلامية ومكانة في نفوس جميع المسلمين وأن موقعه معروف ومحدد يتف به المسلمون في كل عام في حجّهم ، وأن العلماء قد حدّدوا هذا المكان وكثرت المؤلفات التي تحدّده وتصفه ، وتتحدّث عن فضله وما يتعلّق به من أحكام الحج ، فإنني أكتفي بما تقدّم لأن مقامنا لا يتسع لذكر ما قاله العلماء عن هذا المكان الطاهر وبالله التوفيق .

العـــرم (السـدّ) : بعين مهملة مفتوحة وراء مهملة مكسورة وآخره ميم ، والسدّ القصود به سدّ مأرب .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾[1] .

قال البخاري : قال مجاهد : العرم السدّ ماء أحمر أرسله الله في السدّ فشقّه وهدّمه وحفر الوادي ولم يكن الماء أحمر من السدّ ولكن عذابا أرسله الله عليهم من حيث شاء .

روى ابن جرير بسنده عن وهب بن منبّه اليمانيّ قال : لقد بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيًا ، فكذّبوهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ يقول تعالى ذكره : فثقبنا عليهم حين أعرضوا عن تصديق رسلنا سيلهم الذي كان يحبس عنهم السيول .

---

(١) سورة سبأ الآية رقم : ١٦ .

والعرم : المسناة التي يحبس الماء ، واحدها : عرمة ، وإيّاه عنى الأعشى بقوله :

ففـــي ذاك للمؤتســـى أسـوة ومـــأرب عفّـــى علـيه العـرم
رجـــام بنـــته لهـــم حمـــير الى جـــاء مـــاؤهم لم يـــرم

وكان العرم فيما ذكر مما بنته بلقيس .

وروى بسنده عن أبي ميسرة في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ قال : المسناة بلحن اليمن .

وبسنده عن مجاهد في قوله ﴿ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ قال : شديد . وقيل : إن العرم : اسم واد كان لهؤلاء القوم .

وبسنده عن قتادة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ ذكر لنا أن سيل العرم واد كانت تجتمع إليه مسايل من أودية شتّى ، فعمدوا فسدّوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة ، وجعلوا عليه أبوابا ، وكانوا يأخذون من مائة ما احتاجوا إليه ، ويسدّون عنهم ما لم يعنوا به من مائة .

وبسنده عن ابن عباس ، قوله ﴿ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ يقول : الشديد ، وكان السبب الذي سبّب الله لإرسال ذلك السيل عليهم فيما ذكر لي جرذا ابتعثه الله على سدّهم فثقّب فيه ثقبا .

قال ابن كثير : وكان من أمر السدّ أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأود يتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدّا عظيما محكما حتى ارتفع الماء

وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار، في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف- منهم قتادة- أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار من الأشجار في ذلك ماء يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السدّ بمأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسدّ مأرب.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾: المراد بالعرم المياه، وقيل الوادي وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير .. وذكر غير واحد- منهم ابن عباس ووهب بن منبّه وقتادة والضحّاك- أن الله عزّ وجلّ لّما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السدّ دابّة من الأرض، يقال لها: الجرذ نقبته، قال وهب بن منبّه، وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السدّ هو الجرذ، فكانوا يرصدون عنده السّنانير برهة من الزمان، فلمّا جاء القدر غلبت الفأر السنانير وولجت إلى السدّ فنقبته فانهار عليهم.

وقال قتادة وغيره: الجرذ هو الخلد نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي وخرّب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين- عن يمين وشمال فيبست وتحطّمت.

وقال السهلي: كان هذا السدّ من بناء سبأ بن يشحب بن يعرب، وكان ساق إليه سبعين واديا، ومات قبل أن يستتمّه فأتمّه ملوك حمير بعده.

وقال المسعودي : بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخا ، وجعل له ثلاثين مثقبا .

- وقال الأعشى :

وفي ذاك للمؤتسي أسوة ... ومأرب عفّى عليه العرم
رخام بنته لهم حمير ... إذا جاء موّاره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها ... على سعة ماؤهم إذ قسم
فصاروا أيادي ما يقدرو ... ن منه على شرب طفل فطم

وقال القزويني : مأرب : كورة بين حضرموت وصنعاء ، لم يبق بها عامرا إلا ثلاث قرى يسمّونها الدروب ، كل قرية منسوبة إلى قبيلة من اليمن ، وهم يزرعون على الماء الذي جاء من ناحية السدّ ، يسقون أرضهم سقية واحدة ويزرعون عليه ثلاث مرّات في كل عام ، فيكون بين زرع الشعير وحصاده في ذلك الموضع نحو شهرين وكان بها سيل العرم الذي جرى ذكره في سبأ .

وذكروا أن مياه جبالها تجتمع هناك وسيول كثيرة ، ولها مخرج واحد فالأوائل قد سدّوا ذلك المخرج بسدّ محكم ، وجعلوا لها مثاعب يأخذون منها قدر الحاجة ، فاجتمعت المياه بطول الزمان وصار بحراً عظيماً خارج السدّ ، وداخله عمارات وبساتين ومزارع ، فسلّط الله الجرذ على السدّ يحفره بأنيابه ويقلعه بمخاليبه حتى سدّ الوادي الذي نحو البحر وفتح مما يلي السدّ ، فغرقت البلاد حتى لم يبق إلا ما كان على رؤوس الجبال ، وذهبت الحدائق والجنان والضياع والقصور ، وجاء السيل بالرمل فطمّها ، وهي على ذلك إلى اليوم كما أخبر الله تعالى فجعلهم الله أحاديث ومزّقهم كل ممزّق .

وتحدّث ياقوت عن مأرب وعن سد مأرب حديثا طويلاً ، لا يتسع مقامنا هذا لذكره ، وما فيه عن السدّ لا يخرج عما تقدم في هذا من أقوال العلماء .

قلت : هذا هو سد مأرب ، الواقع في بلاد سبأ ، وقد قص الله خبر هذا السدّ وما حلّ به من الدّمار وما جرى لأهل تلك البلاد من التمزّق والتفرّق في البلاد ، عبرة للمعتبرين وعظة للمتّعظين، والآيات التي تقصّ خبرهم في سورة (سبأ) .

العــزّى : بعين مهملة مضمومة وزاي معجمة مشدّدة وآخره ألف مقصورة : صنم لقريش في بطن وادي نخلة الشامية فيما بين مكة والطائف .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ ﴾ (١).

قال ابن جرير : سمّى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره ، وتقدّست أسماؤه ، فقالوا من الله اللات ، ومن العزيز العزّى ، وزعموا أنهنّ بنات الله ، تعالى الله عمّا يقولون وافتروا ، فقال جلّ ثناؤه لهم : أفرأيتم الزاعمون أن اللات والعزّى ومناة الثالثة بنات الله ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ ﴾ يقول أتختارون لأنفسكم الذكر من الأولاد ، وتكرهون له الأنثى ، وتجعلون له الأنثى التي لا ترضونها لأنفسكم ، ولكنكم تقتلونها كراهة منكم لهنّ .

وروى بسنده عن مجاهد ﴿ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ قال : العزّى : شجيرات .

(١) سورة النجم الآيات رقم : ١٩-٢٠ .

وقال آخرون : كانت العزّى حجرا أبيض .

وروى بسنده عن سعيد بن جبير قال : ﴿ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ : حجر أبيض .

وقال آخرون : كان بيتا بالطائف تعبده ثقيف .

وبسنده عن ابن زيد في قوله ﴿ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ قال : العزّى : بيت بالطائف تعبده ثقيف .

وقال آخرون : بل كان في بطن نخلة .

وقال ابن كثير : روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ قال كان اللات رجلا يلتّ السويق للحاج قال والعزّى من (العزيز) وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف كانت قريش يعظّمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزّى ولا عزّى لكم ، فقال رسول الله (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) .

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (من حلف فقال في حلفه واللات والعزّى فليقل لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدّق) فهذا محمول على ما سبق في ذلك ، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية .

وروى النسائي بسنده عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، قال : حلفت باللات والعزّى فقال لي أصحابي بئس ما قلت ، قلت هجرا فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال: (قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وانفث عن شمالك ثلاثا وتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم ثم لا تعد) .

قال القرطبي : العزّى لقريش وبنى كنانة . وقال هشام ... وكانت بوادي نخلة الشامية فوق ذات عرق ، فبنوا عليها بيتا وكانوا

يسمعون منها الصوت . وعن ابن عباس قال : كانت العزّى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة ، فلمّا فتح رسول الله ﷺ مكة ، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال : (ائت بطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء إليه قال : (هل رأيت شيئا) قال: لا . قال : (فاعضد الثانية) فأتاها فعضدها ، ثم أتى النبي ﷺ فقال : (هل رأيت شيئا) قال : لا . قال : (فاعضد الثالثة) ، فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقيها تصرّف بأنيابها ، وخلفها دبيّة السّلمى وكان سادنها فقال :

يا عزّى كفرانك لا سبحانك إنّي رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حممة ، ثم عضد الشجرة وقتل دبيّة السادن ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال : (تلك العزّى ولن تعبد أبدا) .

وقال ابن جبير : العزّى حجر أبيض كانوا يعبدونه .
وقال قتادة : نبت كان ببطن نخلة .

قال السهيلي : كانت لقريش وبنى كنانة : العزّى بنخلة ، وكان سدنتها وحجّابها بنوا شيبان من سليم حلفاء بني هاشم .

وقال ياقوت : العزّى : بضم أوله في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ العزّى : سمرة كانت لغطفان يعبدونها وكانوا بنوا عليها بيتا وأقاموا لها سدنة ، فبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إليها فهدم البيت وأحرق السمرة .

وقال حبيب : العزّى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان وسدنتها من بني صرمة بن مرّة . قال أبو منذر بعد ذكرمناة

واللات ثم اتخذوا العزّى وهي أحدث من اللات ومناة ، وذلك أنّي سمعت العرب سمّت بها العزّى فوجدت تميم بن مرّ سمّى ابنه زيد مناة بن تميم ، وبسم اللات سمّى ثعلبة بن عكابة ابنه تيم اللات ، وعبد العزّى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم فهي أحدث من الأوليين ، وعبد العزّى بن كعب من أقدم ما سمّت به العرب .

وكان الذي اتخذ العزّى ظالم بن أسعد ، وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراض ، بإيزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال ، فبنى عليها بستانا ، يريد بيتا وكانوا يسمعون فيه الصوت وكانت العرب وقريش تسمّى به عبد العزّى ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقرّبون عندها بالذبائح .

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى فإنهنّ الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى ، وكانوا يقولون بنات الله عزّ وجلّ ، وهنّ يشفعن إليه .

فلمّا بعث رسول الله ﷺ أنزل عليه : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ وكانت قريش قد حمت لها شعبا من وادي حراض يقال له سقام يضاهئنا به حرم الكعبة وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم يقال له : الغبغب ، وكانت قريش تخصّها بالإعظام ، فلذلك يقول زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان قد تألّها في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تركت اللات والعزّى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزّى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا هبلا أزور وكان ربّا ... لنا في الدهر ، إذ حلمي صغير

وكانت سدنة العزّى بني شيبان بن جابر بن مرّة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور ، وكانوا حلفاء بني الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وكان آخر من سدنها منهم دبيّة بن حرمى السّلمى ، وله يقول أبو خراش الهذلي وكان قدم عليه فحذاه نعلين جيّدتين فقال :

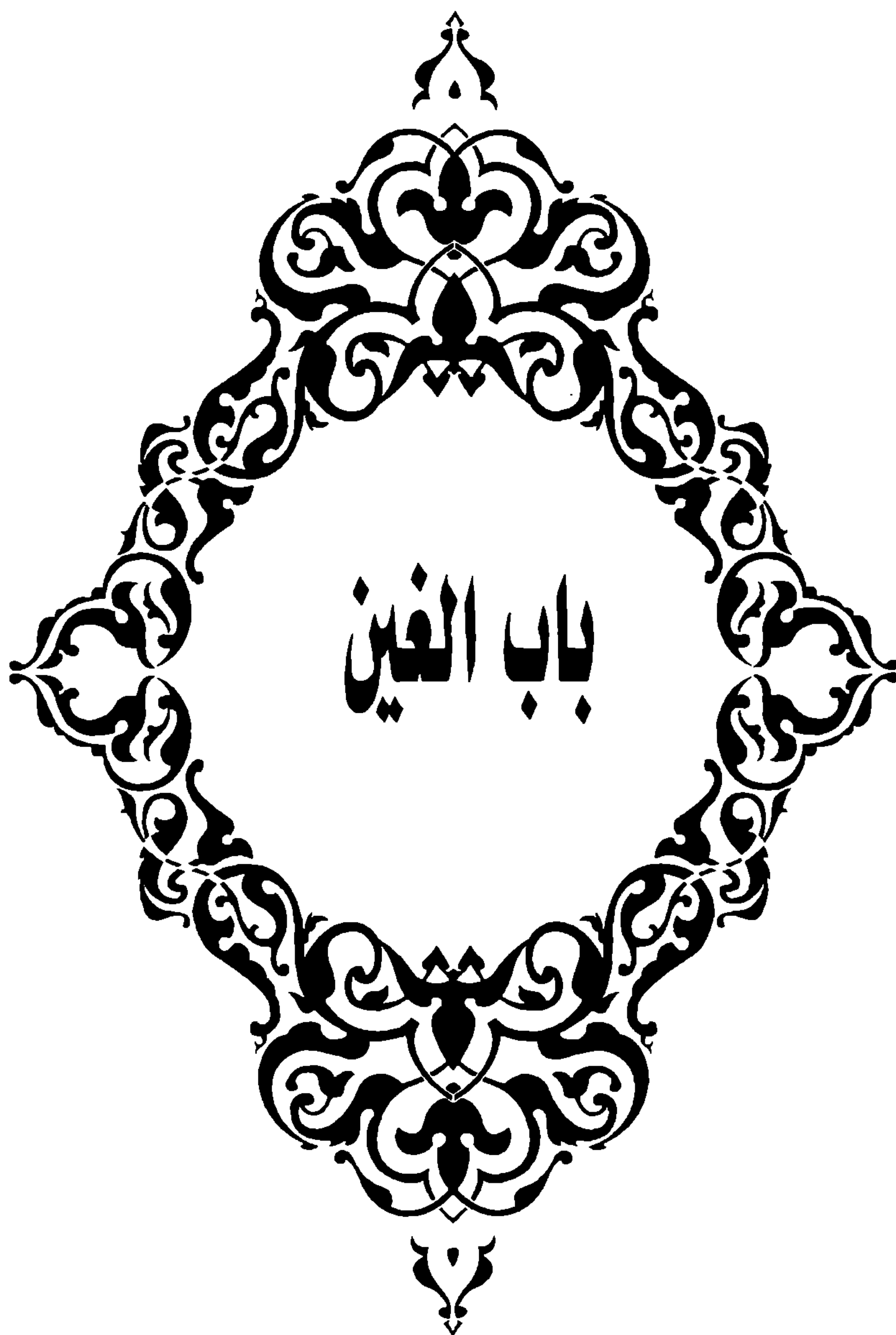
حذاني بعد ما خذمت نعالي ... دبـيّة أنـه نعـم الخلـيل
مقابلتين من صلوى مشبّ ... من الثيران وصلهما جميل

فلم تزل العزّى كذلك حتى بعث الله نبيّه ، ﷺ ، فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ، ونزل القرآن فيها فاشتدّ

ذلك على قريش . ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظّمون شيئا من الأصنام إعظامهم العزّى ثم اللّات ثم مناة .

فأما العزّى فكانت قريش تخصّها دون غيرها بالهديّة والزيارة ، وكانت ثقيف تخص اللّات كخاصة قريش العزّى ، وكانت الأوس والخزرج تخصّ مناة كخاصة هؤلاء الآخرين .

قلت : فيما تقدّم نرى أقوالا مختلفة في وصف العزّى وتحديد موقعها ، غير أن أرجح الأقوال في ذلك هو أنها كانت في بطن وادي نخلة الشامية فيما بين مكة والطائف كما ورد ذلك في الحديث المتقدّم الذي يتضمّن خبر ندب النبي ﷺ لخالد بن الوليد لتدميرها .



باب الغين

غار ثور : بغين معجمة بعدها ألف وآخره راء ، مضاف إلى ثور ، بثاء مثلثة مفتوحة بعدها واو ساكنة وآخره راء مهملة : غار في جبل ثور الواقع في أسفل مكة .

قال الله تعالى : ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[1] .

قال ابن جرير : قوله : ﴿ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ﴾ ، يقول إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، في الغار . والغار النقب العظيم في الجبل .

وروى بسنده عن قتادة : وأما الغار فجبل بمكة يقال له : (ثور) .

وقال القرطبي : ﴿ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ﴾ ، الغار : ثقب في الجبل ، يعني غار ثور .

وجاء فيما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه ، قالت فانطلقا حتى أتيا الغار وهو بثور فتواريا فيه فكان عامر بن فهيرة غلاما لعبد الله بن الطفيل بن سخبرة أخو عائشة لأمها وكانت لأبي بكر منحة فكان يروح بها ويغدو عليهم .. هـ

قال الأزرقي : ثور : جبل بأسفل مكة على طريق عرنة فيه الغار الذي كان رسول الله ﷺ مختبيا فيه هو وأبو بكر ، وهو الذي أنزل الله سبحانه فيه ، ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ﴾ ومنه هاجر النبي ﷺ وأبو بكر إلى المدينة . هـ

---

(١) سورة التوبة الآية رقم : ٤٠ .

قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج يعني من مكة إلى المدينة مهاجرا أتى أبا بكر بن أبي قحافة ، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمد إلى غار ثور جبل بأسفل مكة فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يستمّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهارا ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم ، أن الحسن بن أبي الحسن البصري قال : انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ ، فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حيّة ، يقي رسول الله ﷺ بنفسه .

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثا ومعه أبو بكر رضي الله عنه . هـ

قال السهيلي : وهو غار في جبل ثور ، وهو الجبل الذي ذكره في تحريم المدينة ، وأنها حرام ما بين عير إلى ثور ، وهو وهم في الحديث ، لأن ثورا من جبال مكة ، وإنما لفظ الحديث عند أكثرهم ما بين عير إلى كذا ، كأن المحدّث قد نسي اسم المكان ، فكنّا عنه بكذا .

وذكر قاسم بن ثابت في الدلائل فيما شرح من الحديث أن رسول الله ﷺ لما دخل وأبو بكر معه أنبت الله على بابه الرّاءقن: قال قاسم : وهي شجرة معروفة فحجبت عن الغار أعين الكفار .

وفي مسند البزّار : أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار وأرسل حمامتين وحشيتين فوقعتا على وجه الغار ، وأن ذلك ما صدّ المشركين عنه .

وفي الصحيح عن أنس : قال : قال أبو بكر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ وهما في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا ، فقال له رسول الله ﷺ : ما ظنّك باثنين ، الله ثالثهما ، وروى ايضا أنه لما عمى عليهم الأثر جاءوا بالقافة ، فجعلوا يقفون الأثر ، حتى انتهوا إلى باب الغار وقد أنبت الله عليه ما ذكرناه في الحديث قبل هذا ، فعندما رأى أبو بكر رضي الله عنه القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال : إن قتلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، فعندها قال له رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ . هـ

قال ياقوت : ثور : بلفظ الثور فحل البقر : اسم جبل بمكة فيه الغار الذي اختفى فيه النبي ﷺ : قال أبو طالب عم النبي ﷺ :

أعوذ بربّ الناس من كل طاعن ... علينا بشر أو مخلّق باطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن مفتر في الدين ما لم يحاول
وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه ... وعير وراق في حراء ونازل

وقال الجوهري : ثور جبل بمكة وفيه الغار المذكور في القرآن ، يقال له أطحل ، وقال الزمخشري : ثور أطحل من جبال مكة بالمفجر من خلف مكة على طريق اليمن ، ...

وتحدث ابن جبير في رحلته عن جبل ثور في موضعين ،

الأول حدد فيه الجبل وذكره باسم (أبي ثور) ، قال : ومن الجبال التي فيها أثر كريم ، ومشهد عظيم الجبل المعروف بأبي ثور ، وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد . وفيه الغار الذي آوى إليه النبي ﷺ ، مع صاحبه الصديق ، رضي الله عنه ، حسبما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز .

وفي الموضع الثاني وصف الغار وذكره باسم (جبل ثور) وقال : وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال صعدنا إلى جبل ثور ،

لمعاينة الغار المبارك الذي أوى إليه النبي ، ﷺ ، مع صاحبه الصديق ، رضي الله عنه ، حسبما جاء في محكم التنزيل العزيز ، وصفته أولا في هذا التقييد: وولجناه من الموضع الذي يعسر الولوج منه على البعض من الناس ... لأن مدخل النبي ، ﷺ ، كان منه .

وهذا الجبل صعب المرتقى جدا يقطع الأنفاس تقطيعا لا يكاد يبلغ منتهى إلا وقد ألقى بالأيدي إعياء وكلالا . وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال وطول الغار ثمانية عشر شبرا وسعته أحد عشر شبرا في الوسط منه أو في حافتيه ثلثا شبر وعلى الوسط منه يكون الدخول ، وسعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا لأن له بابين .

وفي مرآة الحرمين : وصف لجبل ثور وللغار قال مؤلفه : ولما بلغنا الغار وجدناه صخرة مجوّفة في قنّة الجبل ، أشبه بسفينة صغيرة ظهرها إلى أعلى ، ولها فتحتان في مقدّمها واحدة وفي مؤخرها أخرى ، وقد دخلت من الغربية زاحفا على بطني مادا ذراعي إلى الأمام ، وخرجت من الشرقية التي تتسع عن الأولى قليلا ، .. والفتحة الصغيرة عرضها ثلاثة أشبار في شبرين تقريبا ، وهي الفتحة الأصلية التي دخل منها النبي ﷺ ، وهي في ناحية الغرب ، أما الفتحة الأخرى فهي في الشرق ، ويقال : أنها محدثة ليسهل على الناس الدخول إلى الغار والخروج منه ، والغار من الجبل في الناحية الموالية لمكة .

وارتفاع جبل ثور يزيد على (٥٠٠) متر والواقف في أعلاه يشرف على ماحوله من الجبال ، ويرى مكة وما حولها واضحة ظاهرة .

قلت : هذا هو جبل ثور الذي بمكة ، الذي اختفى النبي ﷺ ورفيقه أبو بكر في غاره ، معروف باسمه هذا في مكة قديما ومازال معروفا به . أما جبل ثور الذي في المدينة فإن الحديث عنه سبق متسوفى في معجم أمكنة البخاري.

الغربيّ : بغين معجمة مفتوحة بعدها راء مهملة ساكنة ، فباء موحدة مكسورة وآخره ياء مثناة مشدّدة : المكان الذي قضى الله فيه الأمر لموسى عليه السلام الرسالة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ ﴿ وَمَا كُنتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِجَانِبِ ﴾ غربي الجبل ﴿ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ يقول : إذ فرضنا إلى موسى الأمر فيما ألزمناه وقومه وعهدنا إليه من عهدنا .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ﴾ أي ما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ ﴾ أي بجانب الجبل الغربي .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لمّا أتى الميقات مع السبعين .

وقال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ يعني يا محمد ما كنت بجانب الجبل الغربي الذي كلّم الله موسى من الشجرة التي هي شرقيّة على شاطئ الوادي .

---

(١) سورة القصص الآية رقم : ٤٤ .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ ﴾ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي ، فيكون من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، واختاره الزجّاج . وقال الكلبي : (بجانب الوادي الغربي): أي حيث ناجى موسى ربّه ﴿ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة الى فرعون وقومه .

قلت : هذا ما ذكره المفسّرون في تفسير الآية الكريمة ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ .

غيابة الجبّ : بغين معجمة مفتوحة وياء مثناة بعدها ألف وبعد الألف باء موحدة مفتوحة وآخره هاء : ويقصد به البئر التي ألقى إخوة يوسف فيها أخاهم يوسف عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ (١).

وروى ابن جرير بسنده عن قتادة في : ﴿ غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ ، قال : بئر ببيت المقدس .

والغيابة : كل شيء غيّب شيئا فهو غيابة ، ﴿ ٱلْجُبِّ ﴾ ، البئر غير المطويّة .

وبسنده عن قتادة في : ﴿ غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ ، في بعض نواحيها في أسفلها .

وبسنده عن ابن عباس ، قال : والجبّ بئر بالشام .

---

(١) سورة يوسف الآية رقم : ١٥ .

قال القرطبي : قال الهرويّ : الغيابة شبه لجف أوطاق في البئر فويق الماء ، يغيّب الشيء عن العين .

وقال ابن عزيز : كل شيء غيّب عنك شيئا فهو غيابة . ومنه قيل للقبر غيابة ، قال الشاعر :

فـإن أنـا يومـا غيّبـتني غـيابة فسيروا بسيرى في العشيرة والأهل

والجبّ الركيّة التي لم تطو ، فإذا طويت فهي بئر ، قال الأعشى :

لإن كنت في جبّ ثمانين قامة ورقّيـت أسـباب السـماء بسـلّم

وسمّيت جبّا لأنها قطعت في الأرض قطعا ، وجمع الجبّ جببة وجباب وأجباب ، وجمع بين الغيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه في موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين ، قيل : هو بئر ببيت المقدس ، وقيل : هو بالأردن ، قاله وهب بن منبّه . وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

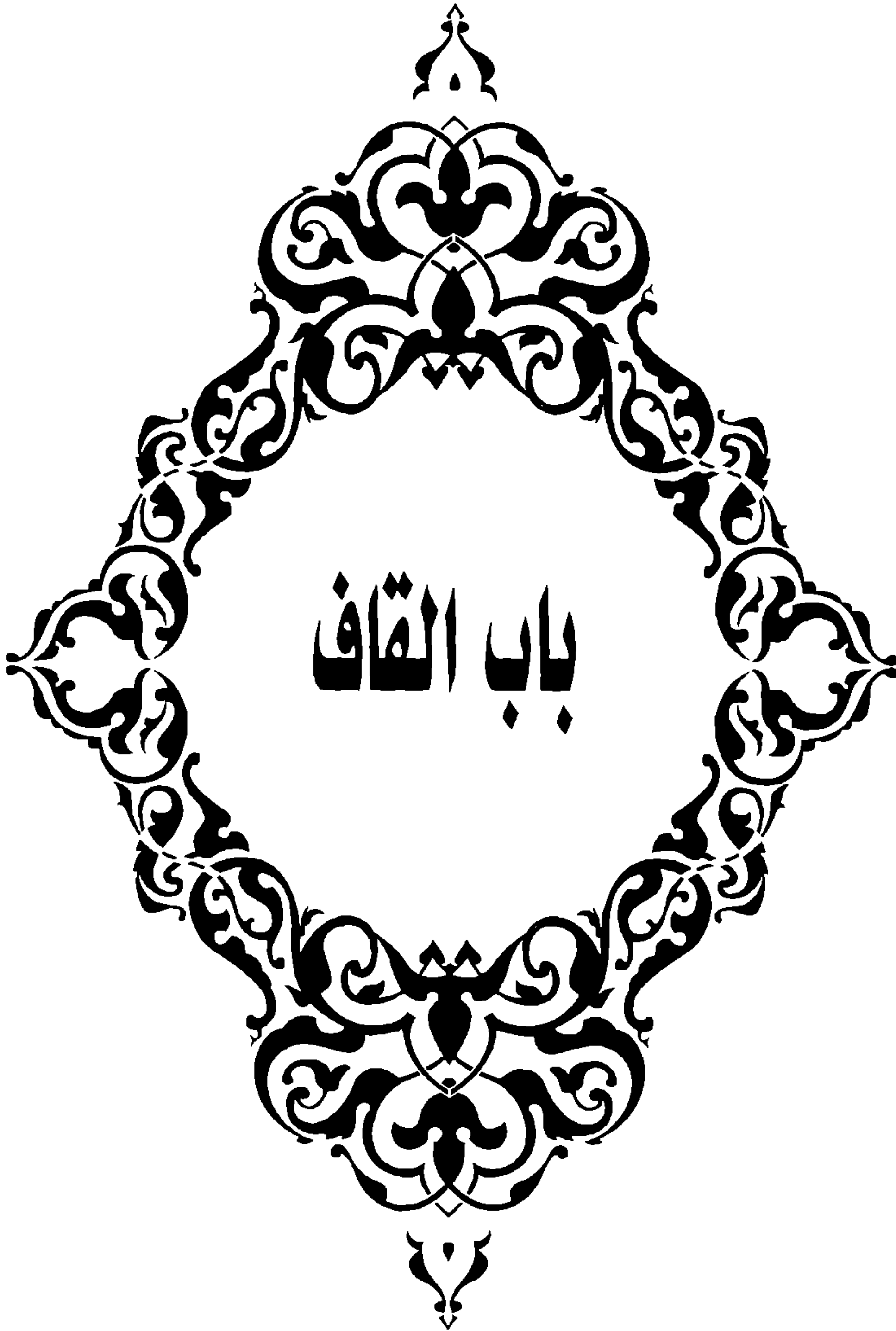
قال ياقوت : جبّ يوسف الصدّيق ، عليه السلام ، الذي ألقاه فيه إخوته ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز ، وهو بالأردن الأكبر بين بانياس وطبرية على اثني عشر ميلاً من طبرية مما يلي دمشق ، قاله الاصطخري ، وقال غيره : كان منزل يعقوب بنابلس من أرض فلسطين ، والجبّ الذي ألقى فيه يوسف بين قرية من قراها ، يقال لها: سنجل وبين نابلس .

وفي التاج : جبّ يوسف المذكور في القرآن : وألقوه في غيابة الجبّ ، على اثني عشر ميلا من طبرية وهي بلدة بالشام أو هو بين سنجل ونابلس ، على اختلاف فيه .

وفي القاموس الإسلامي : الجبّ البئر القليلة الماء ، جاء ذكرها مرّتين بهذا المعنى في القرآن في سياق قصة يوسف وهي لا تختلف عن رواية التوراة ، ذلك أن إخوة يوسف اتفقوا على أن يتخلّصوا منه لأن يلقوه في بئر على طريق القوافل بعد أن يعرّوه من قميصه ، قيل : إن هذا البئر كانت تقع في إقليم الأردن بين مدين ومصر . وقيل : بين طبرية والقدس ، وهي بئر ملحة فجاءت قافلة في طريقها إلى مصر فأدلى واحد منها دلوه في البئر فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت فإذا غلام قد تعلّق بها ، فاستبشر الرجل وحمله معه وباعه لرئيس الشرطة في مصر ، وفي ذلك تقول الآية : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ .

ويطلق العامة في مصر على بئر بقلعة الجبل (المقطّم) اسم بئر يوسف يعنون بها هذا الجبّ ، ولكن الإشارة إلى السلطان يوسف صلاح الدين .

قلت : يتبيّن ممّا تقدّم أن العلماء اختلفوا في تحديد مكان الجبّ الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام غير أنه لم يختلفوا في : أنه كان في بلاد الشام والله أعلم .



باب القاف

القريـــة : بقاف مثناة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وياء مثناة مفتوحة وآخره هاء : المقصود بذلك القرية التي أمر بنوا إسرائيل قوم موسى بدخولها .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ (٢).

قال ابن جرير : القرية التي أمرهم الله جلّ ثناؤه أن يدخلوها ، فيأكلوا منها رغدا حيث شاءوا- فيما ذكر لنا : بيت المقدس .

وروى بسنده عن قتادة في قوله : ﴿ ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ قال : بيت المقدس .

وروى بسنده عنه السدّي : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ، أما القرية ، فقرية بيت المقدس .

وبسنده عن ابن وهب عن قوله : ﴿ ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ قال : هي أريحاء ، وهي قريبة من بيت المقدس .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ وهي قرية بيت المقدس ، ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ يقول من ثمارها وحبوبها ونباتها .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .
(٢) سورة الأعراف الآية رقم : ١٦١ .

أما الباب الذي أمروا أن يدخلوه ، فإنه قيل : هو باب الحطّة من بيت المقدس .

وبسنده عن مجاهد : ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّـدًا ﴾ ، قال : باب الحطّة من باب إيلياء ، من بيت المقدس .

وبسنده عن السدّي : أما الباب فباب من أبواب بيت المقدس .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَـةَ ﴾ أي المدينة ، سمّيت بذلك لأنه تقرّت أي اجتمعت ، ومنه قريت الماء في الحوض ، أي جمعته ، واختلف في تعيينها ، فقال الجمهور : هي بيت المقدس . وقيل : أريحاء من بيت المقدس .

قال عمر بن شبّه: كانت قاعدة ومسكن ملوك ابن كيسان - : الشام . الضحاك : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر .

والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم (باب حطة) عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القبّة التي كان يصلّي إليها موسى وبنو إسرائيل .

وقال ابن كثير : كان أصحّ القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس ، كما نصّ على ذلك السدّي والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحد .

وقال الشوكاني: قال جمهور المفسّرين : القرية هي بيت المقدس، وقيل : إنها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس ، وقيل من قرى الشام ، والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطّة ، وقيل هو باب القبّة التي كان يصلّي إليها موسى وبنو إسرائيل .

قلت : هذا ما قاله المفسّرون في التعريف بالقرية التي أمر بنو إسرائيل بدخولها و يترجّح من أقوالهم أن المقصود بهذه القرية هي بيت المقدس .

القريـــــة : كالذي قبله : هي بيت المقدس .

قال الله تعال : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾[1] .

قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل في الذي ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ فقال بعضهم : هو عزير .

وروى بسنده عن ناجية بن كعب ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ ، قال : عزير .

وبسنده عن سليمان بن بريدة في قوله : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ قال هو : عزير .

وبسنده عن قتادة : مثله .

وبسنده عن عكرمة : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ ، قال : عزير .

وبسنده عن ابن عباس : مثله .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٢٥٩ .

وقال آخرون : هو أوروميا بن حليقا ، وزعم محمد بن إسحاق أن أوروميا ، هو الخضر .

وبسنده عن ابن إسحاق قال : اسم الخضر - فيما كان وهب بن منبّه يزعم عن بني إسرائيل - أروميا بن حليقا ، وكان من سبط هارون بن عمران .

وبسنده عن وهب بن منبّه يقول في قوله : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، أن أروميا لما خرّب بيت المقدس وحرّقت الكتب ، وقف في ناحية الجبل فقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

واختلف أهل التأويل في (القرية) التي مرّ عليها القائل : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فقال بعضهم هي بيت المقدس ، قاله وهب بن منبّه .

وبسنده عن قتادة قال : ذكر لنا أنه بيت المقدس ، أتى عليه عزير بعد ما خرّبه بختنصّر البابلي .

وبسنده عن عكرمة قال : القرية بيت المقدس ، مرّ بها عزير بعد إذ خرّبها بختنصّر .

وبسنده عن الربيع : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ قال : القرية بيت المقدس مرّ عليها عزير وقد خرّبها بختنصّر .

قال ابن كثير : اختلفوا في هذا المرّ يعني على القرية - من هو ؟ فروى ابن أبي حاتم عن عصام بن داود عن آدم بن أبي إياس عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب

أنه قال : هو عزير ، وحكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدّي وسليمان بن بريدة ، وهذا القول هو المشهور .

وأمّا القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مرّ عليها بعد تخريب بختنصّر لها وقتل أهلها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أي ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوى خوية .

وقال القرطبي : قال سليمان بن بريدة وناجية بن كعب وقتادة وابن عباس والربيع وعكرمة والضحّاك : الذي مرّ على القرية هو عزير . وقال وهب بن منبّه وعبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الله بن بكر بن مضر : هو أروميا وكان نبيّا .

والقرية المذكورة هي بيت المقدس ، في قول وهب بن منبّه وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم .

وقال الشوكاني : والمشهور أن القرية هي بيت المقدس بعد تخريب بختنصّر لها ، وقيل المراد بالقرية أهلها . وقوله ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة على عروشها ، أي سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه ، قاله السدّي واختاره ابن جرير ، وقيل معناه خالية من الناس والبيوت قائمة ، واصل الخواء الخلوّ .

قلت : هذا هو خلاصة ما قاله المفسّرون في تحديد ﴿ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ والتعريف بالذي مرّ عليها في زمن خوائها وقد اختلفوا في المارّ عليها ، فقال بعضهم : هو عزير ، وقال آخرون إنه أروميا بن حليقا والله أعلم .

القريـــة : كالذي قبله : المقصود بالقرية في الآية الكريمة الآتية : مكة .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (١) .

قال ابن جرير : يعني بذلك أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، يقولون في دعائهم ربّهم بأن ينجيهم من فتنة من قد استضعفهم من المشركين : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ .

والعرب تسمّى كل مدينة (قرية) - يعني : التي قد ظلمتنا وأنفسها أهلها - وهي في هذا الموضع ، فيما فسّر أهل التأويل ، (مكة) .

وروى بسنده عن مجاهد في قول الله : ﴿ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ ، قال : أمر المؤمنين أن يقاتلوا عن مستضعفي المؤمنين ، كانوا بمكة .

وبسنده عن السدّي ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ يقول : وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي المستضعفين ، وأمّا القرية فمكة .

---

(١) سورة النساء الآية رقم : ٧٥ .

وبسنده عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ هم أناس كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها ليهاجروا ، فعذرهم الله فهم أولئك ، وقوله : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ ، فهي مكة .

وبسنده عن ابن زيد ، قال و ﴿ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ مكة .

وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ القرية هنا مكة بإجماع المتأوّلين ، ووصفها بالظلم وإن كان الفعل للأهل لعلقة الضمير .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ يحرّض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرّمين من المقام بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ يعني مكة .

قال البخاري : حدّثنا عبد الله بن محمد حدّثنا سفيان عن عبيد الله قال سمعت ابن عباس قال : كنت أنا وأمّي من المستضعفين .

وحدّثنا سليمان بن حرب قال حدّثنا حمّاد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ قال كنت أنا وأمّي ممّن عذر الله عزّ وجلّ .

وقال الشوكاني في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا ﴾ فإنه يشعر باختصاص ذلك : بالمستضعفين الكائنين في مكة لأنه قد أجمع المفسّرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها مكة .

قلت : يتبيّن ممّا تقدّم أن المقصود بالقرية التي جاء ذكرها في الآية الكريمة المتقدّمة هي مكة ، وقد حكى بعض المفسّرين إجماع أهل التفسير عليه .

قريــــة : كالذي قبله : المقصود به هذه الآية قرية قوم شعيب عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾[1] .

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾ ، يعني بالملأ الجماعة من الرجال ، ويعني بالذين استكبروا تكبّروا عن الإيمان بالله ، والانتهاء إلى أمره ، واتّباع رسوله شعيب ، لمّا أنذره شعيب بأس الله ، على خلافهم أمر ربّهم وكفرهم به، ﴿ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ ﴾ ، ومن تبعك وصدّقك وآمن بك وبما جئت به معك ، ﴿ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ ﴾ يقول : لترجعنّ أنت وهم في ديننا وما نحن عليه . قال شعيب مجيبا لهم : ﴿ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ .

---

(١) سورة لأعراف الآية رقم : ٨٨ .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : هذا خبر من الله تعالى عمّا واجهت به الكفّار نبيّه شعيبا ومن معه من المؤمنين في وعده إيّاهم ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملّتهم والدخول معهم فيما هم فيه ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملّة ، وقوله ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴾ يقول : أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنّا كارهين ما تدعونا إليه فإنّا إن رجعنا إلى ملّتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله ، في جعل الشركاء معه أندادا وهذا تنفير منه عن اتباعهم .

قلت : سيأتي الحديث مستوفى عن مدين في رسمه إن شاء الله فانظره .

قريـــــة : كالذي قبله : قيل : هي أيلة ، وقيل : مقنا ، وقيل : إيلياء ، وقيل : طبرية ، وقيل غير ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ (١).

قال ابن جرير : يقول الله تعالى ذكره : واسأل ، يا محمد ، هؤلاء اليهود وهم مجاوروك ، عن أمر ﴿ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ ، يقول : كانت بحضرة البحر ، أي : بقرب البحر وعلى شاطئه .

واختلف أهل التأويل ، فقال بعضهم : هي (أيلة) .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : هي قرية يقال لها أيلة ، بين مدين والطور .

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ١٦٣ .

وبسنده عن عبد الله بن كثير قال : سمعنا أنها أيلة .

وبنسده عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : هي قرية على شاطئ البحر ، بين مصر والمدينة ، يقال لها (أيلة) .

وبسنده عن السدّي قال : هم أهل أيلة القرية التي كانت حاضرة البحر .

وقال آخرون : هي مقنا .

وروى بسنده عن ابن زيد في قوله : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَـةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ قال : هي قرية يقال لها (مقنا) بين مدين وعينونى .

وقال آخرون : هي مدين .

وقال ابن كثير : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَـةِ ﴾ ، هذه القرية هي أيلة ، وهي على شاطئ بحر القلزم ، وقال بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَـةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ قال هي قرية يقال لها أيلة ، بين مدين والطور ، وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدّي . وقال عبد الله بن كثير القارئ : سمعنا أنها أيلة ، وقيل : هي مدين وهو رواية عن بن عباس ، وقال ابن زيد : هي قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونى .

وقال القرطبي : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَـةِ ﴾ أي عن أهل القرية ، فعبّر عنهم بها لمّا كانت مستقرّا لهم أو سبب اجتماعهم .

واختلف في تعيين هذه القرية ، فقال ابن عباس وعكرمة والسدّي : هي أيلة . وعن ابن عباس أيضا أنها مدين بين أيلة والطور .

وعن الزهري : طبريّة . وعن قتادة وزيد بن أسلم : هي ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونى ، يقال لها مقناة ، وكان اليهود يكتمون هذه القصّة لما فيها من السبّة عليهم .

وقال الشوكاني : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَـةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ اختلف أهل التفسير في هذه القرية : أيّ قرية هي ؟ فقيل أيلة ، وقيل طبريّة ، وقيل مدين ، وقيل إيلياء ، وقيل قرية من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر : أي كانت بقرب البحر .

قلت : فيما تقدّم نرى اختلافا بين المفسّرين في أيّ قرية كانت هذه القرية التي ورد ذكرها في الآية الكريمة ، فقال بعضهم : هي أيلة، وأيلة مدينة كانت على رأس خليج العقبة وكانت لها شهرة تاريخية وقد اندرست ، وحلّت مكانها مدينة (العقبة) في هذا العهد ، وقد استوفيت الحديث عنها في كتابي (معجم أمكنة البخاري) في رسم (أيلة) .

وقال بعضهم : هي مقنا وبلدة مقنا واقعة على ساحل خليج العقبة الشرقي ، جنوبا من العقبة . ومدينة أيلة وبلدة مقنا من البلدان التي صالحها النبي ﷺ أثناء غزوته إلى تبوك .

قال الواقدي : قالوا وكتب- يعني رسول الله ﷺ- لأهل مقنا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم .

وقال ياقوت : مقنا : قرب أيلة صالحهم النبي ﷺ ، على ربع عروقهم ، والعروق حيث يصطاد عليه وعلى أن يعجّل منه ربع كراعهم وخلفتهم ، وقال الواقدي : صالحهم على عروقهم وربع ثمارهم وكانوا يهودا .

أمّا طبريّة فإنها مدينة معروفة ببلاد الشام ، وأمّا مدين فإنها تقع على ساحل البحر الأحمر وقد استوفيت الحديث عنها في كتابي هذا في رسم (مدين) .

أمّا إيلياء فإنني قد استوفيت الحديث عنها في كتابي (معجم أمكنة البخاري) في رسم (إيلياء) وهي في بلاد فلسطين .

هذا ما ذكره المفسّرون والمؤرخون عن هذه القرية التي كانت حاضرة البحر .

القريـــــة : كالذي قبله : المقصود به قرية نينوى في الموصل من أرض العراق .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1] .

قال ابن جرير ، قال ابن عباس : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ ﴾ ، يقول : لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذ نزل بها بأس الله ، إلا قرية يونس . قال ابن جرير ، قال مجاهد : فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها كما نفع قوم يونس إيمانهم إلا قوم يونس .

وذلك أنهم لمّا فقدوا نبيّهم وظنّوا أن العذاب قد دنا منهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح ، وفرّقوا بين كلّ بهيمة وولدها ، ثم عجّوا إلى الله أربعين ليلة .

---

(١) سورة يونس الآية رقم : ٩٨ .

فلمّا عرف الله الصّدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلّى عليهم . قال : وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل .

قال ابن كثير في تفسير الآية : والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيّهم ممّن سلف من القرى إلا قوم يونس ، وهم أهل نينوى ، وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذا ب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه .

واختلف المفسّرون هل كشف عنهم العذاب الأخرويّ مع الدنيويّ أو إنّما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين : أحدهما ، إنّما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيّد في هذه الآية . والثاني ، فيهما لقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخرويّ وهذا هو الظاهر والله أعلم .

وقال قتادة : وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل ، وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف .

وقال القرطبي : وروى في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسّرين : أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام فارسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا ، فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم ، فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصبّحهم إلى ثلاث ففعل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك . فلمّا كان الليل تزوّد يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا

ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرّقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردّوا المظالم في تلك الحالة .

وروى عن ابن عباس أنهم غشيتهم ظلّة وفيها حمرة فلم تزل تدنوا حتى وجدوا حرّها بين أكتافهم ، وقال ابن جبير : غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر ، فلمّا صحّت توبتهم رفع الله عنهم العذاب .

وقال ابن الأثير : يونس بن متّى : كان أمره من الأحداث أيام ملوك الطوائف . قيل : لم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمّه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متّى ، وهي أمّه ، وكان في قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى ، وكان قومه يعبدون الأصنام فبعثه الله إليهم بالنهي عن عبادة الأصنام والأمر بالتوحيد ، فأقام فيهم ثلاثا وثلاثين سنة يدعوهم فلم يؤمن غير رجلين ، فلمّا أيس من إيمانهم دعا عليهم ، فقيل له : ما أسرع ما دعوت على عبادي (ارجع إليهم فادعهم أربعين يوما فدعاهم سبعة وثلاثين يوما ، فلم يجيبوه فقال لهم : إنّ العذاب يأتيكم إلى ثلاثة أيام . وآية ذلك أن ألوانكم تتغيّر ، فلمّا أصبحوا تغيّرت ألوانهم فقالوا : قد نزل بكم ما قال يونس ولم نجرّب عليه كذبا فانظروا فإن بات فيكم فآمنوا من العذاب ، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب يصبّحكم .

فلمّا كان ليلة الأربعين أيقن يونس بنزول العذاب ، فخرج من بين أظهرهم . فلمّا كان الغد تغشّاهم العذاب فوق رؤوسهم ، خرج عليهم غيم أسود هائل يدخّن دخّانا شديدا ثم نزل إلى المدينة فاسودّت منه سطوحهم ، فلمّا رأوا العذاب أيقنوا بالهلاك ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فألهمهم الله توبة فأخلصوا النيّة في ذلك وقصدوا شيخا وقالوا له : قد نزل بنا ما ترى فما نفعل ؟ فقال : آمنوا بالله وتوبوا وقولوا : يا حيّ يا قيّوم ، يا حيّ حين لا حيّ ، ياحيّ محيى

الموتى ، يا حيّ لا إله إلا أنت . فخرجوا من القرية إلى مكان رفيع في براز من الأرض وفرّقوا بين كلّ دابّة وولدها ثم عجّوا إلى الله واستقالوه وردّوا المظالم جميعا ، حتى إن كان أحدهم ليقلع الحجر من بنائه فيردّه إلى صاحبه .

وقال القزويني : نينوى بلاد وقرى كانت بشرقي دجلة عند الموصل . في قديم الزمان بعث الله تعالى إليهم يونس النبي ، عليه السلام ، فدعاهم إلى الله تعالى فكذّبوه ، فخوّفهم بعذاب الله في وقت معيّن وفارقهم.

فلمّا دنا ذلك الوقت وشاهدوا آثار عذاب الله خرجوا بالنساء والذرارى إلى تلّ هناك في شرقي دجلة ، وكشفوا رؤوسهم وتابوا وآمنوا، فكشف الله عنهم العذاب ، والتلّ باق إلى الآن ويسمّى تلّ التوبة وعليه مشهد مقصود ينذر له ويقصده الناس كلّ ليلة جمعة .

قلت : نينوى مدينة من الموصل في شمال العراق ما زالت معروفة بهذا الاسم ، وترسم به على الخرائط الجغرافية لدولة العراق .

القريـــة : كالذي قبله : المراد به في هذه الآيات قرية قوم لوط (سدوم) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [1].

وقال تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [2].

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ٨٢ .
(٢) سورة الأنبياء الآية رقم : ٧٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٣).

قال ابن جرير : يقول تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ **يقول تعالى ونجيناه من عذابنا الذي أحللناه بأهل القرية التي كانت تعمل الخبائث وهي قرية (سدوم) التي كان لوط بعث إلى أهلها ، وكانت الخبائث التي يعملونها : إتيان الذكران في أدبارهم ، وخذفهم الناس ، وتضارطهم في أنديتهم ، مع أشياء أخر كانوا يعملونها من المنكر ، فأخرجه الله حين أراد هلاكهم إلى الشام .**

وروى بسنده عن السدّي ، قال : أخرجهم الله ، يعني لوطا وابنتيه زيثا زعرثا إلى الشام حين أراد إهلاك قومه .

وقال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ **يقول تعالى ذكره : ولقد أتى هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجورا على القرية التي أمطرها الله مطر السوء ، وهي سدوم قرية قوم لوط .**

---

(١) سورة الفرقان الآية رقم : ٤٠ .
(٢) سورة النمل الآية رقم : ٥٦ .
(٣) سورة العنكبوت الآية رقم : ٣٤ .

وروى بسنده عن ابن جريج : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ قال : حجارة وهي قرية قوم لوط واسمها سدوم .

وقال ابن عباس : خمس قريات فأهلك الله أربعة ، وبقيت الخامسة واسمها صعوة ، لم تهلك ، صعوة كان أهلها لا يعملون ذلك العمل ، وكانت سدوم أعظمها ، وهي التي نزل بها لوط ومنها بعث ، وكان إبراهيم عليه السلام ينادي نصيحة لهم : يا سدوم يوم لكم من الله ، أنهاكم أن تعرّضوا لعقوبة الله ، وزعموا أن لوطا ابن أخي إبراهيم صلوات الله عليهما .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ يعني قرية قوم لوط ، وهي سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجّيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ .

وقال القرطبي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ﴾ يعني مشركي مكة ، والقرية قرية قوم لوط . ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ﴾ أي في أسفارهم ليعتبروا .

قال ابن عباس : كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمرّ بمدائن قوم لوط ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ .

وقال ياقوت : سدوم : فعول من السّدم ، وهو الندم مع غمّ ، قال أبو منصور : مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له : سدوم ، وقال أبو حاتم في كتاب المزال والمفسد : إنّما هو سذوم ، بالذال المعجمة ، قال : والدال خطأ . قال الأزهري : وهو الصحيح أعجميّ ، وقال الشاعر .

كذلك قوم لوط حين أضحوا كعصف في سدومهم رميم

وهذا يدل على أنه اسم البلد لا اسم القاضي ، إلا أنّ قاضيها يضرب فيه المثل فيقال : أجور من قاضي سدوم . وذكر الميداني في كتاب الأمثال أن سدوم هي سرمين بلدة من أعمال حلب معروفة عامرة عندهم ، وكان من جوره أنه حكم على أنه إذا ارتكبوا الفاحشة من أحد أخذ منه أربعة دراهم ثم أورد ياقوت شعر أميّة ابن أبي الصلت - وسيأتي .

وقال ابن الأثير في خبر قوم لوط وما حلّ بهم من العذاب : مضت الملائكة نحو سدوم قرية لوط ، فلمّا انتهوا إليها لقوا لوطا في أرض له يعمل فيها ، وقد قال الله تعالى لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فأتوه فقالوا : إنّا متضيّفوك الليلة ، فانطلق بهم فلمّا مشى ساعة التفت إليهم فقال لهم : أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ والله ما علم على ظهر الأرض إنساناً أخبث منهم ، حتى قال ذلك أربع مرّات ... ونجّى الله لوطا وأهله إلا امرأته . وذكر أنه كان فيها أربعمائة ألف . وكان إبراهيم يشرف عليها ويقول : سدوم يوما هالك . ومدائن قوم لوط خمس : سدوم وصبعة وعمرة ودوما وصعوة ، وسدوم هي القرية العظمى .

وقال القزويني : سدوم . قصبة قرى قوم لوط . وهي بين الحجاز والشام ، كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياها وأشجارا وحبوبا وثمارا، والآن عبرة للناظرين، وتسمّى المقلوبة لا زرع بها ولا ضرع ولا حشيش ويقيت بقعة سوداء فرشت فيها حجارة ، ذكر أنها الحجارة التي أمطرت عليهم وعلى عامّتها الطابع ، قال أميّة بن أبي الصّلت :

ثمّ لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها

راودوه عن ضيفه ثم قالوا: قد نهيناك أن تقيم قراها

عرض الشيخ عند ذاك بنات كضباء بأجرع ترعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا: أيّها الشيخ خطبة نأباها
عزم القوم أمرهم وعجوز خيّب الله سعيها ورجاها
أرسل الله عند ذاك عذابا جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصب ثم طين ذي حروف مسوّم رماها

وفي الروض المعطار : سدوم : مدينة من مدائن قوم لوط ، وهي وما حولها المؤتفكات وكان خمس قريات ، وسدوم هي القرية العظمى ، وهي كلها خراب لا أنيس بها ، وإلى أهلها أرسل الله سبحانه نبيّه لوطا عليه السلام ، والحجارة الموسومة موجودة فيها يراها السفر سوداء برّاقة . وكان في كلّ قرية منها مائة ألف ، ويضرب المثل بجور أحكام قاضي سدوم وهي بأرض الشام .

وسدوم هذه هي القرية التي أمطرت مطر السّوء المذكور في سورة الفرقان ، لأنها رجمت .

قالوا : أدخل جبريل عليه السلام جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط فقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصراخ الديكة ، ثم قلبها دفعة واحدة وضرب بها على الأرض وأمطرت عليهم حجارة من سجّيل .

وكانت هذه القرى بين المدينة والشام ومنها صبعة وصعوة وعمرة وسدوم ودوما وهي المدينة العظمى ، وقال بعض المفسّرين : سدوم هي القرية التي كانت تعمل الخبائث ، وسدوم موضع بالشام كان قاضيه يضاف إلى الجور فيقال في المثل : أجور من قاضي سدوم؛ ويقال أيضا : أجور من سدوم ، قال عمرو بن دراك العبدي - :

وإنّي إن قطعت حبال قيس وحالفت المزون على تميم
لأعظم فجرة من أبي رغال وأجور في الحكومة من سدوم

أهلكها الله فيما أهلك منها ، وقيل : كان سدوم ملكا وبه سمّيت المدينة ، وكان من أجور الناس .

وفي نخبة الدهر : ومن البحيرات المالحة بحيرة زغر المنتنة ، وبقعتها بين جانبي الغور من الشام ، ولا حيوان واحد بها ، وطولها سبع فراسخ ، وعرضها الأعرض نحو ثلاث فراسخ ، ويخرج منها قفر اليهود وهو الحمّر ، وقيل : إن طولها ستون ميلا وعرضها اثني عشر ميلا وهو الصحيح .

وكان لها خمس مدن أسماؤهم : صعدة ، صعبة ، عمرة ، دوما ، سدوم وسدوم أكبرهم وهي أصلهم في الفساد .

قلت : وفيما قاله صاحب نخبة الدهر نجد أنه يرى أن البحيرة المالحة (بحيرة زغر) البقعة التي أهلك فيها قوم لوط ، وهذه البحيرة تذكر بعدّة أسماء : البحيرة المالحة ، بحيرة زغر ، بحيرة لوط ، البحر الميّت ، البحيرة المنتنة .

وقال ابن خرداذبة : ومن البيت المقدّس إلى البحيرة المنتنة بلا شك أربعة أميال ، ويخرج من البحيرة المنتنة ملح يصلح للصاغة وفير يسمّى الحمّر وهو قفر اليهود ، ويقال للنهر الذي يصبّ في البحيرة المنتنة الأردن .

وقال المسعودي : وزغر من أرض الغور ، وهي أرض البحيرة المنتنة التي لا تقبل الغرقي ، ولا يتكوّن فيها ذو روح من سمك ولا

غيره .. وإليها ينتهي ماء بحيرة طبريّة ، وهو الأردن .. فإذا انتهى مصبّ نهر الأردن إلى البحيرة المنتنة خرقها وانتهى إلى وسطها متميّزا عن مائها ، فيغوص في وسطها ، وهو نهر عظيم فلا يدري أين غاص من غير أن يزيد في البحيرة ولا ينقص منها ، ولهذه البحيرة - أعني المنتنة - أخبار عجيبة وأقاصيص طويلة .

قلت : فيما تقدّم من أقوال المفسّرين والمؤرخين نرى أنهم لم يختلفوا في موقع بلاد قوم لوط وأنّها واقعة بين نهاية الجزيرة العربية من الشمال الغربي وبين بلاد الشام ويرجّح بعضهم أن (البحر الميت) المعروف بين الأردن وفلسطين هو البقعة التي أهلك الله بها قوم لوط .

وفي القاموس الإسلامي ، قال : بحر لوط ، وأطلق على البحر الميّت كما عرف بالبحيرة الميّتة أو المنتنة ، وأشارت بعض كتب التفسير إلى أن هذا البحر لم يكن موجودا قبل الأحداث التي جرت لقوم لوط ، وأنه تكوّن نتيجة للزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها .

وقال عفيف طبّارة : ولمّا حلّ العذاب الذي قدّره الله وقضاه ، جعل عالي القرية التي كان يعيش بها قوم لوط سافلها ، وأمطر عليهم في أثناء ذلك حجارة من طين متحجّر صلب . قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

والبقعة التي أصابها العذاب هي البقعة التي تعرف اليوم بالبحر الميّت أو بحيرة لوط ، ويرى بعض العلماء أن البحر الميّت لم يكن موجودا قبل هذا الحادث وإنّما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر .

وقد جاءت الأخبار في السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميّت .

وقال الصابوني : لوط عليه السلام أرسله الله تعالى إلى أهل (سدوم) في دائرة الأردن ، وليس في قومه الذين أرسل إليهم نسب لأنه ليس من القبيلة ، ولعلّ التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ يدل على ذلك حيث لم يذكر أنه أرسل منهم .

وكان لوط عليه السلام قد نزح من محلّة عمّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، بأمره وأذنه فنزل بمدينة (سدوم) في أطراف شرق الأردن وكان قومها من أفجر الناس وأكثرهم وأخبثهم طويّا ، وأقبحهم سيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ... فأهلكهم الله بأنواع العذاب .

ويقول بعض المؤرخين : أن البحر الميّت ، المعروف الآن ببحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث ، وإنّما حصل من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر .

وقد أثبتت الاكتشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميّت .

قلت : وهكذا نجد أن المتأخرين من المفسّرين والمؤرخين يتفقون على أن (البحر الميّت) هو البقعة التي أهلك الله فيها قوم لوط ونزل بهم عذابه فيها وفي رسم (المؤتفكة) مزيد من الإيضاح .

القريـــــة : كالذي قبله : المقصود بالآية الكريمة مصر أو إحدى قراها .

قال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ (١) .

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ﴾ حققوا بها شهادتهم عنده ، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتّهمهم ، فقولهم : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي أهلها فحذف ، ويريدون بالقرية مصر .

وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها .

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ قيل : المراد مصر ، قاله قتادة ، وقيل غيرها .

وقال ابن جرير : (فسأل القرية التي كنّا فيها) ، وهي مصر ، يقول : سل من فيها من أهلها .

وروى بسنده عن قتادة قوله : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ وهي مصر .

وبسنده عن ابن عباس قال : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ قال : يعنون مصر .

وقال الشوكاني : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ هذا من تمام قول كبيرهم لهم : أي قولوا لأبيكم اسأل القرية التي كنّا فيها أي : مصر ، والمراد أهلها : أي اسأل أهل القرية . وقيل : هي قرية من

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٨٢ .

قرى مصر نزلوا فيها ومتاروا منها ، وقيل المعنى : واسأل القرية نفسها وإن كانت جمادا فإنك نبيّ الله ، والله سبحانه سينطقها فتجيبك .

قال ابن الأثير : قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ العير عن مصر حملت الريح إلى يعقوب ، ريح يوسف ، و بينهما ثمانون فرسخا . يوسف بمصر ويعقوب بأرض كنعان ، قال يعقوب : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ .

قال : ثم ارتحل يعقوب وولده ، فلمّا دنا من مصر خرج يوسف يتلقّاه ومعه أهل مصر ، وكانوا يعظّمونه ، فلمّا دنا أحدهما من صاحبه نظر يعقوب إلى الناس والخيل ، وكان يعقوب يمشي ويتوكّأ على ابنه يهودا ، فقال له : يا بنيّ هذا فرعون مصر . قال : لا ، هذا ابنك يوسف . فلمّا قرب منه أراد يوسف أن يبدأه بالسلام ، فمنع من ذلك ، فقال يعقوب : السلام عليك يا مذهب الأحزان ، لأنه لم يفارقه الحزن والبكاء مدّة غيبة يوسف عنه .

قال : فلمّا دخلوا مصر رفع أبويه ، يعني أمّه وأباه ، وقيل : كانت خالته ، وكانت أمّه قد ماتت ، وخرّ له يعقوب وأمّه وإخوته سجّدا ، وكان السجود تحية الناس للملوك ، ولم يرد بالسجود وضع الجبهة على الأرض ، فإن ذلك لا يجوز إلا لله تعالى ، وإنّما أراد الخضوع والتواضع والانحناء عند السلام ، كما يفعل الآن بالملوك ، والعرش : السرير .

وكان بين رؤيا يوسف ومجيء يعقوب أربعون سنة ، وقيل : ثمانون سنة .

قلت : يتّضح ممّا تقدّم من أقوال المفسّرين والمؤرخين أن القرية المقصودة في هذه الآية الكريمة هي مصر أو إحدى قراها وقد اتفق عليه .

القريـــة : كالذي قبله : والمقصود به مكة المكرمة ، وقيل : المدينة .

قال الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[1].

قال ابن جرير : يقول الله تعالى ذكره : ومثّل الله مثلا لمكة التي سكانها أهل شرك بالله هي القرية التي كانت آمنة ، مطمئنّة ، وكان أمنها أن العرب كانت تتعادى ، ويقتل بعضهم بعضا ويسبي بعضهم بعضا ، وأهل مكة لا يغار عليهم ولا يحاربون في بلدهم ، فذلك كان أمنها .

وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ يعني : قارّة بأهلها لا يحتاج أهلها إلى النّجع، كما كان سكان البوادي يحتاجون إليها ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ يقول: يأتي أهلها معايشهم واسعة كثيرة ، وقوله ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يعني : من كل فجّ من فجاج هذه القرية ، ومن كل ناحية فيها .

وبنحو الذي قلنا في أن القرية التي ذكرت في هذا الموضع أريد بها مكة ، قال أهل التأويل :

وروى بسنده عن ابن عباس ، في قوله ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يعني : مكة .

وروى بسنده عن مجاهد ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ قال : مكة .

---

(١) سورة النحل الآية رقم : ١١٢ .

وروى بسنده عن قتادة في قوله ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ قال : ذكرنا أنها مكة .

وروى بسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾ قال : هذه مكة .

وقال آخرون : بل القرية التي ذكر الله في هذا الموضع مدينة الرسول .

وروى بسنده أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي ، حدّث أنه سمع مشرح بن عاهان ، يقول : سمعت سليم بن نمير يقول : صدرنا من الحجّ مع حفصة زوج النبي ﷺ ، وعثمان محصور بالمدينة ، فكانت تسأل عنه ما فعل ، حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما ، فقالا : قتل ، فقالت حفصة : والذي نفسي بيده إنها القرية ، تعني المدينة التي قال الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ قرأها .

قال أبو شريح : وأخبرني عبد الله بن المغيرة عمّن حدّثه ، أنه كان يقول : إنها المدينة .

وقال ابن كثير في تفسير الآية : هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنّة مستقرّة ، يتخطّف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا لا يخاف كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ هكذا قال ههنا

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أي هنيئا سهلا ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ ولهذا بدّلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العهلز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه ، وقوله ﴿ وَٱلْخَوْفِ ﴾ وذلك أنهم بدّلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم لرسول الله ﷺ الذي بعثه فيهم منهم وامتنّ به عليهم .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال : (اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف) ، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، ووجّه إليهم رسول الله ﷺ طعاما ففرّق فيهم . ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾ لا يهاج أهلها ، ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر ، نظيره ، ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الآية ، ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ الأنعم : جمع نعمة ، وقيل : جمع نعمى . وهذا الكفران تكذيب

بمحمد ﷺ ، ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ ﴾ أي أذاق أهلها ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ سمّاه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ أي من الكفر والمعاصي .

وقد قيل : إنها المدينة ، آمنت رسول الله ﷺ ، ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان بن عفان ، وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن ، وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي ﷺ .

وقيل : إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى .

قلت : هذا ما قاله المفسّرون عن القرية ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وقد اختلف في هذه القرية ، أهي مكة المكرّمة أم إنها المدينة ؟ ويترجّح من أقوالهم أن المقصود بالآية الكريمة مكة حرسها الله . ويرى بعضهم أن ذلك مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة .

قريـــــة : كالذي قبله : قيل : الأبلّة ، وقيل : أيلة ، وقيل : باجروان ، وقيل غير ذلك .

قال الله تعالى في خبر موسى والخضر : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (١) .

قال ابن جرير : قيل : إن القرية التي استطعما أهلها موسى وصاحبه فأبوا أن يضيّفوهما : الأيلة .

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٧٧ .

وروى بسنده عن محمد بن سيرين ، قال : انتابوا الأيلة ، فإنه قلّ من يأتيها فيرجع منها خائباً ، وهي الأرض التي أبوا أن يضيّفوهما ، وهي قلّ من يأتيها فيرجع منها خائبا ، وهي أبعد أرض الله من السماء .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ وتلا إلى قوله : ﴿ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ شرّ القرى التي لا تضيّف الضيف ، ولا تعرف لابن السبيل حقّه .

وقوله : ﴿ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ يقول : قال موسى لصاحبه : لو شئت لم تقم لهؤلاء القوم جدارهم حتى يعطوك على إقامتك أجرا ، فقال بعضهم إنما عنى موسى بالأجر الذي قال له ﴿ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ القرى : أي حتى يقرونا فإنهم قد أبوا أن يضيّفوهما .

وقال القرطبي : واختلف العلماء في القرية ، فقيل : هي أبلّة ، قال قتادة ، وكذلك قال محمد بن سيرين وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء . وقيل : أنطاكية . وقيل : بجزيرة الأندلس ، روي ذلك عن أبي هريرة وغيره ، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء .

وقالت فرقة : هي باجروان وهي بناحية أذربيجان . وحكى السهيلي وقال : إنها برقة . قال الثعلبي : هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة ، وإليها تنسب النصارى ، وهذا كله بحسب الخلاف في أيّ ناحية من الأرض كانت قصّة موسى . والله أعلم بحقيقة ذلك .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ روى ابن جرير عن ابن سيرين أنها الأيكة .

وقال القزويني : شروان : ناحية قرب باب الأبواب ، وهي ناحية مستقلة بنفسها يقال لملكها اخستان . ذهب بعضهم إلى أن قصّة موسى والخضر ، عليهما السلام كانت بها ، وأن الصخرة التي نسي يوشع عليه السلام ، الحوت عندها بشروان ، والبحر بحر الخزر ، و القرية التي لقيا فيها غلاما فقتله قرية جيران ، والقرية التي استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيه جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه باجروان ، وهذه كلها من نواحي أرمينية قرب الدّربند ، ومن الناس من يقول إنها كانت بأرض أفريقية .

قلت : فيما قاله المفسّرون والمؤرخون اختلاف واسع في تحديد القرية التي استضاف موسى والخضر عليهما السلام ، أهلها أبوا أن يضيّفوهما .أهي الأيلة ، أم هي الأبلّة ، أم أنها باجروان ، أم أنها بلدة في أفريقية؟ أو أنها غير ذلك، وفي رسم ﴿ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ ورسم ﴿ ٱلصَّخْرَةِ ﴾ مزيد من الإيضاح بشأن سفر موسى والخضر عليهم السلام.

قريـــــة : كالذي قبله : لم أر قرية مقصودة بذلك فيما قاله المفسّرون .

قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [1].

قال ابن كثير : يقول تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس وجب يعني قد قدّر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، هكذا صرّح به ابن عباس وأبو

(١) سورة الأنبياء الآية رقم : ٩٥ .

جعفر الباقر وقتادة وغير واحد ، وفي رواية عن ابن عباس أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الأول أظهر والله أعلم .

وقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فلا يرجع منهم راجع ، ولا يتوب منهم تائب .

وبسنده عن عكرمة ، قال : لم يكن ليرجع منهم راجع حرام عليهم ذلك .

قلت : هذا ما قاله المفسّرون في تأويل هذه الآية الكريمة ، ويبدو لي أن (القرية) في هذه الآية اسم جنس لا يختص بقرية معيّنة وإنّما يراد به كل قرية أهلكها الله بعذابه .

القريـــة : كالذي قبله : هي مدينة أنطاكية ، وقيل غيرها .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ومثّل يا محمد لمشركي قومك مثلا أصحاب القرية ، ذكر أنها أنطاكية ﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ اختلف أهل العلم في هؤلاء الرسل ، وفيمن كان أرسلهم إلى أصحاب القرية ، فقال بعضهم : كانوا رسل عيسى ابن مريم ، وعيسى الذي أرسلهم إليهم .

---

(١) سورة يس الآية رقم : ١٣-١٤ .

وروى بسنده عن قتادة ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ قال : ذكرنا لنا أن عيسى ابن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية مدينة بالروم فكذّبوهما ، فأعزّهما بثالث ، ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ .

وروى بسنده عن السدّي عن عكرمة ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ قال : أنطاكية .

وقال آخرون : بل كانوا رسلا أرسلهم الله إليهم .

وروى بسنده عن ابن عباس وعن كعب الأحبار ، وعن وهب بن منبّه ، قال : كان بمدينة أنطاكية ، فرعون من الفراعنة يقال له أبطيخس ابن أبطيخس يعبد الأصنام ، صاحب شرك ، فبعث الله المرسلين ، وهم ثلاثة : صادق ومصدوق وسلوم ، فقدم إليه وإلى أهل مدينته منهم اثنان فكذّبوهما ، ثم عزّز الله بثالث ، فلمّا دعته الرسل ونادته بأمر الله ، وصدعت بالذي أمرت به وعابت دينه وما هم عليه ، قال لهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ يقول تعالى ذكره : حين أرسلنا إليه فكذّبوهما فشددناهما بثالث ، وقوّيناهما به . واختاره ابن جرير .

قال ابن كثير : يقول تعالى : واضرب يا محمد لقومك الذين كذّبوك ﴿ مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار

ووهب ابن منبّه أنها مدينة أنطاكية وكان بها ملك يقال له أنطيخس ابن أنطيخس ابن أنطيخس وكان يعبد الأصنام فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذّبهم وهكذا روى بريدة ابن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهري أنها أنطاكية ؛ وقد استشكل بعض الأئمّة كونها أنطاكية ، وفي ذلك نظر من وجوه أحدها : أن ظاهر القصّة على أن هؤلاء كانوا رسل الله عزّ وجلّ لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ إلى أن قالوا: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهنّ بتاركة ، وهنّ (القدس) لأنها بلد المسيح (وأنطاكية) لأنها أوّل بلد آمنت بالمسيح عن آخر أهلها (والإسكندرية) لأنها فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين ثم (رومية) لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده ، ولمّا إبتنى القسطنطينيّة نقلوا البترك من رومية إليها ذكره غير واحد ممّن ذكروا تواريخهم كسعيد ابن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين .

فإذا تقرّر أنّ أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من

السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، وذكروه عند قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ فعلى هذا يتبيّن أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا ، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذه القصّة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملّة النصرانيّة ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

قلت : فيما تقدّم نرى أن ابن كثير استدرك على الذين أجمعوا من المفسّرين على أن (أنطاكية) هي القرية التي ورد ذكرها في الآية الكريمة (واضرب مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) وقد بنى استدراكه هذا على استنتاجات جيّدة وساق حديثه فيها ببراعة والله أعلم .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ خطاب للنبي ﷺ ، أمر أن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية هذه القرية هي أنطاكية في قول جميع المفسّرين ، فيما ذكر الماوردي . نسب إلى أهل أنطبيس وهو اسم الذي بناها ثم غيّر لمّا عرّب ، ذكره السهيلي ويقال فيها : أنتاكية بالتاء بدل الطاء .

أمر النبي ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحلّ بهم ما حلّ بكفّار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل .

وتحدّث ياقوت عن أنطاكية حديثا طويلاً شاملاً لا يتّسع مقامنا هذا لكل ما ورد فيه ، قال فيه : أنطاكية بالفتح ثم السكون والياء مخفّفة ، وليس في قول زهير :

علـون بأنطاكـيّة فـوق عقمـة   وراد الحواشـي ، لونهـا لـون عنـدم

وقول امرئ القيس :

علـون بأنطاكـيّة فـوق عقمـة   كجـرمة نخـل أم كجـنّة يـثرب

دليل على تشديد الياء لأنها للنسبة وكانت العرب إذا أعجبها شيء نسبته إلى أنطاية ، قال الهيثم ابن عديّ : أوّل من بنى أنطاكية أنطيخس وهو الملك الثالث بعد الإسكندر ، وذكر يحيى ابن جرير المتطبّب التكريتي : أن أول من بنى أنطاكية أنطيغونيا في السنة السادسة من موت الإسكندر ولم يتمّها ، فإتمّها بعده سلوقوس ، وهو الذي بنى اللاذقية وحلب والرّها وأفامية .

وقيل : إن أوّل من بناها وسكنها أنطاكية بنت الروم ابن اليقن (اليغز) ابن سام بن نوح ، عليه السلام ، أخت أنطاكية باللام ، ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية ، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها ، وموصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهوى وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير .

وأمّا فتحها فإنّ أبا عبيدة بن الجراح سار إليها من حلب وقد تحصّن بها خلق كثير من أهل جند قنّسرين فلمّا صار بمهرويه على فرسخين من مدينة أنطاكية لقيه جمع من العدوّ ففضّهم وألجأهم إلى المدينة ، وحاصر أهلها من جميع نواحيها ، وكان معظم الجيش على باب فارس والباب الذي يدعى باب البحر ، ثم إنهم صالحوه على الجزية أو الجلاء فجلى بعضهم وأقام بعض منهم فأمّنهم ، ووضع على كل حالم دينارا وجريبا ثم نقضوا العهد فوجّه إليهم أبو عبيدة عياض ابن غنم وحبيب ابن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول .

ويقال : بل نقضوا بعد رجوع أبي عبيدة إلى فلسطين فوجّه عمرو بن العاص من إيلياء ففتحها ورجع ، ثم لم تزل بعد ذلك أنطاكية في أيدي المسلمين وثغرا من ثغورهم إلى أن ملكها الروم في سنة (٣٥٣) واستمرّت في أيديهم إلى أن استنقذها منهم سليمان بن قتلمس السلجوقي جدّ ملوك آل سلجوق في سنة (٤٧٧) فاستقام أمرها وبقيت في أيدي المسلمين إلى أن ملكها الافرنج من واليها بغيسفان التركي بحيلة تمت عليه وخرج منها فندم ومات من الغبن قبل أن يصل إلى حلب ، وذلك سنة (٤٩١) .

قريــــــة : كالذي قبله : المقصود بهذه القرية مكة حرسها الله .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [1] .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وكم يا محمد من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك ، يقول : أهلها أشدّ بأسا وأكثر جمعا ، وأعدّ عديدا من أهل قريتك ، وهي مكة . وأخرج الخبر عن القرية ، والمراد به أهلها .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ قال : هي مكة .

وروى بسنده عن ابن عباس أن نبيّ الله ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار ، أراه قال : التفت إلى مكة ، فقال : أنت أحبّ بلاد الله إلى الله ، وأنت أحبّ بلاد الله إليّ ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك . فأعتى الله الأعداء من عتا على الله في حرمه ، أو قتل غير

(١) سورة محمد الآية رقم : ١٣ .

قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية ، فأنزل الله جلّ ثناؤه ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ وقال جلّ ثناؤه : أخرجتك ، فأخرج الخبر عن القرية ، فلذلك أنّث ثم قال أهلكناهم ، لأن المعنى في قوله أخرجتك ، ما وصفت من أنه أريد به أهل القرية ، فأخرج الخبر مرّة على اللفظ ، ومرّة على المعنى .

وقال القرطبي : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ معناه وكم من أهل قرية ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي أخرجك أهلها . ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس : لمّا خرج النبي ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : اللهم أنت أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إليّ ولولا المشركون أهلك أخرجوني لما خرجت ، فنزلت الآية .

وقال ابن كثير : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ يعني مكة ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وهو سيّد الرسل وخاتم الأنبياء .

قلت : يتبيّن من سياق الآية الكريمة ومن أقوال المفسّرين في تفسيرها : أن المخاطب بهذه الآية النبي محمد ﷺ وأن المقصود بالقرية (مكة) البلد الحرام .

القــرى : بضم القاف المثناة وآخره ألف مقصور ، جمع قرية : قيل هي مكة وما حولها ، وقيل غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : ويقول تعالى ذكره : أفأمن ، يا محمد ، هؤلاء الذين يكذّبون الله ورسوله ، ويجحدون آياته ، استدراج الله إيّاهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحّة الأبدان ورخاء العيش ، كما استدرج الذين قصّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم ، فإنّ مكر الله لا يأمنه ـ يقول : لا يأمن من ذلك أن يكون استدراجا ، مع مقامهم على كفرهم ، وإصرارهم على معصيتهم ـ ﴿ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ **وهم الهالكون .**

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ **يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها . من قريت الماء إذا جمعته .** ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ **أي صدّقوا .** ﴿ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ **أي الشرك** ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ **يعني المطر والنبات . وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم . إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرا لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه** ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ **. وعن هود** ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ **فوعد هم المطر والخصب على التخصيص . يدل عليه**

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ .

﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ أي كذّبوا الرسل . والمؤمنون صدّقوا ولم يكذّبوا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف . نظيره : (أفحكم الجاهلية) والمراد بالقرى مكة وما حولها ، لأنهم كذّبوا محمداً ﷺ . وقيل : هو عام في جميع القرى .

قال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ ﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدّقت به واتّبعوه واتّقوا بفعل الطاعات وترك المحرّمات ﴿ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض ، قال تعالى ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ ولكن كذّبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ، ثم قال تعالى مخوّفا ومحذّرا من مخالفة أوامره والتجرّئ على زواجره ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ أي الكافرة ﴿ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ﴾ أي عذابنا ونكالنا ﴿ بَيَٰتٗا ﴾ أي ليلا ﴿ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ أي في حال شغلهم وغفلتهم ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إيّاهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ التي أرسلنا إليها رسلنا آمنوا بالرسل المرسلين إليهم ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ ما صمّموا عليه من الكفر ولم يصرّوا على ما فعلوا من القبائح ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي يسّرنا لهم خير السماء والأرض . وقيل : المراد بخير السماء : المطر ، وخير الأرض النبات .

والمراد : لو أنّ أهل القرى أين كانوا وفي أيّ بلاد سكنوا آمنوا واتّقوا إلى آخر الآية ﴿ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ ﴾ بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتّقوا ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُم ﴾ بالعذاب بسبب ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ من الذنوب الموجبة لعذابهم ، والاستفهام في ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وأهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله ، والفاء للعطف .

وقيل : المراد بالقرى مكة وما حولها لتكذيبهم النبي ﷺ ، والحمل على العموم أولى .

قلت : تبيّن من أقوال المفسّرين أن المراد بالقرى مكة وما حولها وقيل : أهل القرى هم أهل القرى التي قصّ الله أخبارهم فيما قبل من الآيات فيقتضي ذلك العموم ، وهو اختيار الشوكاني ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ١٠١ .

قال الشوكاني : قوله : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي التي أهلكناها وهي قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب المتقدّم ذكرها- أي في السورة- ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نتلوا عليك ﴿ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ أي من أخبارها وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وآله وللمؤمنين .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي هذه القرى التي أهلكناها ، وهي قرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب ﴿ نَقُصُّ ﴾ أي نتلوا . ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ أي من أخبارها .

وهي تسلية للنبي ﷺ وللمسلمين ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ أي فما كان أولئك الكفّار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم . قاله مجاهد . نظيره ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ ﴾ وقال ابن عباس والربيع . كان في علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل . ﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرها لا طوعا .

وقال ابن كثير في تفسير الآية : لمّا قصّ الله تعالى على نبيّه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بيّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ أي يا محمد من أخبارها ، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالحجج على صدقهم فيما أخبروا به .

قلت : هذا خلاصة ما ذكره المفسّرون في تفسير هذه الآية الكريمة التي أشار الله فيها إلى أخبار الأمم التي ذكرها في الآيات قبلها ، وقد قصّ الله من أخبارهم على نبيّه محمد ﷺ تسلية له تجاه ما لقيه من قومه من التكذيب برسالته والعتو عن الانقياد على ما دعاهم إليه .

القـــرى : بضم القاف المثناة ، جمع قرية ، كالذي قبله : والمقصود به قرى عاد وثمود وأصحاب الأيكة وغيرهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [1].

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لمّا ظلموا ، فكفروا بالله وآياته ، ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ يعني ميقاتا وأجلاً ، حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به ، يقول : فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدا موعدا ، إذا جاءهم ذلك الموعد أهلكناهم ، سنّتنا في الذين خلوا من قبلهم من ضربائهم .

وروى بسنده عن مجاهد ، قوله ﴿ لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ قال : أجلا .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية ، أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي جعلناه إلى مدّة

---

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٥٩ .

معلومة ووقت معيّن لا يزيد ولا ينقص ، أي وكذلك أنتم أيّها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذّبتم أشرف رسول وأعظم نبيّ ولستم بأعزّ علينا منهم ، فخافوا عذابي ونذر .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ أي وتلك القرى التي قصصنا عليك نبأهم نحو قرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لمّا ظلموا وكفروا . ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي وقتا معلوما لم تعده .

وقال الشوكاني : وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي قرى عاد وثمود وأمثالهم ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ أي أهل القرى أهلكناهم ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ أي وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي وقتا معيّنا .

قلت : هذا ما ذكره المفسّرون في تفسير هذه الآية الكريمة ، ولم يقع فيه اختلاف بينهم ، بل إنّ أقوالهم متّفقة على تعريف أهل القرى التي قصّ الله خبرهم في هذه الآية الكريمة .

القـرى المباركـة : جمع قرية ، موصوفة بالبركة : المقصود به الشام .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة سبأ الآية رقم : ١٨ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبرا عن نعمته التي كان أنعمها على هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم : وجعلنا بين بلدهم وبين القرى التي باركنا فيها وهي الشام ، قرى ظاهرة .

وروى بسنده عن مجاهد قوله : ﴿ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَـا ﴾ قال : الشام .

وقيل : عنى بالقرى التي بورك فيها بيت المقدس .

وروى بسنده عن ابن عباس ﴿ وَجَعَلْنَـا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَـا قُرًى ظَـٰهِرَةً ﴾ قال : الأرض التي باركنا فيها : هي الأرض المقدّسة ، وقوله ﴿ قُرًى ظَـٰهِرَةً ﴾ يعني قرى متصلة ، وهي قرى عربية .

وروى بسنده عن الحسن في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَـا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَـا قُرًى ظَـٰهِرَةً ﴾ قال : قرى متواصلة ، قال : كان أحدهم يغدو فيقيل في قرية ، ويروح فيأوي إلى أخرى . وكانت المرأة تضع زمبيلها على رأسها ، ثم تمتهن بمغزلها ، فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ من كلّ الثمار .

وبسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ قُرًى ظَـٰهِرَةً ﴾ يعني قرى عربية بين المدينة والشام .

وبسنده عن الضحّاك ، يقول في قوله : ﴿ قُرًى ظَـٰهِرَةً ﴾ يعني : قرى عربية ، وهي بين المدينة والشام .

قال ابن جرير : وقوله ﴿ وَقَدَّرْنَـا فِيهَـا ٱلسَّيْرَ ﴾ يقول تعالى ذكره : وجعلنا بين قراهم والقرى التي باركنا فيها سيرا مقدّرا من

منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ، لا ينزلون إلا في قرية ، ولا يغدون إلا في قرية .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ قال الحسن : يعني بين اليمن والشام ، والقرى التي بورك فيها : الشام والأردن وفلسطين . والبركة : قيل : إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية ، بورك فيها بالشجر والثمر والماء . ويحتمل أن يكون ﴿ بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ بكثرة العدد ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام . وقال قتادة : معنى ظاهرة : متصلة على طريق ، يغدون فيقيلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية ، وقيل : كان على كل ميل قرية بسوق ، وهو سبب أمن الطريق .

وقال المبرّد : وقيل : إنما قيل لها ﴿ ظَٰهِرَةً ﴾ لظهورها ، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى ، فكانت قرى ظاهرةٍ أي معروفة ، يقال : هذا أمر ظاهر أي معروف ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي جعلنا السّير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيرا مقدّرا من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ، أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى .

وقال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال وهب بن منبّه هي قرى بصنعاء ، وكذا قال أبو مالك ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن أسلم وقتادة والضحّاك والسدّي وابن زيد وغيرهم : يعني قرى الشام ، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أي بيّنة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون

في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ هذا معطوف على قوله- لقد كان لسبأ- أي وكان من قصّتهم : أنّا جعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها بالماء والشجر ، وهي قرى الشام ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أي متواصلة ، وكان متجرهم من أرضهم التي هي مأرب إلى الشام ، وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا ، وكانوا لا يحتاجون إلى زاد يحملونه من أرضهم إلى الشام . قال الحسن : هذه القرى هي بين اليمن والشام ، وقيل : إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية ، وقيل : هي المدينة والشام .

قلت : يتبيّن ممّا تقدّم من أقوال المفسّرين : أن القرى التي بارك الله فيها هي بلاد الشام ، وأن القرى الظاهرة : هي قرى منتظمة في الطريق بين بلاد اليمن وبلاد الشام .

القــــرى : بضم القاف المثناة ، كالذي قبله : جمع قرية ؛ والمقصود به : القرى التي أهلك الله أهلها ، كعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأحقاف الآية رقم : ٢٧ .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الله الأمم المكذّبة بالرسل ممّا حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممرّهم إلى غزّة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرّون بها أيضا .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لكفّار قريش محذّرهم بأسه وسطوته ، أن يحلّ بهم على كفرهم ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ﴾ أيّها القوم من القرى ما حول قريتكم ، كحجر ثمود ، وأرض سدوم ، ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثولات ، وخرّبنا ديارها فجعلناها خاوية على عروشها .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ يريد حجر ثمود ، وقرى لوط ونحوها ، ممّا كان يجاور بلاد الحجاز وكانت أخبارهم متواترة عندهم . ﴿ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ يعني الحجج والدّلالات وأنواع البيّنات والعظات ، أي بيّناها لأهل تلك القرى . ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ فلم يرجعوا .

وقيل : أي صرّفنا آيات القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعلّ هؤلاء المشركين يرجعون .

وقال الشوكاني : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بما حولهم من القرى : قرى ثمود ، وقرى لوط ونحوهما ممّا كان مجاوراً لبلاد الحجاز ،

وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي بيّنا الحجج ونوّعناها لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا ، ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر فقال : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ أي فهلّا نصرهم آلهتهم التي تقرّبوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم .

وقال عبد الرحمن بن سعدي : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ يحذّر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذّبين الذين هم حول ديارهم ، بل كثير منهم في جزيرة العرب ، كعاد وثمود ونحوهم ، وأنّ الله تعالى صرّف لهم الآيات أي نوّعها من كلّ وجه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عمّا هم عليه من الكفر والتكذيب ، فلمّا لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ، ولهذا قال هنا ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ أي يتقرّبون إليهم ويتألّهونهم لرجاء نفعهم ﴿ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ﴾ فلم يجيبوهم ولا دفعوا عنهم ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ من الكذب الذي يمنّون به أنفسهم حيث يزعمون أنّهم على الحقّ .

قلت : اتفقت أقوال المفسّرين على التعريف بهذه القرى التي أشار الله إليها في الآية الكريمة ، كما هو متقدّم من أقوالهم .

القـــرى : بضم القاف المثناة- كالذي قبله- جمع قرية : هي قريظة والنضير ، وهما بالمدينة ، وفدك وخيبر ، وقرى عرينة وينبع .

قال الله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [1].

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ قال ابن عباس : هي قريظة والنضير ، وهما بالمدينة ، وفدك وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخيبر ، وقرى عرينة وينبع جعلها الله لرسوله ، وبيّن في ذلك المال الذي خصّه بالرسول عليه السلام سهمانا لغير الرسول نظرا منه لعباده .

وقال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير .

روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو رضي الله عنه قال : كانت أموال بني النضيبر ممّا أفاء الله على رسوله ممّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ ، خالصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته .

وقال الشوكاني : قال الله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ هذا بيان لمصارف الفيئ بعد بيان أنه لرسول الله

---

(١) سورة الحشر الآية رقم : ٧ .

ﷺ خاصة . والتكرير لقصد التقرير والتأكيد . ووضع أهل القرى موضع قوله ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم .

بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحا ، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب .

قيل : والمراد بالقرى بنو النضير وفدك وقريظة وخيبر .

وقال الشوكاني : وقد أجمع المفسّرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير ، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري ، فقال : هم بنو قريظة ، وهو غلط فإن بني قريظة ما حشروا ، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لمّا رضوا بحكمه فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة .

قلت : هذا خلاصة ما قاله المفسّرون في تفسير هذه الآية الكريمة ولم يقع فيه اختلاف بينهم .

وقد استوفيت الحديث عن أحداث هذه القرى كاملاً في كتابي (معجم أمكنة البخاري) .

القريتـــان : بفتح القاف المثناة وسكون الراء المهملة وياء مثناة مفتوحة بعدهاه تاء مثناة ثم ألف وآخره نون ، مثنى قرية : مكة والطائف .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الزخرف الآية رقم : ٣١ .

قال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أي هلاّ كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدّي وابن زيد وقد ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي .

وقال مالك عن زيد بن أسلم والضحاك والسدّي : يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عروة الثقفي .

وعن مجاهد يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي ، وعنه أيضاً : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما جبّارا من جبابرة قريش . وعنه رضي الله تعالى عنه أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وعن مجاهد يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف . وقال السدّي : عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي .

والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أيّ البلدتين كان . قال تبارك وتعالى رادّا عليهم في هذا الاعتراض : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أي ليس الأمر مردودا إليهم بل إلى الله عزّ وجلّ ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وقال القرطبي : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ أي هلاّ نزل ﴿ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أي من إحدى القريتين ، أو على أحد رجلين من القريتين .

القريتان : مكة والطائف ، والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عمّ أبي جهل ، والذي من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي ، قاله قتادة . وقيل : عمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ، وهو قول مجاهد .

وعن ابن عباس: أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي . وقال السدّي : كنانة بن عبد بن عمرو . وروى أن الوليد بن المغيرة- وكان يسمّى ريحانة قريش- كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقّا لنزل علي أو على أبي مسعود ، فقال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ يعني النبوّة فيضعونها حيث شاؤوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي أفقرنا قوماً وأغنينا قوما ، فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوّض أمر النبوّة إليهم . قال قتادة : تلقاه ضعيف القوّة قليل الحيلة عيّ اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتّر عليه . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ أي فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرؤوس ، قاله مقاتل .

وقيل : بالحرية والرقّ ، فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل : بالغنى والفقر ، فبعضهم غنيّ وبعضهم فقير . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال ابن جرير : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . يقول تعالى ذكره : وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش لمّا جاءهم القرآن من عند الله : هذا سحر ، فإن كان حقّا فهلاّ نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف ؟

واختلف في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم ، فقالوا : هلاّ نزل عليه هذا القرآن ، فقال بعضهم هلاّ نزل على الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة ، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف ؟

وروى بسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال : يعني بالعظيم الوليد بن المغيرة القرشي ، أو حبيب بن عمير الثقفي ، وبالقريتين مكة والطائف .

وروى بسنده عن مجاهد ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال : عتبة بن ربيعة من أهل مكة ، وابن عبد ياليل الثقفي من الطائف .

وروى بسنده عن قتادة ، في قوله : ﴿ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال : الرجل الوليد بن المغيرة ، قال : لو كان ما يقول محمد حقّا أنزل عليّ هذا ، أو على ابن مسعود الثقفي ، والقريتان الطائف ومكة ، وابن مسعود الثقفي من الطائف اسمه عروة بن مسعود .

وروى بسنده عن قتادة أيضا قوله : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ والقريتان : مكة والطائف ، قال : قد قال ذلك مشركوا قريش ، قال : بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادّعته ، وقالوا : هو منّا ، فكنّا نحدّث أن الرجلين : الوليد بن المغيرة، وعروة الثقفي بن مسعود ، يقولون : هلاّ أنزل على أحد هذين الرجلين .

وروى بسنده عن السدّي ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال : الوليد بن المغيرة القرشي ، وكنانة بن عبد بن عمرو بن عمير ، عظيم أهل الطائف .

وأولى الأقوال في ذلك الصّواب أن يقال كما قال جلّ ثناؤه مخبرا عن هؤلاء المشركين ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ إذ كان جائزاً أن يكون بعض هؤلاء ، ولم يضع الله تبارك وتعالى لنا الدّلالة على الذين عنوا منهم في كتابه ، ولا على لسان رسوله ﷺ ، والاختلاف فيه موجود على ما بيّنت .

قلت : ممّا تقدّم يتبيّن لنا الاختلاف بين المفسّرين في الرجل العظيم الذي اراده المشركون في قولهم ، ولم ينته المفسّرون إلى اتفاق نهائي في هذا الموضوع ، وقد قال ابن جرير القول الأولى في ذلك ، والله أعلم .



باب الكاف

الكهــــف : بكاف مفتوحة وهاء ساكنة وآخره فاء موحدة : المقصود به : الكهف الذي ذكر في الآية الكريمة الآتية :

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾[1] .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ : أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجبا ، فإن ما خلقت من السماوات والأرض ، وما فيهنّ من العجائب أعجب من أمر أصحاب الكهف ، وحجّتي بكل ذلك ثابتة على هؤلاء المشركين من قومك وغيرهم من سائر عبادي .

وأمّا الكهف ، فإنه كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قصّ ا لله شأنهم في هذه السّورة .

وروى بسنده عن الضحاك يقول : أما الكهف فهو غار الوادي ، والرّقيم اسم للوادي .

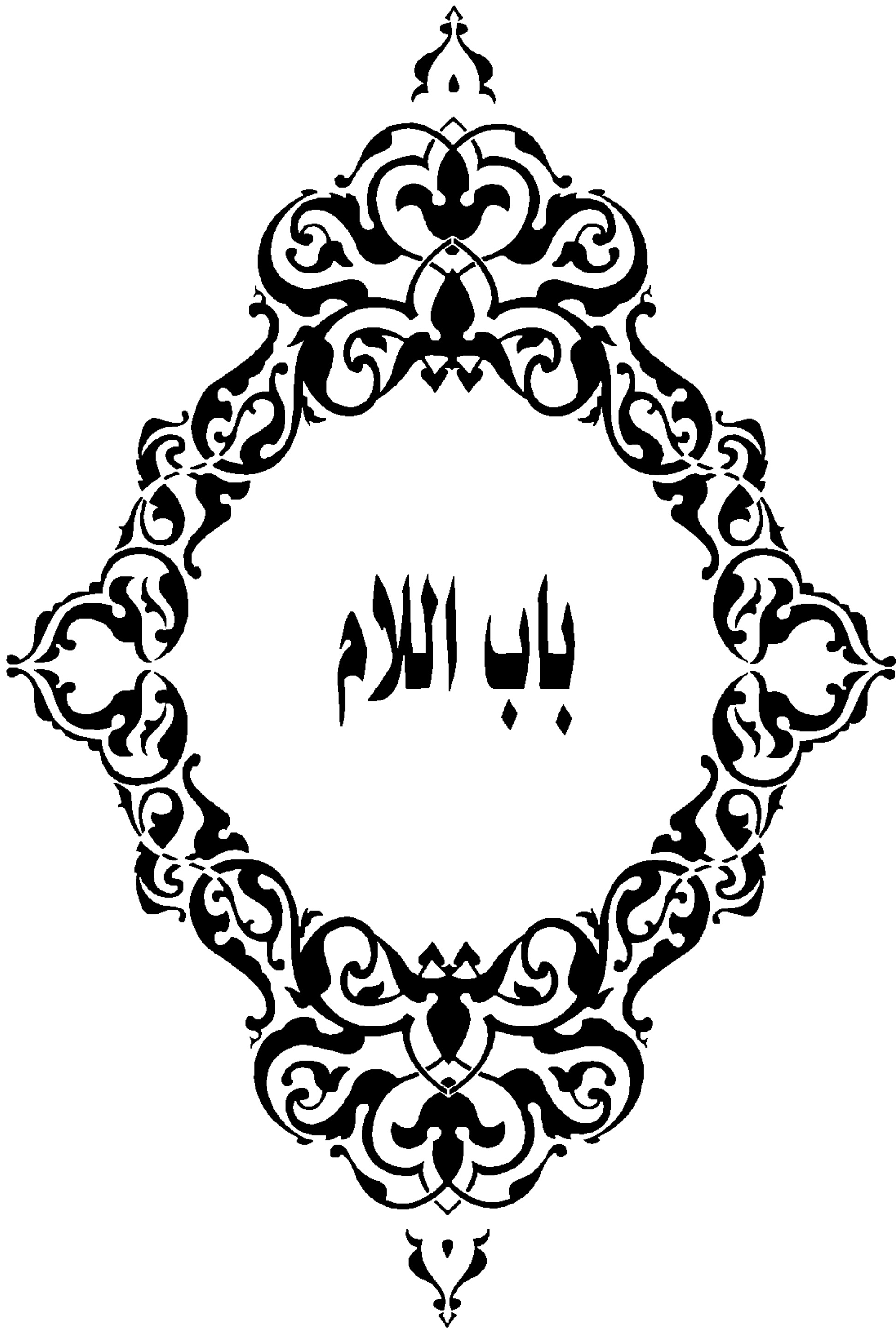
وروى بسنده عن شعيب الجبئي أن اسم جبل الكهف بنجالوس ، واسم الكهف حيزم ، والكلب خمران .

وقال ابن كثير : وأمّا الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون .

قلت : اختلف المفسّرون في أمر أصحاب الكهف والرّقيم - وفي تعريف الرّقيم ، وموقعه ، وكذلك في أصحاب الكهف اختلافاً كثيراً ، وقد استوفيت ما يخص الحديث عن الكهف والرّقيم في رسم ﴿ ٱلرَّقِيمِ ﴾ بما فيه كفاية إن شاء الله .

---

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٩ - ١٠ .


باب اللام

ٱللَّـٰتَ : بلام مثقلة بعدها ألف وآخره تاء : وهو صنم لثقيف . وكان في الطائف .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾[1].

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : أفرأيتم أيها المشركون اللاّت وهي من الله ألحقت فيه التاء فأنّثت ، فكذلك سمّى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه ، فقالوا : من الله اللات ، ومن العزيز العزّى وزعموا أنهن بنات الله ، تعالى الله عمّا يقولون وافتروا .

واختلف القرّاء في قراءة قوله : اللات ، فقرأته عامّة قرّاء الأنصار بتخفيف التاء على المعنى الذي وصفت ، وذكر أن اللات بيت كان بنخلة تعبده قريش ، وقال بعضهم : كان بالطائف .

وروى بسنده عن قتادة : أما اللات فكانت بالطائف .

وبسنده عن ابن زيد قال : اللات بيت كان بنخلة تعبده قريش .

وقرأ ذلك ابن عباس ومجاهد وأبو صالح ﴿ ٱللَّـٰتَ ﴾ بتشديد التاء وجعلوه صفة للوثن الذي عبدوه ، وقالوا : كان رجلا يلتّ السويق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه .

وروى بسنده عن مجاهد قال : كان يلتّ السويق للحجاج فعكف على قبره .

وروى بسنده ، عن أبي صالح قال : ٱللَّـٰتَ : الذي كان يقوم على آلهتهم يلتّ لهم السويق وكان بالطائف .

---

(١) سورة النجم الآية ١٩ .

وأولى القرائنين بالصواب عندنا في ذلك قراءة من قرأه بتخفيف التاء على المعنى الذي وصفت لقارئه كذلك لإجماع الحجّة من قرّاء الأنصار عليه . هـ

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ كان اللات رجلا يلتّ سويق الحاج .

وروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من حلف فقال في حلفه واللاّت والعزّى فليقل لا إله إلا الله ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدّق .

وقال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ ﴾ كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها .

وقال القرطبي : كانت اللات لثقيف بالطائف وهي أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكان سدنتها من ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء فكانت قريش وجميع العرب تعظّمها ، وبها كانت العرب تسمّى زيد اللات وتيم اللات فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرّقها بالنار .

وقال الكلبي : كان رجلا من ثقيف يقال له صرمة بن غنم ، وقيل : إنه عامر بن ضرب العدواني . قال الشاعر :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها ... وكيف ينصركم من ليس ينتصر

قال القرطبي : والقراءة الصحيحة ﴿ ٱللَّٰتَ ﴾ بالتخفيف اسم صنم . هـ

قال ابن هشام في حديثه عن إسلام ثقيف : وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ، وهي اللات ، لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمّى .

وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلّموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وضراريهم ، ويكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها .

قال ابن إسحاق : بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، في هدم الطاغية فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدّم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال أدخل أنت على قومك وأقام أبو سفيان بماله بذي الهدم ، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول ، وقام قومه دونه بنو معتّب ، خشية أن يرمى أو يصاب ، فخرج نساء ثقيف حسّرا يبكين عليها ويقلن :

لتبكينّ دفّاع أسلمها الرضّاع

لم يحسنوا المصاع

وقال السهيلي : وأقبلت عجائز ثقيف تبكي حولها ، وتقول : أسلمها الرضّاع ، إذ كرهوا المصاع . أي أسلمها اللئام حين كرهوا القتال[1] .

---

(١) سميت (دفّاع) لأنها كانت تدفع عنهم فيما زعموا ، والرضاع اللئام ، والمصاع المضاربة بالسيوف .

وقال ياقوت : اللات : اسم صنم كانت تعبده ثقيف ، وهو صخرة كان يجلس عليها رجل كان يبيع السمن واللبن للحجاج في الزمن الأول ... وكان اللات رجلا من ثقيف فلما مات قال لهم عمرو بن لحيّ : لم يمت ولكن دخل في الصخرة ، ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنيانا يسمّى باللات .

وقيل : كانت صخرة بيضاء مربعة بنت عليها ثقيف بنيّة ، وأمرهم النبي ﷺ بهدمها عند إسلام ثقيف ، وكان أبو سفيان بن حرب أحد من وكل إليه فهدمها .

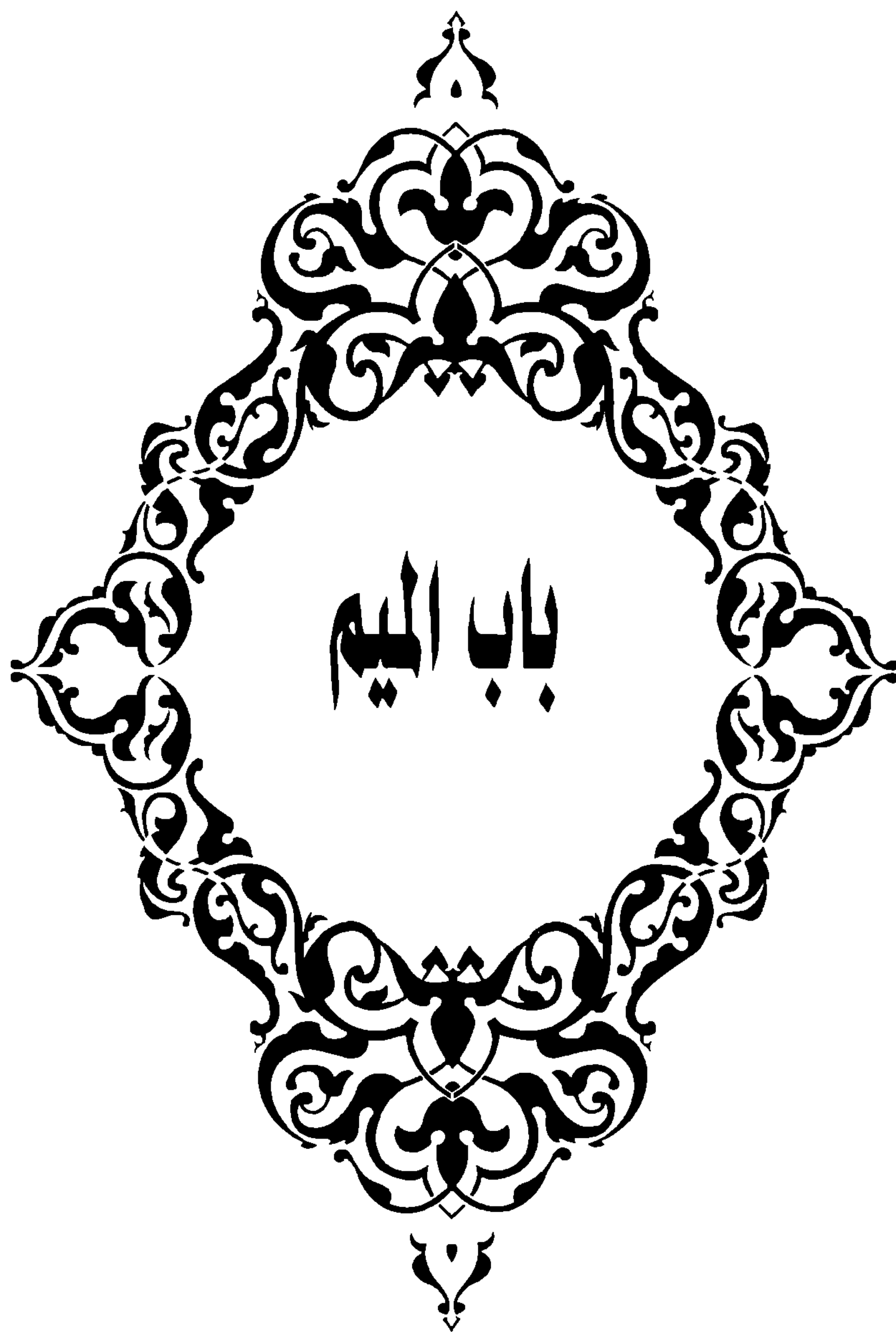
وقال شدّاد بن عارض الجشمي حين هدمت وحرّقت ينهى ثقيفا من العود إليها والغضب لها :

لا تنصروا اللات إن الله يهلكها   وكيف نصركم من ليس ينتصر؟
إن التي حرّقت بالنار واشتعلت   ولم يقاتل لدى أحجارها هدروا
إن الرسول متى ينزل بساحتكم   يظعن وليس لها من أهلها بشر

وقد ذكر ياقوت في حديثه عن اللات أقوالا وأشعارا لا يتسع مقامنا هذا لذكرها والتعليق عليها .

قال ابن حبيب : وكانت تلبية من نسك ﴿ ٱللَّٰتَ ﴾ لبّيك اللهم لبّيك ، لبّيك كفى ببيتنا بنيّة ، ليس بمهجور ولا بليّة ، ولكنه من تربة زكيّة ، وأربابه من صالح البريّة .

قلت : وبما تقدّم يتبيّن أن اللات كانت صنما لثقيف ، ومن والاها من القبائل ، وأنه كان في الطائف ، وأن النبي ﷺ بعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدمه وإحراقه بعد إسلام ثقيف ، وأن المغيرة بن شعبة هو الذي باشر هدمه بالمعول وإحراقه .



باب الميم

المؤتفكة : بميم مضمومة وهمزة ساكنة وتاء مثناة مفتوحة بعدها فاء موحدة مكسورة وكاف مفتوحة وآخره هاء ،
والمقصود به : قرى قوم لوط .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ (٢).

قال ابن جرير : قوله ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يقول تعالى : والمخسوف بها المقلوب أعلاها أسفلها ، وهي قرية سدوم قوم لوط أهوى الله ، فأمر جبريل ، فرفعها من الأرض السابعة بجناحه ثم أهواها مقلوبة .

وروى بسنده عن مجاهد في قول الله ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ قال : أهواها جبريل ، قال : رفعها إلى السماء ثم أهواها .

وبسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ قال قرية لوط .

وبسنده عن ابن زيد ، في قوله ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ قال : قرية قوم لوط أهواها من السماء ثم أتبعها ذلك الصخر ، اقتلعت من الأرض ، ثم أهوى بها في السماء ثم قلبت .

قال ابن جرير : قوله ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ يقول تعالى ذكره : فغشّى الله المؤتفكة من الحجارة المنضودة المسمومة ما غشّاها فأمطرها إيّاه من سجّيل .

---

(١) سورة النجم الآية رقم : ٥٣ - ٥٤ .
(٢) سورة الحاقة الآية رقم : ٩ - ١٠ .

وقال : قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ يقول والقرى التي ائتفكت بأهلها فصار عاليها سافلها ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ يعني بالخطيئة . وكانت خطيئتها : إتيانها الذكران في أدبارهم . وعن قتادة ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ ﴾ هم قوم لوط ائتفكت بهم أرضهم .

وقال ابن كثير : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يعني مدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجّيل منضود ، ولهذا قال: ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ .

قال القرطبي : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يعني مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم ، أي انقلبت وصار عاليها سافلها ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ، رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض . ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ أي ألبسها ما ألبسها من الحجارة ، قال الله ﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

قلت : اتفق المفسّرون على أن المقصود بالمؤتفكة هي قرى قوم لوط التي أهلك الله فيها قومه ، وقد استوفيت الحديث عن قرى قوم لوط في رسم (القرية) في هذا الكتاب بما فيه كفاية ، إن شاء الله .

وتحدّث المسعودي عن المؤتفكة : وحدّد موقعها تحديدا دقيقا ، فقال : أصحاب المؤتفكة : أرسل الله لوطا إلى المدائن الخمس ، وهي سدوم ، وعمورا ، وأدمونا ، وصاعورا ، وصابورا ، وإن قوم لوط هم أصحاب المؤتفكة ، وهذا الاسم مشتق من الإفك ، وهو الكذب على رأى من ذهب إلى الاشتقاق ، وقد ذكرهم الله في كتابه بقوله :

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ وهذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز مما يلي الأردن وبلاد فلسطين ، إلا أن ذلك في حيز الشام ، وهي مبقّاة إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة خرابا لا أحد بها ، والحجارة المسمومة موجودة فيها يراها الناس السفّار وسوداء برّاقة ، فأقام فيهم لوط بضعا وعشرين سنة يدعوهم إلى الله فلم يؤمنوا ، فأخذهم العذاب على حسب ما أخبر الله من شأنهم .

مبوّأ صدق : بضم الميم وفتح الباء الموحدة وتشديد الواو المفتوحة وآخره همزة ، المقصود به : بيت المقدس أو بلاد الشام أو مصر .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [1].

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل صدق . قيل : عنى بذلك الشام وبيت المقدس ، وقيل : عنى به الشام ومصر .

وروى بسنده عن الضحّاك : ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ ، قال : منازل صدق ، مصر والشام .

وبسنده عن قتادة : ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ ، قال : بوّأهم الله الشام وبيت المقدس وقوله : ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ، يقول : ورزقنا بني إسرائي من حلال الرزق ، وهو (الطيّب) .

(١) سورة يونس الآية رقم : ٩٣ .

وقوله : ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ يقول جلّ ثناؤه : فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل ، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين . وذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمّد النبي ﷺ مجمعين على نبوّة محمّد والإقرار به وبمبعثه ، غير مختلفين فيه بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، فلمّا جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم وآمن به بعضهم ، والمؤمنون به منهم كانوا عددا قليلا . فذلك قوله : فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الذي كانوا يعلمونه نبيّا لله .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أي منزل صدق محمود مختار ، يعني مصر . وقيل : الأردن وفلسطين. وقال الضحّاك: هي مصر والشام. ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي من الثمار وغيرها .

وقال ابن عباس : يعني قريظة والنضير وأهل عصر النبي ﷺ من بني إسرائيل، فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ وينتظرون خروجه، ثم لمّا خرج حسدوه ، ولهذا قال : ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ أي في أمر محمد ﷺ ، ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي القرآن ومحمد ﷺ .

والعلم بمعنى المعلوم ، لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه ، قاله ابن جرير الطبري . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم بينهم ويفصل . ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا ، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ يخبر تعالى عمّا أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينيّة

والدنيويّة وقوله ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه ، فإن الله تعالى لمّا أهلك فرعون وجنوده استقرّت يد الدولة الموسويّة على بلاد مصر بكمالها كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

وقال الشوكاني : قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا ﴾ هذا من جملة ما عدّده الله سبحانه من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل ، ومعنى بوّأنا : أسكنّا ، يقال : بوّأت زيدا منزلا : أسكنته فيه ، والمبوّأ اسم مكان أو مصدر ، وإضافته إلى الصّدق على ما جرت عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئا أضافوا إلى الصّدق ، والمراد به ههنا المنزل المحمود المختار ، قيل هو أرض مصر ، وقيل الأردن وفلسطين ، وقيل الشام ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي المستلذّات من الرزق ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ في أمر ربهم وتشعّبوا فيه شعبا بعدما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي لم يقع منهم اختلاف في الدين إلاّ بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها ، وما اشتملت عليه من الأخبار بنبوّة محمّد ﷺ وقيل المعنى : إنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم ، وهو القرآن النازل على نبيّنا ﷺ ، فاختلفوا في نعته وصفته ، وآمن به من آمن منهم

وكفر به من كفر . فيكون المراد بالمختلفين على القول الأول هم اليهود بعد أن نزلت عليهم التوراة وعلموا بها ، وعلى القول الثاني هم اليهود المعاصرين لمحمّد ﷺ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، والمحقّ بعمله بالحقّ ، والمبطل بعمله بالباطل .

قلت : اتفق المفسّرون في تفسير هذه الآية الكريمة ولم يجر بينهم اختلاف في تحديد المبوّأ ، وفي فئة اليهود المقصودين في هذه الآية ، كما هو مبيّن في تفسيرهم لهذه الآية فيما تقدّم والله أعلم .

مجمع البحرين : بميم مفتوحة وجيم معجمة ساكنة بعدها ميم مفتوحة وآخره عين مهملة ، والبحرين مثنى بحر أضيف إليه : موضع اختلف العلماء في تحديده .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ (١).

وروى البخاري بسنده عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال : قام موسى النبي ﷺ خطيباً في بني إسرائيل فسئل أيّ الناس أعلم فقال أنا أعلم فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى الله إليه أنّ عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك .

قال ابن كثير : قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس ممّا يلي المشرق وبحر الروم ممّا يلي المغرب ، وقال محمد بن كعب القرظي : مجمع البحرين عند طنجة ، يعني في أقصى بلاد المغرب .

---

(١) سورة الكهف الآية رقم : ٦٠ .

وقال القرطبي : ﴿ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ أي ملتقاهما ، قال قتادة : وهو بحر فارس والروم ، وقال مجاهد ، قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان ، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي برّ الشام هو مجمع البحرين على هذا القول .

وقيل : هما بحر الأردن وبحر القلزم ، وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ، قاله محمد بن كعب ، ويروى عن أبيّ بن كعب : أنه بأفريقية .

وقال السدّي : الكرّ والرّس بأرمينية ، وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط ، وحكاه النقّاش ، وهذا ممّا يذكر كثيرا .

وقال فرقة : إنّما هما موسى والخضر ، وهذا قول ضعيف . وحكى عن ابن عباس ولا يصحّ قال : الأمر بيّن من الأحاديث أنه إنّما وسم له بحر ما .

وقال ابن جرير : وقيل : عني بقوله ﴿ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ اجتماع بحر فارس والروم ، والمجمع : مصدر من قولهم : جمع يجمع .

وروى بسنده عن قتادة وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ والبحران : بحر فارس وبحر الروم . وبحر الروم مما يلي المغرب ، وبحر فارس مما يلي المشرق .

وروى بسنده عن مجاهد ﴿ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ قال : بحر الروم ، وبحر فارس أحدهما قبل المشرق والآخر قبل المغرب .

وبسنده ، عن محمد بن كعب في قوله ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ قال طنجة .

وقال ابن سعدي : ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ أي لا أزال مسافرا وإن طالت عليّ الشقّة ولحقتني المشقّة حتى أصل إلى مجمع البحرين ، وهو المكان الذي أوحى الله إليه أنّك ستجد فيه عبدا من عباد الله العالمين ، عنده من العلم ما ليس عندك ﴿ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا ﴾ أي مسافة طويلة .

المعنى أن الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاة هذه المقالة ، وهذا عزم منه جازم ، فلذلك أمضاه ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾ أي هو وفتاه ﴿ مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وكان معهما حوت يتزوّدان منه ويأكلان ، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فثمّ ذلك العبد الذي قصدته ، فاتخذ ذلك الحوت سبيله أي طريقه في البحر سربا ، وهذا من الآيات .

قال المفسّرون : إن ذلك الحوت الذي كانا يتزوّد إن منه لمّا وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر فانسرب بإذن الله في البحر وصار مع حيواناته حيّا ، فلمّا جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين قال موسى لفتاه ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ أي لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط ، وألا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لن يجدا من التعب فيه ، وهذا من الآيات والعلامات الدّالة لموسى على وجود مطلبه .

قلت : فيما قاله المفسّرون في تحديد موقع مجمع البحرين اختلاف كبير بينهم غير أن بعض أقوالهم تشير إلى أنّ مجمع

البحرين : هو ملتقى نهر الكرّ ونهر الرّس بأرمينية ، قاله السدّي ، وقال ابن عطية : هو من وراء أذربيجان ، وملتقى الرّس والكرّ وراء أذربيجان بينه وبين أرمينية ، وهذا ما اتجه إليه المؤرخون .

قال ابن الفقيه : وحدّ أذربيجان إلى الرس والكرّ بأرمينية ، ومخرج الرّس من قاليقلاء ، ويمرّ بأرّان فيصبّ فيه نهر أرّان ، ثم يمرّ بورثان ، ويمرّ بالمجمع فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، ويمرّان جميعا فيصبّان في بحر جرجان .

وقال الشيخ الربوة : ومدينة أرميّة ، وبها كان الجدار الذي أقامة موسى بن عمران مع العبد الصالح الذي في صحبه . ومدينة موقان وتسمّى موغان وبها نسي نبيّنا موسى الحوت وهو ببحر الخزر ، ويقال إنها من بناء موقان بن كاشح بن يافث بن نوح .

وقال ابن خرداذبة : وفي قصص موسى عليه السلام ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ والصخرة صخرة شروان ، والبحر بحر جيلان ، والقرية قرية باجروان ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ في قرية خيران . وخراج أرمينية أربعة آلاف درهم ، وقال : ومخرج الرّس نهر أرمينية من قاليقلا ، ويمرّ بأرّان ويصبّ فيه نهر أرّان ، ثم يمرّ بورثان حتى يبلغ المجمع وهو مجمع البحرين الذي ذكره الله جلّ وتقدّس ، فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان ، فإذا اجتمعا مرّا حتى يصبّا في بحر جرجان .

وقال ياقوت : الرّس وادي أذربيجان ، وحدّ أذربيجان ما وراء الرّس ، ومخرج الرّس من قاليقلاء ، ويمرّ بأرّان ثم يمرّ بورثان ثم يمرّ بالمجمع هو والكرّ ، وبينهما مدينة البيلقان ويمرّ الكرّ والرّس جميعا فيصبّان في بحر جرجان .

قلت : هذا ما قاله المؤرخون في تحديد موقع مجمع البحرين الذي التقى فيه موسى بالخضر عليهما السلام ، غير أننا لا نجد اتفاقا بين العلماء على تحديد هذا المكان ، وإن كان الوضع الجغرافي لنهر الرّس ونهر الكرّ وملتقاهما ومصبّهما في بحر الخزر (قزوين) يكاد يوحى بأن هذا المكان هو المراد بالآية الكريمة .

ويفهم من مدلول الآية الكريمة ﴿ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾ أن سفر موسى عليه السلام وغلامه كان سفرا طويلا نائياً عن البلاد التي انطلق منها لسفره ، وأنه كان سفرا شاقّا .

هذا يؤيّد قول بعض العلماء أن مجمع البحرين كان في منطقة قزوين والله علم ، وفي رسم (الرّس) مزيد من المعلومات عن هذا الموضع .

مديــــــن : بميم مفتوحة ودال مهملة ساكنة ، بعدها ياء مثناة مفتوحة ، وآخره نون موحدة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم : ٨٥ .
(٢) سورة الأعراف الآية رقم : ٨٨ .
(٣) سورة التوبة الآية رقم : ٧٠ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [1].

وقال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [2].

وقال تعالى : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [3].

وقال تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [4].

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [5].

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [6].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [7].

وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [8].

---

(١) سورة هود الآية رقم : ٨٤ .
(٢) سورة هود الآية رقم : ٩٥ .
(٣) سورة طه الآية رقم : ٤٠ .
(٤) سورة الحج الآية رقم : ٤٤ .
(٥) سورة القصص الآية رقم : ٢٢ .
(٦) سورة القصص الآية رقم : ٢٣ .
(٧) سورة القصص الآية رقم : ٤٥ .
(٨) سورة العنكبوت الآية رقم : ٣٦ .

قال ابن كثير : يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبا من معان . بلادا تعرف بهم يقال لها : مدين ، فأرسل الله إليهم شعيبا وكان من أشرافهم نسبا .

وقال البخاري : قوله تعالى : وإلى مدين أخاهم شعيبا . إلى أهل مدين لأن مدين بلد .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ قيل في مدين : اسم بلد وقطر ، وقيل : اسم قبيلة كما يقال : بكر وتميم ، وقيل : هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، فمن رأى أن مدين اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي ، ومن رآه اسما للقبيلة أو الأرض فهو أحرى بألا يصرفه ، قال المهدويّ : ويروى أنه كان ابن بنت لوط . وقال مكّي كان زوج بنت لوط .

واختلف في نسبه ، فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما : وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام .. وأمه ميكائيل بنت لوط .

قال ياقوت : مدين : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون ، قال أبو زيد : مدين على بحر قلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك ، وبها البئر التي مغطاة قد بنى عليها بيت وماء أهلها من عين تجري ، ومدين اسم القبيلة وهي مدينة قوم شعيب سمّيت بمدين بن إبراهيم عليه السلام .

وقال الحازمي : بين وادي القرى والشام ، وقيل : مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام على ست مراحل وبها استقى موسى ، عليه السلام ، لبنات شعيب وبها بئر قد بنى عليها بيت .

وقيل : مدين اسم القبيلة ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وقيل : مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية ، وعندها أيضا البئر والصخرة ، قال كثير :

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العقاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خرّوا لعزّة ركّعا وسجودا

وقال كثيّر أيضا :

يا أمّ خرزة ما رأينا مثلكم في المنجد ين ولا بغور الغائر
رهبان مدين لو رأوك تنزّلوا والعصم في شعف الجبال الفادر

وقال ابن هرمة يمدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك :

ومعجب بمديح الشعر يمنعه من القبيح ثواب المدح والشفق
لأنت والمدح كالعذراء يعجبها مسّ الرجال ويثنى قلبها الفرق
لكن بمدين من مفضى سويمرة من لا يذمّ ولا يثنى له خلق
أهل المدائح تأتيه فتمدحه والمادحون إذا قالوا له صدقوا
يكاد بابك من جود ومن كرم من دون بوّابة للناس يندلق

وفي الروض المعطار : مدين : بالشام على ساحل بحر القلزم ، وهي أكبر من تبوك ، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ ، ويحكى أنها بئر مغطاة ، وسمّيت مدين بالقبيلة التي كان منها شعيب عليه السلام وفيها معايش ضيّقة وتجارات كاسدة ومن مدين إلى أيلة خمس مراحل .

ومدين الذي سمّيت به البلدة هو مدين بن إبراهيم عليه السلام وفي القرآن : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وقال بعضهم : لم يكن شعيب عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وإنما هو من ذرية بعض من آمن به ، وهم أصحاب الأيكة من ولد مدين بن إبراهيم وسلّط الله على قومه حرّا شديدا أخذ بأنفاسهم ، ثم بعث الله سحابة فوجدوا لها بردا فلما صاروا تحتها جميعا أرسلها عليهم نارا فذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى ، وكانوا أهل كفر بالله وبخس في المكيال والميزان .

وزعم قوم أن أهل مدين بعث الله إليهم شعيبا من العرب العارية والأمم الدائرة وليسوا من ولد مدين بن إبراهيم .

ومدين في الطريق من مدينة الرسول ﷺ إلى مصر ، وهي بين جبال شامخة متكائدة ، وبقرب مدين البئر التي استقى منها موسى عليه السلام ، وقد بنى على أسها بيت من صخر فيه قناديل معلّقة ، وبها كهف شعيب كان يؤوى إليه غنمه وفي الجبال التي هناك بيوت منقورة في صخر صم قد حفر في البيوت قبور ، وفي تلك القبور عظام بالية كأمثال عظام الإبل ، يكون مقدار كل بيت عشرين ذراعا أو نحوها ولتلك البيوت روائح خبيثة لا يدخل الداخل فيها حتى يضع يده على أنفه من شدّة النتن ، يقال أنهم لما أخذهم عذاب يوم الظلة دخلوا فيه فهلكوا ، ويقرب هذه البيوت تلال تراب عظيمة قيل إنها كانت مواضعهم عامرة فخسف بها .

ومع يهود مدين كتاب يزعمون أن النبي ﷺ كتبه لهم وهم يظهرونه للناس حتى الآن ، وهو في قطعة أديم قد اسودّت لطول الزمن عليها إلا أن خطّه بيّن وفي آخره وكتبه علي بن أبي طالب ، غير معرب ، وقال قوم أنه بخط معاوية بن أبي سفيان ولم يذكر عليا

وهو عند أهل قرية من ساحل مدين يقال لها مسمى ، ومن هناك لاتزال تسير والجبال تيامنك والبحر بيسارك حتى تفضى إلى أيلة .

قلت : ويبدو من أقوال العلماء أن مدين منزل قوم شعيب كانت واقعة في شمال الحجاز- بين المدينة والشام- ويحدّدها بعضهم بمحاذاة منطقة تبوك من الشمال على بحر القلزم وهذا هو أرجح الأقوال ، ويرى بعضهم أن مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية ، غير أن الأخبار لم تختلف في تحديدها في شمال غرب الجزيرة العربية .

وقال ابن جرير : عن ابن إسحاق من خبر قصة شعيب وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن . كانوا أهل بخس للناس في مكاييلهم وموازينهم مع كفرهم بالله ، وتكذيبهم نبيّهم . وكان يدعوهم إلى الله وعبادته ، وترك ظلم الناس وبخسهم في مكاييلهم وموازينهم فقال نصحا لهم وكان صادقا : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة ، إذا ذكر شعيبا قال : ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه فيما يراد بهم فلمّا كذّبوه وتوعّدوه بالرجم والنفي من بلادهم ، وعتوا على الله ، أخذهم عذاب يوم الظلّة ، إنه كان عذاب يوم عظيم .

فبلغني أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلهاء ، لما رآها قال :

يا قوم ، إن شعيبا مرسل فذروا ... عنكم سميرا وعمران بن شدّاد

إنّي أرى غبية يا قوم قد طلعت ... تدعو بصوت على صمّانة الوادي

وإنكم لن تروا فيها ضحاء غد ... إلا الرّقيم يمشّي بين أنجاد

و (سمير) و (عمران) ، كاهناهم ، و (الرّقيم) كلبهم .

وعن ابن إسحاق قال : فبلغني ، والله أعلم ، أن الله سلّط عليهم الحرّ حتى أنضجهم ثم أنشأ لهم الظلّة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون ببردها مما هم فيه من الحرّ ، حتى إذا دخلوا تحتها أطبقت عليهم ، فهلكوا جميعا ونجّى الله شعيبا والذين آمنوا معه برحمته .

المدينـــة : بميم مفتوحة ودال مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة ساكنة ثم نون موحدة مفتوحة وآخره هاء : المقصود به المدينة المنورة مهاجر النبي ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ [1].

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [2].

وقال تعالى : ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [3].

وقال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [4].

---

(١) سورة التوبة الآية رقم : ١٠١ .
(٢) سورة التوبة الآية رقم : ١٢٠ .
(٣) سورة الأحزاب الآية رقم : ٦٠ .
(٤) سورة المنافقون الآية رقم : ٨ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل مدينتكم . أيضا أمثالهم أقوام منافقون . ﴿ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ ، يقول مرنوا عليه ودربوا به .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول قال رسول الله ﷺ أمرت بقرية تأكل القرى تقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد .

وروى بسنده عن أبي حميد رضي الله عنه قال أقبلنا مع النبي ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة فقال هذه طابة .

وروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جحرها .

وروى بسنده عن سعد رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يكيد أهل المدينة أحد إلا ينماع كما ينماع الملح في الماء .

وروى بسنده عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجّال لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان .

قال ابن القيّم : ولما قدم النبي ﷺ المدينة واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم ، غيّره بطيبة ، لما زال عنها ما في لفظ يثرب من التثريب بما في معنى طيبة من الطيب ، واستحقت هذا الاسم وازدادت طيبا آخر فأثّر طيبها في استحقاق الاسم ، وزادها طيبا إلى طيبها .

وروى ابن شبّه بسنده عن زيد بن أسلم قال : قال النبي ﷺ للمدينة عشرة أسماء : هي ، المدينة ، وطيبة ، وطابة ، ومسكينة ، وجبار ، ومجبورة ، ويندد ، ويثرب .

وروى بسنده عن جعفر بن أبي طالب قال : سمّى الله المدينة : الدار والإيمان ، قال فجاء في الحديث الأول ثمانية أسماء ، وجاء في هذا اسمان فالله أعلم أهما تمام العشرة الأسماء التي في الحديث الأول أم لا .

قال ابن يحيى : لم أزل أسمع للمدينة عشرة أسماء في التوراة كما يقال والله أعلم ، قال : هي : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والطيبة ، والمسكينة ، والعذراء ، والجابرة ، والمجبورة ، والمحبّبة ، والمحبوبة .

وقال ابن النجار : قال ابن زبالة عن عبد العزيز بن محمد بن موسى بن عقبة عن عطاء بن مروان عن أبيه عن كعب ، قال نجد في كتاب الله الذي نزل على موسى أن الله تعالى قال للمدينة : يا طيبة يا طابة يا مسكينة لا تقبلي الكنوز ارفعي أجاجيرك على أجاجير القرى ، قال عبد العزيز بن محمد ، وبلغني أن لها في التوراة أربعين اسما ، وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال أن الله تعالى سمى المدينة طابة ، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال : هي المدينة يثرب ، وقال أبوعبيدة معمر بن المثنى : يثرب اسم أرض ، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها ، وقال بن زبالة : كانت يثرب أم قرى المدينة وهي ما بين طرف قناة إلى طرف الجوف ، وما بين المال الذي يقال له البرناوي إلى زبالة .

وكانت زهرة من أعظم قرى المدينة ، قيل كان فيها ثلاثمائة صانع من اليهود ، وقيل : أن تبعا لما قدم المدينة بعث رائدا ينظر إلى مزارع المدينة فأتاه فقال : قد نظرت فأما قناة فحب ولا تبن وأما الحرار فلا حب ولا تبن وأما الجوف فالحب والتبن .

وقال أهل السير : كان أول من نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قوم يقال لهم صعل وفالج فغزاهم داود النبي عليه السلام فأخذ منهم مائة ألف عذراء وقال : وسلط الله عليهم الدّود في أعناقهم فهلكوا ،

فقبورهم هذه التي في السهل والجبل قال : وكانت العماليق قد انتشروا في البلاد فمكثوا بمكة والمدينة والحجاز كلّه وعتوا عتوا كبيرا فبعث الله إليهم موسى - على نبيّنا وعليه السلام- جندا من إسرائيل فقتلوهم بالحجاز وأفنوهم .

وقال ابن النجار : وانّما كان سكن اليهود بلاد الحجاز أنّ موسى عليه السلام لما أظهره الله على فرعون وأهلكه وجنوده وطئ الشام وأهلك من بها وبعث بعثا من اليهود إلى الحجاز وأمرهم ألا يستبقوا من العماليق أحدا بلغ الحلم فقدموا عليهم فقتلوهم وقتلوا ملكهم (نبنما) وكان يقال له الأرقم بن أبى الأرقم وأصابوا ابنا له شابا من أحسن الناس فظنوا به عن القتل وقالوا نستحيه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم : فلمّا سمع الناس بقدومهم تلقوهم فسألوهم عن أمرهم فأخبروهم بفتح الله عليهم وقالوا لم نستبق منهم أحدا ألا هذا الفتى فإنا لم نر شابا أحسن منه فاستبقيناه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه فقالت لهم بنو إسرائيل إن هذه لمعصية لمخالفتكم نبيكم ، لا والله لا يدخلوا علينا بلادنا ، فحالوا بينهم وبين الشام ، فقال الجيش : ما بلد إن منعتم بلدكم خير من البلد الذي خرجتم منه ، قال وكانت الحجاز بعد العماليق ، وهم يجدون في التوراة أن نبيّا يهاجر من العرب إلى بلد فيه نخل بين حرّتين فأقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد ، فنزل طائفة تيماء وتوطّنوا نخلا ومضى طائفة فلمّا رأوا خيبر ظنّوا أنها بالبلدة التي يهاجر إليها فأقام بعضهم بها ومضى أكثرهم وأشرفهم فلمّا رأوا يثرب سبخة وحرّة ونخلا قالوا : هذا البلد الذي يكون له مهاجر النبي إليها فنزلوه فنزل النضير بمن معه بطحان ، فنزلوا منها حيث شاءوا وكان جميعهم بزهرة ، وهي محل بين الحرّة والسّافلة مما يلي القف وكانت لهم الأموال بالسافلة ، ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب

بمجتمع السيول ، سيل بطحان والعقيق وسيل قناة مما يلي زغابة ، قال : وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هذل وهدل وعمرو أبناء الخزرج بن الصريح بن التوم بن السبط بن اليسع بن العتين بن عيد بن خيبر بن النجار ناحوم بن عازر بن هارون بن عمران ، والنصر بن النجار بن الخزرج بن الصريح بعد هؤلاء فتبعوا آثارهم فنزلوا بالعلية ، على واديين يقال لهما مذ ينيب ومهزور فنزلت بنو النضير على مذ ينيب واتخذوا عليه الأموال ونزل قريظة وهذل على مهزور واتخذوا عليه الأموال وكانوا من احتفر بها الآبار واغترس الأموال وابتنوا الآطام والمنازل ، قالوا : فجميع ما بنى اليهود في المدينة تسعة وخمسين أطما .

قالوا : وكان بالمدينة قرى وأسواق من يهود بني إسرائيل وكان قد نزلها عليهم أحياء من العرب فكانوا معهم ، وابتنوا الآطام والمنازل قبل نزول الأوس والخزرج وهم بنو أنيف من حي من بلى ويقال إنهم من بقية العماليق وبنو مزيد من بلى وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان وبنو الجلعاء حي من اليمن قالوا : وكانت الآطام عز أهل المدينة ومنعتهم التي يتحصّنون فيها من عدوهم فكان منها ما يعرف اسمه ومنها ما لا يعرف اسمه ومنها ما يعرف باسم سيده ومنها ما لا يدري لمن كان ومنها ما ذكر في الشعر ومنها ما لم يذكر ، وكان ما بنى من الآطام للعرب بالمدينة ثلاثة عشر أطما .

قالوا : فلم تزل اليهود العالية بها الظاهرة عليها حتى كان من سيل العرم ما كان وما قصّ الله في كتابه فلحقت بنو عمرو بن ثعلبة وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بيثرب وهي المدينة ، وقالوا فأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود ، ووجدوا العدد والقوة معهم فمكث الأوس والخزرج معهم ما شاء الله ، ثم إنهم

سألوهم أن يعقدوا بينهم وبينهم جوارا وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ويمنعون به من سواهم فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا فلم يزالوا على ذلك زمنا طويلا وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوا على دورهم وأموالهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم وكانت قريظة والنضير أعدّوا وأكثروا فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود حتى نجم مالك بن العجلان أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج .

قالوا : ولما نجم مالك بن العجلان سدّد الحيان عليهما فبعث هو قومه إلى من وقع بالشام من قومهم يخبرونهم حالهم ويشكون إليهم غلبة اليهود عليهم ، وكان رسولهم الدمق بن زيد بن امرئ القيس أحد بني سالم بن عوف بن الخزرج وكان قبيحا ذميما شاعرا بليغا فمضى حتى قدم الشام على ملك من ملوك غسّان الذين ساروا من يثرب إلى الشام يقا له أبو جبيلة من ولد حفنة بن عمرو بن عامر ، وقيل كان أحد بني جشم بن الخزرج وكان قد أصاب ملكا بالشام وشرفا فشكى إليه الدمق حالهم وغلبة اليهود عليهم وما يتخوّفون منهم ، وأنهم يخشون أن يخرجوهم ، فأقبل أبو جبيلة في جمع كبير لنصرة الأوس والخزرج وعاهد الله لا يبرح حتى يخرج من بها من اليهود أو يذلّهم ويصيّرهم تحت يد الأوس والخزرج فساروا وأظهر أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة وهي يومئذ يثرب فلقيه الأوس والخزرج وأعلمهم ما جاء به ، فقالوا إن علم القوم ما تريد تحصّنوا في آطامهم فلم تقدر عليهم ولكن تدعوهم للقائك وتتلطّف بهم حتى يأمنوك ويطمئنّوا فتتمكّن منهم ، فصنع لهم طعاما وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه ، وجعل الرجل منهم يأتي بخاصته وحشمه ، رجاء أن يحبوهم الملك وقد كان بنى لهم حيزا وجعل فيه قوما وأمرهم من دخل عليهم منهم أن يقتلوه حتى أتى

على وجوههم ورؤسائهم ، فلما فعل ذلك عزّت الأوس والخزرج في المدينة واتخذوا الديار والأموال وانصرف أبو جبيلة راجعاً إلى الشام وتفرّقت الأوس والخزرج في عالية المدينة وسافلتها وبعضهم جاء إلى عفاء من الأرض لا ساكن فيه فنزل منهم من لجأ إلى قرية من قراها واتخذوا الأموال والآطام فكان ما ابتنوا من الأطام مائة وتسعة وعشرين أطما ، وأقاموا كلمتهم وأمرهم مجتمع ثم دخلت بينهم حروب عظام وكانت لهم أيام ومواطن وأشعار فلم تزل الحروب بينهم إلى أن بعث الله نبيّه ﷺ وأكرمهم باتّباعه .

قال ابن النجار في خبر فتح المدينة : قالت عائشة رضي الله عنها : كل البلاد فتحت بالسيف وافتتحت المدينة بالقرآن ، قال ابن النجار وذلك أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه في كل موسم على قبائل العرب ويقول : (ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلّغ كلام ربّي حتى لقي في بعض السنين عند العقبة نفراً من الأوس والخزرج قدموا في المنافرة التي كانت بينهم ، فقال لهم من أنتم ؟ قالوا : نفر من الأوس والخزرج قال : من موالي اليهود ؟ قالوا : نعم قال أفلا تجلسون أكلّمكم ؟ قالوا : بلى) ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، وكانوا أهل شرك وأوثان وكان إذا كان بينهم وبين اليهود الذين معهم بالمدينة شيء ، قالت اليهود لهم وكانوا أصحاب كتاب قد علمنا أن نبيّا يبعث الآن قد أظلّ زمانه فنتبعه ونقتلكم قتل عاد وارم ، فلما كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلّموا والله إنه لَلنبي الذي وعدكم به اليهود فلا تسبقنّكم إليه فاغتنموه وآمنوا به فأجابوه فيما دعاهم إليه وصدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم وقالوا : إنّا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشرّ ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم

فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدّقوا وكانوا ستة ... فلمّا قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ وما جرى لهم ودعوهم إلى الإسلام ففشى فيهم حتى لم يبق بيت ولا دار من دور الأنصار إلا ولرسول الله ﷺ فيها ذكر فلمّا كان العام المقبل وافى منهم اثني عشر رجلاً فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوه فلمّا انصرفوا بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير إلى المدينة وأمره أن يقرأهم القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقّههم في الدين ، وكان منزله على أسعدبن زرارة ، ولقيه في الموسم الآخر سبعون رجلاً من الأنصار ومعهم امرأتان فبايعوه وأرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى المدينة ثم خرج إلى الغار بعد ذلك وتوجّه هو وأبو بكر إلى المدينة .

وروى ابن النجار بسنده عن محمد بن عبد الله بن خزيمة بن ثابت أن تبّعاً لمّا قدم المدينة وأراد إخرابها جاءه حبران يقال لهما تحيت ومنبه من قريظة فقالا : أيها الملك انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة وإنها مهاجر نبي من بني إسماعيل اسمه أحمد يخرج آخر الزمان فأعجبه ما سمعه وصدّقهما وكفّ عن أهل المدينة .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : رأيت في المنام أنّي مهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهمي إلى اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب ، وذكر البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لمّا ذكر هذا المنام لأصحابه هاجر من هاجر منهم قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة . فقال له رسول الله ﷺ : (على رسلك فإنّي أرجو أن يؤذن لي) فقال له : أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي ؟ قال : نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين

كانتا عنده الخبط أربعة أشهر ، قالت عائشة رضي الله عنها بينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر ، هذا رسول الله ﷺ متقنّعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، قال أبو بكر : فدا له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر ، قالت فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر إنّما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله ، قال : إنّي قد آذن لي في الخروج فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ نعم ، قال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين قال رسول الله ﷺ: بالثمن ، قالت عائشة فجهّزناهما أحث الجهاز، ووضعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فقال رسول الله ﷺ : إن لها به نطاقين في الجنّة فبذلك سمّيت ذات النطاقين قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكاد أن به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من لبن فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الدئل هادياً ماهراً بالهداية، وهو على دين كفار قريش فأمنّاه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل أسفل من عسفان ثم عارض الطريق على أمج ثم لقي الطريق بناحية فنزل في خيام أمّ معبد بنت الأشقر الخزاعية بأسفل ثنية لفت ، وواصل السير حتى انتهى إلى بني عمرو بن عوف بظاهر قباء ، فنزل عليهم على كلثوم بن الهدم بن امرئ

القيس بن الحارث وكان سيّد الحيّ ، وقد اختلف في اليوم الذي نزل فيه ، ولقي رسول الله ﷺ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجّارا قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض ، وسمع المسلمون بالمدينة خروج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة ينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة فانقلبوا يوما بعد أن طال انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم رقى رجل من اليهود أطما من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيّضين فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدّكم الذي تنتظرونه فثار المسلمون إلى السلاح فتلقّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتا فطفق من جاء من الأنصار ممّن آمن برسول الله ﷺ يحيّى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ، عند ذلك ولّما أقبل النبي ﷺ إلى المدينة كان مردفاً لأبي بكر وأبو بكر شيخ يعرف ونبي الله شاب لا يعرف قال فيلقى الرجل أباب بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك فيقول هذا الرجل الذي يهديني السبيل ، فيحسب الحاسب أنه يعني الطريق وإنما يعني سبيل الخير ، ولبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة ، وأسّس المسجد الذي أسّس على التقوى وصلّى فيه ثم ركب راحلته فصار يمشي معه الناس عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلّي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مريدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته هذه إن شاء الله المنزل ، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله

فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا.

وعن ابن عباس أقام رسول الله ﷺ بقباء يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وركب من قباء يوم الجمعة فجمّع في بني سلمة فكانت أوّل جمعة جمّعها في الإسلام وكان يمر بدور الأنصار دارا دارا فيدعونه إلى المنزل والمواساة فيقول لهم خيرا ويقول خلّوها فإنها مأمورة حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم وكان المسلمون قد بنوا مسجدا يصلّون فيه، فبركت ناقته ونزل وجاء أبو أيوب الأنصاري فأخذ رحله وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فلما خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد تعلقت به الأنصار فقال المرء مع رحله فنزل على أبي أيوب الأنصاري خالد بن يزيد بن كليب ومنزله في بني غنم بن النجار.

- قلت : هكذا تم سفر رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة.

- قال ياقوت : مدينة يثرب : هي مدينة الرسول ﷺ، نبدأ أولا بصفتها مجملا ثم نفصّل، أمّا قدرها فهي في مقدار نصف مكة، وهي في حرّة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه، ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار عليها العبيد، وللمدينة سور والمسجد في نحو وسطها، وقبر النبي ﷺ في شرقي المسجد وهو بيت مرتفع ليس بينه وبين سقف المسجد إلا فرجة وهو مسدود لا باب له وفيه قبر النبي ﷺ وقبر أبي بكر وقبر عمر والمنبر الذي كان يخطب عليه رسول الله ﷺ قد غشي بمنبر آخر، والروضة أمام المنبر بينه وبين القبر ومصلّى النبي ﷺ الذي كان يصلّي فيه الأعياد في غربي المدينة داخل الباب وبقيع الغرقد خارج المدينة من شرقيّها، وقباء خارج المدينة على نحو ميلين مما يلي القبلة، وهي شبيهة بالقرية، وأحد جبل في شمال

المدينة وهو أقرب الجبال إليها مقدار فرسخين ، وبقربها مزارع فيها نخيل وضياع لأهل المدينة ، ووادي العقيق فيما بينهما وبين الفرع ، والفرع من المدينة على أربعة أيام في جنوبيها ، وبها مسجد جامع غير أن أكثر هذه الضياع خراب وكذلك حوالي المدينة ضياع كثيرة أكثرها خراب وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق .

وللمدينة تسعة وعشرون اسماً ، وهي : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكينة ، والعذراء ، والجابرة ، والمحبّة ، والمحبّبة ، والمجبورة ، ويثرب ، والناجية ، والموفية ، وأكّالة البلدان ، والمباركة ، والمحفوفة ، والمسلمة ، والمجنّة ، والقدسيّة ، والعاصمة ، والمرزوقة ، والشافية ، والخيّرة ، والمحبوبة ، والمرحومة ، وجابرة ، والمختارة ، والمحرّمة ، والقاصمة ، وطابة .

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حين توجّه إلى الهجرة : اللهم إنك قد أخرجتني من أحب أرضك إليّ فأنزلني أحبّ أرض إليك فأنزله المدينة .

- قلت : هذا موجز لما وصف به ياقوت المدينة وقد أطال في حديثه عنها إطالة لا يتسع مقامنا هذا لذكر ما جاء فيها .

والحديث عن المدينة- طيبة الطيبة- حديث ذو شجون وشجون لا يتسع له مقامنا هذا ، وقد ألّف عنها علماء المسلمين مؤلّفات كثيرة خاصة ، تتحدّث عن تاريخها من كل جوانبه قديماً وحديثا .

وفي هذا العهد امتدّ عمران المدينة واتسعت مرافقها ، وشملها النمو الاجتماعي والعمراني والاقتصادي الذي شمل كثيراً من مدن المملكة العربية السعودية ، وكثر سكانها وعبّدت إليها الطرق من أنحاء البلاد وازدهرت مرافقها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وقد ألّف في ذلك كله كتب خاصة بها وذلك فإنني أكتفي بهذا

القدر من الحديث عن هذه المدينة المقدّسة وقد مرّ الحديث مفصّلا عن كل معالمها الجغرافية كل منها في رسمه في هذا الكتاب .

المدينـــــة : كالذي قبله : مدينة صالح ، وهي حجر ثمود .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾(١) .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : وكان في مدينة صالح ، وهي حجر ثمود تسعة أنفس يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وكان إفسادهم في الأرض : كفرهم بالله ، ومعصيتهم إيّاه ، إنما خصّ الله جلّ ثناؤه هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض ، ولا يصلحون ، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين ، لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقر الناقة ، وتعاونوا عليه ، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود .

وبسنده عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ قال : من قوم صالح .

وبسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُون ﴾ هم الذين عقروا الناقة ، وقالوا حين عقروها : نبيّت صالحا وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً وما لنا به علم فدمّرهم الله أجمعين .

وقال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي تسعة نفر ﴿ يُفْسِدُونَ فِي

---

(١) سورة النمل الآية رقم : ٤٨ .

ﭐلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ، لأنّهم كانوا كبراؤهم ورؤساءهم .

قال العوفي عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبّحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك .

وقال السدّي عن أبي مالك عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دعمى ، ودعيم ، وهرما ، وهريم ، وداب ، وصوأب ، ورياب ، ومسطع ، وقُدار بن سالف عاقر الناقة ، أي الذي باشر ذلك بيده ، قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبيّ الله صالح عليه السلام من لقيه ليلا غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم ، قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

وقال القرطبي : قال الضحّاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد ، والرهط اسم للجماعة ، مكانهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . والجمع أرهط وأراهط ، وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار عاقر الناقة ، ذكره ابن عطية .

قلت : وقد استوفيت الحديث عن خبر قوم صالح وما أصابهم من عذاب الله في رسم (الحجر) في هذا الكتاب فانظره .

المـــدينـــــــة : كالذي قبله : مدينة منف من مصر .

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾[1].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: ﴿ وَدَخَلَ ﴾ موسى ﴿ ٱلْمَدِينَةَ ﴾ مدينة منف من مصر ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ وذلك عند القائلة نصف النهار .

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله دخل موسى هذه المدينة في هذا الوقت فقال بعضهم : دخلها متبعا أثر فرعون ، لأن فرعون ركب وموسى غير شاهد ، فلما حضر علم بركوبه فركب واتبع أثره ، وأدركه المقيل في هذه المدينة .

وبسنده عن السدّي ، قال : كان موسى حين كبر يركب مراكب فرعون ، ويلبس مثل ما يلبس ، وكان إنما يدعى موسى ابن فرعون ، ثم إن فرعون ركب مركباً وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى قيل له : إن فرعون قد ركب ، فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض يقال لها منف ، فدخلها نصف النهار ، وقد تغلّقت أسواقها ، وليس في طرقها أحد ، وهي التي يقول الله : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

وقال آخرون : بل دخلها مستخفياً من فرعون وقومه ، لأنه كان قد خالفهم في دينهم ، وعاب ما كانوا عليه . قال : واختلفوا في الوقت الذي عني بقوله : ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فقال بعضهم: ذلك نصف النهار ، وعن بن عباس ، قال : يقولون في القائلة، قال : وبين المغرب والعشاء .

---

(١) سورة القصص الآية رقم : ١٥ .

قال ابن كثير : قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء . وقال ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار ، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدّي وقتادة .

وقال ياقوت : منف بالفتح ثم السكون وفاء : اسم مدينة فرعون بمصر ، قال عبدالرحمن بن عبد الله بن عبد الحكيم بإسناده : أول من سكن مصر بعد أن أغرق الله قوم نوح ، عليه السلام ، بيصر بن حام بن نوح فسكن منف وهي أول مدينة عمرت بعد الغرق وولده وهم ثلاثون نفساً ، فبذلك سمّيت مافة ، ومعنى مافة بلسان القبط ثلاثون ، ثم عرّبت فقيل منف ، وهي المرادة بقوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

وبمنف آثار الحكماء والأنبياء وبها كان منزل يوسف الصدّيق عليه السلام ، ومن كان قبله ومنزل فرعون موسى وكانت له عين شمس ، والفسطاط اليوم بين منف وعين شمس في منتهى جبل المقطّم ومنقطعه .

قلت : وبما أن مدينة منف ما زالت عامرة مأهولة بالسكان معروفة من خلال تاريخها العريق فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنها .

المدينـــــة : كالذي قبله : أنطاكية في مصر ، وقيل غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .

قال ابن جرير : وقوله ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾ يقول : وجاء من أقصى مدينة هؤلاء القوم الذين أرسلت إليهم هذه الرسل رجل يسعى إليهم ، وذلك أن أهل المدينة هذه عزموا ، واجتمعت آراؤهم على قتل هؤلاء الرسل الثلاثة فيما ذكر ، فبلغ ذلك الرجل ، وكان منزله أقصى المدينة ، وكان مؤمنا ، وكان اسمه فيما ذكر (حبيب بن مرى) .

قلت : الخبر الذي ورد في تفسير هذه الآية متصل بتفسير الآيات التي قبلها من قوله تعالى : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ (١) .

وقد تقدّم في الحديث عن هذه القرية أن المقصود بها أنطاكية ، والحديث عن هذه القرية مستوفى رسم هذه الآية وقد تقدّم فانظره .

المدينة : المقصود بهذا مدينة قوم لوط (سدوم) .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ (٢) .

قال ابن كثير : قال السدّي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأتوها نصف النهار ، فلما بلغوا سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان : اسم الكبرى ريثا والصغرى زغرتا ، فقالوا لها : يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت لهم :

---

(١) سورة يس الآية رقم : ١٣ .
(٢) سورة الحجر الآية رقم : ٦٧ - ٦٨ .

نعم ، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقّت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت : يا أبتاه ، أرادك فتيان على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فقالوا :خل عنا فلنضف الرجال .

فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ؟ فقالت : إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط ، فجاءه قومه يهرعون إليه .

وقال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يقول : وجاء أهل مدينة سدوم وهم قوم لوط لما سمعوا أن ضيفاً قد ضاف لوطا مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعاً منهم في ركوب الفاحشة .

قلت : وقد استوفيت الحديث عن قوم لوط وما حلّ بهم وبمدينتهم سدوم من العذاب في رسم القرية (سدوم) في هذا الكتاب فانظره .

المـــروة : المقصود هنا المروة التي هي شعيرة من شعائر الله ، في مكة .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : وإنما عنى الله تعالى ذكره بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ﴾ ، في هذا الموضع الجبلين المسمّيين اللذين في حرمه، دون سائر الصفا والمروة ، ولذلك أدخل فيهما (الألف واللام) ليعلم عباده أنه عنى بذلك الجبلين المعروفين بهذين الاسمين ، دون سائر الأصفاء والمروة .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٥٨ .

وأما قوله : ﴿ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ، فإنه يعني : من معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعباده معلما ومشعرا يعبدونه عندها ، إما بالدعاء وإما بالذكر ، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها . ومنه قول الكميت :

نقتّلهم جيلا فجيلا ، تراهم شعائر قربان بهم يـتقرّب

وقال القرطبي : وعن ابن عباس قال : كان في الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة ، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون : يا رسول الله ، لا نطوف بين الصفا والمرة فإنهما شرك ، فنزلت . وقال الشعبيّ : كان على الصفا في الجاهلية صنم يسمّى (اسافا) وعلى المروة صنم يسمّى (نائلة) فكانوا يمسحونها إذا طافوا ، فامتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك ، فنزلت الآية .

وقال ياقوت : المروة : واحدة المرو ، .. : جبل بمكة يعطف على الصفاء قال عرّام : ومن جبال مكة المروة جبل مائل إلى الحمرة ، أخبرني أبو الربيع سليمان بن عبد الله المكيّ المحدّث أن منزله في رأس المروة وأنها أكمة لطيفة في وسط مكة تحيط بها وعليها دور أهل مكة ومنازلهم . قال : وهي من جانب مكة الذي يلي قعيقعان ، وقد ثنّاه جرير وهو واحد في قوله :

فلا يقربنّ المروتين ولا الصفا ولا مسجد الله الحرام المطهّرا

قلت : وبما أن الصفا والمروة لهما شأن كبير في نفوس المسلمين وأن العلماء قد تحدّثوا عنها وصفا وبيانا لما يتصل بهما من أحكام الحج وأن لهما شهرة تغنى عن الإطالة في الحديث عنهما فإنني أكتفي بهذا القدر فيما يخص المروة ، وقد تقدّم في رسم (الصفا) مزيد من الإيضاح فانظره .

المسجد الأقصى : (بيت المقدس)

قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾[1].

روى ابن جرير بسنده عن قتادة ، في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ . أسرى بنبيّ الله عشاء من مكة إلى بيت المقدس ، فصلّى نبيّ الله فيه ، فأراه الله من آياته وأمره بما شاء ليلة أسري به ، ثم أصبح بمكة .

قال ابن كثير : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أي في جنح الليل ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمّهم في محلتهم ودارهم ، فدلّ على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدّم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ أي محمدا ﴿ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ أي العظام .

وقال ياقوت : إيلياء : بكسر أوله واللام ، وياء وألف ممدودة : اسم مدينة بيت المقدس ، قيل : معناه بيت الله . وحكى الحفصي فيه القصر ، وفي لغة ثالثة حذف الياء الأولى فيقال : إلياء بسكون اللام والمد ، قال أبو علي : وقد سمى البيت المقدس إيلياء بقول الفرزدق :

---

(١) سورة الأسراء الآية رقم : ١ .

وبيتان بيت الله نحن ولاته ... وقصر بأعلى إيلياء مشرّف

وقيل : إنما سميت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ، وهو أخو دمشق وحمص وأردن وفلسطين ، قال بعض الأعراب :

فلو أن طيرا كلّفت مثل سيره ... إلى واسط من إيلياء لكلّت

سما بالمهارى من فلسطين بعدما ... دنا الفيئ من شمس النهار فولّت

فما غاب ذاك اليوم حتى أناخها ... بميسان قد حلّت عراها وكلّت

كأن قطاميا من الرّحل طاويا ... إذا غَمْرَة الظلماء عنه تجلّت

وتحدّث ياقوت عن المقدس فقال : المقدس في اللغة المنزّه ، قال المفسّرون في قوله تعالى : ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، قال الزجاج : معنى نقدّس لك أي نطهّر أنفسنا لك وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدّسه أي نطهّره ، قال : ومن هذا بيت المقدس . كذا ضبطه بفتح أوله وسكون ثانيه ، وبتخفيف الدال وكسرها ، أي البيت المقدّس المطهّر الذي يتطهّر به من الذنوب ، قال مروان :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها ... إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس

ودع المدينة أنها محذورة ... والحق بمكة أو ببيت المقدس

وقال قتادة : المراد بأرض المقدس أي المبارك ، وإليه ذهب ابن الأعرابي ، ومنه قيل للراهب مقدّس ، ومنه قول امرئ القيس :

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا ... كما شبرق الولدان ثوب المقدّس

وصبيان النصارى يتبرّكون به وبمسح مسحة الذي هو لابسه وأخذ خيوطه منه حتى يتمزّق عنه ثوبه .

وفضائل بيت المقدس كثيرة ، تحدث ياقوت عنها وأطال في ذكرها وقال : ولا بد من ذكر شيء هنا حتى يستحسنه المطّلع عليه ، قال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] ، قال هي بيت المقدس .

وقوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾[2] ، يعني بيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[3] . قال : البيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾[4] ، هو بيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾[5] ، البيت المقدس .

وعن النبي ﷺ : لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد بيت المقدس .

ثم استرسل ياقوت في ذكر فضائل بيت المقدس وفي وصفه وذكر طائفة من الزهاد والفقهاء الذين ينسبون إليه .

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم : ٧١ .
(٢) سورة طـه الآية رقم : ٨٠ .
(٣) سورة المؤمنون الآية رقم : ٥٠ .
(٤) سورة الأسراء الآية رقم : ١ .
(٥) سورة النور الآية رقم : ٣٤ .

وأما فتحها في أول الإسلام .. فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفذ عمرو بن العاص إلى فلسطين ثم نزل البيت المقدس فامتنع عليهم فقدم أبو عبيدة بن الجراح بعد أن فتح قنّسرين وذلك في سنة ١٦ للهجرة فطلب أهل بيت المقدس من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول في ما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولى للعقد لهم عمر بن الخطاب ، فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر فقدم عمر ونزل الجابية من دمشق ثم صار إلى بيت المقدس فأنفذ صلحه وكتب لهم به كتابا وكان ذلك في سنة ١٧هـ.

وقال ياقوت : ورُوي عن كعب أنه قال : لا تسمّوا بيت المَقْدِس إيلياء ولكن سمّوه باسمه فإن إيلياء امرأة بنت المدينة .

وتحدث البلاذري عن فتح إيلياء وقال : وقدم أبو عبيدة بعد أن فتح قنّسرين ونواحيها سنة ١٦هـ - على عمرو بن العاص وهو محاصر إيلياء - وإيلياء مدينة بيت المقدس . فيقال إنه وجهه إلى أنطاكية من إيلياء وقد غدر أهلها ، ففتحها ثم عاد فأقام يومين أو ثلاثة . ثم طلب أهل إيلياء من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صُولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولى للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه . فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك ، فقدم عمر فنزل الجابية من دمشق ، ثم صار إلى إيلياء ، فأنفذ صلح أهلها وكتب لهم به . وكان فتح إيلياء في سنة سبع عشرة .

وقال الحميري : إيلياء : ويقال أيلياء بفتح الهمزة ، مدينة بالشام وهي بيت المقدس ، وهي مدينة قديمة جليلة على جبل يصعد إليها من كل جانب وهي طويلة من المغرب إلى المشرق .

... مدينة إيلياء مسوّرة في نشز من الأرض ، والجبال محيطة بها ، وتحدث عن وصفها ثم قال : وكان أبو عبيدة بن الجراح رضي

الله عنه أمير الجيش قد كتب إلى بطاركة إيلياء يدعوهم إلى الإسلام أو أداء الجزية فالتووا عليه فنزل عليهم وحاصرهم حصارا شديدا فلما رأوا أنه غير مقلع عنهم واشتدّ عليهم الحصار سألوه أن يصالحهم على أن يعطوه الجزية فأجابهم إلى ذلك ، فقالوا : فأرسل إلى خليفتك فيكون هو الذي يعطينا العهد ويكتب لنا الأمان فإنا لا نرضى إلابه ، فاستوثق منهم أبو عبيدة ... ثم خاطب عمر رضي الله عنه بما دعوا إليه .. فسار عمر رضي الله عنه نحو إيلياء وخرج المسلمون يستقبلونه ، فخرج أبو عبيدة رضي الله عنه بالناس وأقبل عمر رضي الله عنه على جمل له عليه ورحل ملبّس جلد كبش حولي حتى انتهى إلى مخاضة ، فأقبلوا يتبادرونه حتى نزل عن بعيره وأخذ بزمامه وهو من ليف ، معهم برذون يجنبونه قالوا : يا أمير المؤمنين اركب هذا البرذون فإنه أحجابك أهون عليك في ركوبه ولا نحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة ، واستقبلوه بثياب بيض فركب البرذون ، فلما هملج به نزل عنه وقال : خذوه هذا عني فإنه شيطان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين لو لبست هذه الثياب البيض وركبت هذا البرذون لكان أجمل في المروءة وأحسن في الذكر فقال عمر رضي الله عنه : ويحكم لا تعتزوا بغير ما أعزكم الله به فتذلوا .

قلت : والحديث عن بيت المقدس ، صفاته وفضائله وما تعرض له خلال القرون الغابرة طويل جدا ، وذو شجون ، وهو اليوم واقع تحت الاحتلال الصهيوني المجرم البغيض .

وأسأل الله أن يعزّ دينه ويعلي كلمته ولو كره المجرمون .

المسجد الحرام : المقصود به المسجد الحرام الذي في مكة .

قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾[1].

---

(١) سورة الاسراء الآية رقم : ١ .

وقال تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : وأما قوله ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فإنه اختلف فيه وفي معناه فقال بعضهم : يعني من الحرم ، وقال : الحرم كله مسجد .

وقد ذكر لنا أن النبي ﷺ كان ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان نائماً في بيت أمّ هانئ ابنة ابي طالب .

وقال ابن كثير : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أي في جنح الليل ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم ، فدل على أنه الإمام الأعظم ، والرئيس المقدّم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ أي محمدا ﴿ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾ أي العظام . كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : لقد صدق الله رسوله محمداً رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين ، لا يخافون أهل الشرك مقصّرا بعضهم رأسه ، ومحلّقا بعضهم .

---

(١) سورة الفتح الآية رقم : ٢٧ .

حدثني محمد بن سعد ، قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ قال هو دخول محمد ﷺ البيت والمؤمنون ، محلّقين رؤوسهم ومقصّرين .

حدثني محمد بن عمرو ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا عيسى، وحدثني الحارث ، قال : ثنا الحسن ، قال : ثنا ورقاء جميعا ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله ﴿ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾ قال : أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلّقين .

وقال القرطبي : ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابيا . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول اله ﷺ قال : (أتيت بالبراق وهو دابر أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه- قال- فركبته حتى أتيت بيت المقدس- قال- فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء- قال- ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة- قال- ثم عرج بنا إلى السماء ..) .

قلت : وبما أن المسجد الحرام والمسجد الأقصى لهما شهرة تاريخية واجتماعية إلى جانب شهرتهما ومكانتهما الكبيرة في نفوس المسلمين ، وأن علماء المسلمين قد ألّفوا عن كل واحد منهما كتبا خاصة به قديما وحديثا ، فإنني أكتفي بهذا القدر عن الحديث عنهما ، وقد تقدّم الحديث عن المسجد الأقصى في رسمه في هذا الكتاب .

مسجد الضّـرار : الضّرار : بضاد معجمة مكسورة وراء مهملة بعدها ألف وبعد الالف راء : مسجد بني ضرارا لمسجد رسول الله ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (١) .

قال ابن جرير : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ وهم فيما ذكر اثنا عشر نفسا من الأنصار .

وروى بسنده عن ابن حميد عن سلمة ، عن ابن إسحاق عن الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر وقتادة وغيرهم قالوا : أقبل رسول الله ﷺ - يعني : من تبوك - حتى نزل بذي أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار . وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة العاتية ، وإنّا نحب أن تأتينا فتصلّي لنا فيه فقال : إنّي على جناح سفر وحال شغل - أو كما قال رسول الله - ولو قد قدمنا أتيناكم إن شاء الله ، فصلّينا لكم فيه . فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي - أو أخاه : عاصم بن عدي - أخا بني العجلان فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٧ .

إلى أهله ، فأخذ سعفا من النخل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرّقاه وهدماه ، وتفرّقوا عنه . ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ .

وقال أبو جعفر : فتأويل الكلام : والذين ابتنوا مسجدا ضرارا لمسجد رسول الله ﷺ ، وكفرا بالله لمحادّتهم بذلك رسول الله ﷺ ، ويفرّقوا به المؤمنين ، ليصلّي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا ، ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ، يقول : واعدادا له لأبي عامر الكافر ، الذي خالف الله ورسوله ، وكفر بهما ، وقاتل رسول الله ، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد . وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزّب الأحزاب- يعني : حزّب الأحزاب لقتال رسول الله- فلما خذله الله ، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبيّ الله ، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه ، فيما ذكر عنه ، ليصلّي فيه ، فيما يزعم، إذا رجع إليهم . ففعلوا ذلك . وهذا معنى قول الله جلّ ثناؤه : ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ . ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يقول جلّ ثناؤه : وليحلفن بانوه : ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، ببنائنا ، إلا الرفق بالمسلمين ، والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلّة ومن عجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ ، للصلاة فيه ، وتلك هي الفعلة الحسنة ، ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ، في حلفهم ذلك ، وقيلهم : " ما بنيناه إلا ونحن نريد الحسنى" ولكنهم بنوه يريدون ببنائه السوّآي ، ضرارا لمسجد رسول الله ، وكفرا بالله ، وتفريقا بين المؤمنين ، وإرصادا لأبي عامر الفاسق .

وقال ابن كثير : كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق أبو عامر بريقه وبرز بالعداوة وظهر بها ، وخرج فاراً إلى كفّار مكة من مشركي قريش يحالفهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان ، وكانت العاقبة للمتقين .

وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرّد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدا طريدا فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنهم سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه وأمرهم أن يتخذوا معقلا يقدم عليهم فيه من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلّي في مسجدهم ليحتجّوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة ، في الليلة العاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : (أنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله) فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر

مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسّس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ، هم أناس من الأنصار بنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجنود من الروم وأخرج محمدا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلّى فيه ، وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ إلى قوله ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

قال ابن القيّم : وأقبل رسول الله ﷺ من تبوك ، حتى نزل بذي أوان ، وبينها وبين المدينة ساعة ، وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنّا قد بنينا مسجد الذي العلّة والحاجة ، والليلة المطيرة العاتية ، وإنّا نحب أن تأتينا فتصلّي لنا فيه ، فقال : (إنّي على جناح سفر ، حال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلّينا لكم فيه) ، فلما نزل بذي أوان جاءه خبر المسجد من السماء ، فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سلمة بن عوف ، ومعن بن عدي العجلاني ، فقال : (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه ، وحرّقاه ، فخرجا مسرعين ، حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، ودخل إلى أهله ، فأخذ سعفا من النخل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه - وفيه أهله - فحرقاه وهدماه ، فتفرّقوا عنه ، فأنزل الله فيه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، إلى آخر القصة .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ ، هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم ، واستمدّوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم ، أتوا النبي ﷺ فقالوا : إنّا قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلّي فيه ، وتدعو بالبركة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ يعني مسجد قباء : ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ يعني قواعده ، ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني : الشك ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني بالموت .

وقال الواقدي : حدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن رومان ، قال : أقبل رسول الله ﷺ يعني من تبوك حتى نزل بذي أوان ، وقد كان جاءه أصحاب مسجد الضرار فقالوا يا رسول الله ، إنّا رسل من خلفنا من أصحابنا ، إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة ، والليلة المطيرة ، والليلة العاتية ، ونحن نحب أن تأتينا فتصلّي بنا فيه ، ورسول الله ﷺ يتجهّز إلى تبوك ، قال رسول الله ﷺ : إنّي على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا بكم فيه ، فلما نزل رسول الله ﷺ بذي أو أن راجعاً من تبوك أتاه خبره وخبر أهله من السماء ، وكانوا إنما بنوه ، قالوا بينهم : يأتينا أبوعامر فيتحدّث عندنا فيه ، فإنه يقول : لا أستطيع آتي مسجد بني عمرو بن عوف ، إنما أصحاب رسول الله يلحظوننا بأبصارهم . يقول

الله تعالى : ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ يعني أبا عامر . فدعا رسول الله ﷺ عاصم بن عدي العجلاني ، ومالك بن الدخشم السالمي ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه ثم حرّقاه فخرجا سريعين على أقدامهما حتى أتيا مسجد بني سالم ، فقال مالك بن الدخشم لعاصم بن عديّ : أنظرني حين أخرج إليك بنار من أهلي . فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه النار . ثم خرجا سريعين يعدوان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعشاء ، وهم فيه ، وإمامهم فيه يومئذ مجمع بن جارية فقال عاصم : ما أنسى بين تشرفهم إلينا كأن آذانهم آذان السرحان ، فأحرقناه حتى احترق ، وكان الذي ثبت فيه من بينهم زيد بن جارية بن عامر حتى احترقت أليته ، فهدمناه حتى وضعناه بالأرض . وتفرّقوا .

قلت : وقد اتفقت أقوال العلماء والمؤرخين على خبر (مسجد الضّرار) وسبب نزول الآية الكريمة في خبره على رسول الله ﷺ والغرض من بنائه ، وفي تحديد مكانه وإحراقه وهدمه ، ولم يختلفوا في شيء من ذلك ، وقصة مسجد الضرار مشهورة في كتب التفسير وكتب التاريخ ، وما تقدّم هو موجز لما ذكره بعض المفسّرين وبعض المؤرخين من خبر هذا المسجد وخبر المنافقين الذين قاموا ببنائه ، وما انتهى إليه أمر هذا المسجد وأمر المنافقين الذين بنوه .

مسجد قباء ، قباء : بقاف مثناة مضمومة بعدها باء موحدة وآخره ألف ممدود : ضاحية معروفة في المدينة .

قال الله تعالى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة التوبة الآية رقم : ١٠٨ .

قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل في المسجد الذي عناه بقوله : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ .

وروى بسنده عن أبي سعيد وعن ابن عمر وعن زيد وعن سعيد بن المسيّب وغيرهم أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ الذي في المدينة .

وروى بسنده عن ابن عباس وعن عطية وعن ابن بريدة وغيرهم أن المسجد الذي عني في الآية هو مسجد قباء .

وروى بسنده عن قتادة عن شهر بن حوشب قال : لما نزلت : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ ما الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ قالوا : يا رسول الله نغسل أثر الغائط .

وقال ابن كثير : وقد صرّح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الزراق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير ، وقاله عطية الصوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهذا صحيح ..ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي عن عمران بن أبي أنس ، عن سهل بن سعد عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال : (المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا) . تفرد به أحمد .

وقال ابن القيّم : وقد سئل- يعني النبي ﷺ- عن المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال : " هو مسجدكم هذا " وأشار إلى مسجد المدينة ، وهذا لا ينفي أن يكون مسجد قباء الذي نزلت فيه الآية مؤسسا على التقوى ، بل كل منهما مؤسس على التقوى .

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيا وراكبا وكان عبد الله رضي الله عنه يفعله

قال ابن حجر : قباء : بضم القاف ثم موحدة ممدودة عند أكثر أهل اللغة وأنكر البكري قصره ولكن حكاه صاحب العين ، قال البكري : من العرب من يذكره فيصرفه ، ومنهم من يؤنّثه فلا يصرفه . وفي المطالع : هو على ثلاثة أميال من المدينة ، وقال ياقوت : على ميلين على يسار قاصدي مكة ، وهو من عوالي المدينة ، وسمّى باسم بئر هناك .

وقال المراغي : وروى ابن النجار بسنده إلى عويمر بن ساعدة أن النبي ﷺ قال لأهل قباء أن الله قد أحسن الثناء عليكم في كتابه العزيز : فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا- الآية- ما هذا الطهور ؟ قالوا : ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا .

وقال المراغي : ولم يزل مسجد قباء على ما بناه رسول الله ﷺ إلى أن بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند بناء مسجد المدينة على هذه الحالة التي هو عليها اليوم ، فتشعّب على طول الزمان فتهدّم فجدّده في سنة خمس وخمسين وخمسمائة الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي المنصور الأصبهاني المعروف بالجواد ، والصحيح أن قباء على ثلاثة أميال من المدينة ، وقال الباجي : على ميلين ، وقال القاضي

عياض : بنو عمرو بن عوف على ثلثي فرسخ ، قال ابن النجار : ذرعت مسجد قباء فكان طوله ثمانية وستين ذراعاً يشف قليلاً ، وعرضه كذلك ، وارتفاعه في السماء عشرون وطول منارته من سطحه إلى رأسها اثنان وعشرون والمنارة على يمين المصلى وهي مربعة والله أعلم .

وقال المطري : مسجد قباء في بني عمرو بن عوف : وكان مربدا لكلثوم بن الهدم فأعطاه رسول الله ﷺ فبناه مسجداً وأسّسه وصلّى فيه قبل أن يأتي المدينة ... ولم يزل مسجد قباء على ما بناه رسول الله ﷺ إلى أن بناء عمر بن عبدالعزيز رحمه الله عند بناء مسجد المدينة على هذه الحالة التي هو عليها اليوم فتشعّث على طول الزمان وتهدّم فجدّده الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير بني زنكي ... وذلك في سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وقباء على ثلاثة أميال من المدينة ، وقال الباجي : هو على ميلين وقال القاضي عياض : بنو عمرو بن عوف على ثلثي فرسخ، والصحيح الأول وهو مروي عن مالك رحمه الله .

- وقال ياقوت : قباء : بالضم وأصله اسم بئر هناك عرّفت القرية بها وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار ، وألفه واو يمد ويقصر ، يصرف ولا يصرف ولم يحك فيه القالي سوى المدّة ، قال الخليل : هو مقصور ، قال ياقوت : فمن قصره جعله جمع قبوة وهو الضم والجمع في لغة أهل المدينة .

وقال أبو حنيفة ، رحمه الله في اشتقاق قباء : إنه مأخوذ من القبو وهو الضم والجمع ، ولم يذكر أهو جمع أو مفرد : وهي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير ، وهناك مسجد التقوى عامر قدّامه رصيف وفضاء حسن وآبار ومياه عذبة ، وبها

مسجد الضرار يتطوع العوام بهدمه ، كذا قال البشّاري وذكر كثير من فضائل مسجد قباء ، وعددا ممن ينسب إليها من العلماء والمحدّثين .

قال السرّي بن عبد الرحمن بن عتبة بن عويمر بن ساعدة الأنصاري :

ولها مربع ببرقة خاخ ومصيف بالقصر قصر قباء
كفّنوني إن متّ في درع أروى واغسلوني من بئر عروة مائي
سخنة في الشتاء باردة الصيف سراج في الليلة الظلماء

– قلت : وقد أكثر المتقدّمون من المؤرخين من ذكر قباء وتحديد موقعها وفضائل مسجدها وأطالوا في أحاديثهم في وصف ذلك ، وبما أن قباء ناحية من عوالي المدينة معروفة بهذا الاسم قديما وفي هذا العهد وأن مسجدها قد استمرّ عمرانه من عهد النبي ﷺ ، ولم تنقطع الصلاة فيه إلى هذا العهد فإنني أكتفي من أقوال المتقدّمين بما تقدّم .

وكذلك فإن المؤرخين المتأخرين قد تحدّثوا عن قباء وعن مسجدها وأكثروا من الحديث في ذلك ، وسأذكر هنا بعضاً ممّا ذكروه .

قال عبد القدوس الأنصاري : يقع مسجد قباء في الجنوب الغربي للمدينة . وشكله مربع وضلعه ٤٠ متراً وعدّة أساطينه ٢٩ ، وفيه محراب ومنبر رخاميّ عتيق ، كان الأشرف قايتباي أهداه للمسجد النبوي ليوضع في مكان المنبر المحترق ، وذلك في سنة ٨٨٨هـ ، وبعد أن بعث السلطان مراد العثمانيّ بالمنبر الحالي إلى المسجد النبوي نقل هذا المنبر إلى مسجد قباء .

ولمسجد قباء مئذنة وفيه رحبة محصّبة فيها قبّة يقال إن بها مبرك ناقة النبي ﷺ ، وفي الرحبة بئر ، وبجدار المسجد القبلي في

شرقيّة محراب يقال له : (طاقة الكشف) وفيه يقول صاحب مرآة الحرمين : ولا أدري كشف أيّ شيء ؟

وممّا يسترعي الانتباه من آثار هذا المسجد هذا الحجر المنقوش بالخط الكوفي القديم فإنه ينطق بعمارة المسجد من قبل أحد الأشراف عام ٤٣٥هـ وكأنّه نقل في بعض تعميرات المسجد من بابه إلى هذا المحراب ونصب عليه .

والقسم المسقّف من المسجد قباب وعدّة أروقته ستة ، وفي الرواقين اللذين بمؤخره غرفة لوضع أمتعته وفرشه ، وله دعائم خارجية في جنوبه وشماله وشرقه ، لتقوية جدرانه من هذه الجهات نظر الانخفاض ما يجاورها من الأرض .

ويبعد عن المدينة بنحو (٤٠) دقيقة بالمشي المعتدل باعتبار مبدأ السير من باب قباء . ثم تحدّث عبد القدّوس الأنصاري عن عمران هذا المسجد وعن الطرق المؤدية إليه من عهد النبي ﷺ إلى هذا العهد الذي انتهى بعمارته في سنة ١٣٨٨هـ في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود أثابه الله .

هذا موجز لما ذكره عبد القدّوس الأنصاري في كتابه آثار المدينة المنورة .

وقال الشنقيطي : وكان مسجد قباء يبعد ثلاثة أميال من المسجد النبوي ولكن العمران إتصل به من المدينة وأصبحت قباء حيّا وسط عمران المدينة فقد انسابت المباني جنوبه وغربه بشكل عجيب ، وبغربيّة كانت توجد الحديقة التي فيها بئر أريس التي سقط فيها خاتم النبي ﷺ من يد عثمان رضي الله عنه ، وقد أدركت هذه البئر

وبها ماء وعليها عريش مظلّ ، ثم تحوّل مكانها ومكان النخيل من حولها إلى ساحة فسيحة لوقوف السيارات .

وفي عهد الملك فهد بن عبد العزيز أمر بتوسعة هائلة لمسجد قباء على نفقته الخاصة ، وهي من الجهة الشمالية والعمل فيها جار الآن على قدم وساق ، أعني في شهر رمضان عام ١٤٠٥ هـ .

قلت : هذا بعض ما ذكره الشنقيطي عن مسجد قباء .

قباء : كالذي قبله- وينطقه العامة بإسكان القاف مسبوقة بهزة مكسورة ، وبالقصر : ماء عد قديم يقع في ناحية حرة كشب الشرقية ، وهو ماء مشهورو فير الماء يمر به طريق حاج العراق القديم ، قال ياقوت : قباء : موضع بين مكة والبصر . وقال الهجري : الخارج من ضريّة يريد مكة ، يشرب بالجديلة ثم فلجة ثم الدّثينة ، ثم قباء ، ثم مران ، ثم ذات عرق ، ثم البستان ، ثم مكة .

ويلاحظ أنه ورد في عبارة الهجري ممدودا .

أمّا البكري فإنه ذكره ممدودا وأنكر على من ذكره بالقصر ، قال : قباء : بضم أوله ، ممدودا ، على وزن فعال ، من العرب من يذكّره ويصرفه ومنهم من يؤنثه ولا يصرفه ، وهما موضعان : موضع في طريق مكة من البصرة ، وقباء آخر في المدينة ، قال ابن الزّبعري في صرفه :

حــين حكّــت بقــبــاء بــركها   واســتحرّ القــتل في عــبد الأشــل

وقال الأصفهاني في ذكر مراحل طريق الحجّ : ترد الدّثينة ، وهي قرية في طريق البصرة إلى مكة ، فترد قاعا يقال له قاع الجنوب ، ثم ترد قباء ، ثم مرّان ، وهو ماء وقرية غنّى كبيرة ونخل .

وقال الهمداني : قباء عليه بهش ونخل وخراب ، وهو لعامر بن ربيعة، ومرّان نخل وبهسن وحصين ، وهو بين قباء والشبيكة زائغ في الحرّة .

وقال الحربي : أخبرني ابن أبي سعد عن النوفلي عن أبيه قال: قباء في الحرّة ، ومن الدّثينة إلى قباء سبعة وعشرون ميلاً ، وبقباء بئر قريبة الماء وماء كثير ، وعلى ثمانية أميال من قباء متعشّى يقال له بلد ، فيه آبار عذبة ، ثم مرّان .

ومن قصيدة وهب بن جرير في منازل حاجّ العراق ، ذكرها الحربي :

حتّى إذا مرّت على الدّثينة وقد ونت ، وهنّ قد ونينه
تشكو الحفا وهنّ قد حفينه

فلم تعرّج ومضت عشاء بنا نقود أنيقا رواء
فوردت قبل الضحى قباء

فنزل القوم به عجالا قد أقّدوا وأنصبوا الأجمال
فأوردوا لم يضعوا الرّحالا

ثم مضت مصعدة في الحرّة لازمة للقصد والمجرّة
عجلاء تجري قصدها مسرّة

لاغبة بين رذايا لغّب وهي إذا حركتها كالقرهب
تهوى إذا انحطّت هويّ الكوكب

فصبّحت قبل الشروق مرّان بين حراجيج ضعاف الأركان
تعسف أجواز الفلا بالرّكبان

قلت : وقباء لا يزال معروفا باسمه هذا وقد استوفيت الحديث عنه في كتابي معجم (عالية نجد) في رسمه فانظره .

قباء : كالذي قبله أيضا : قال ياقوت : مدينة كبيرة من ناحية فرغانة قرب الشاش ، نسب إليها قوم من أهل العلم بكل فن ، عن ابن طاهر ، وذكر ياقوت عددا من المنسوبين إليها من العلماء .

قلت : هكذا نرى أن قباء من الأسماء المشتركة ، يسمّى به عدد من المواضع أشهرها قباء الذي في المدينة ، لشرفه وأهميّته الإسلامية .

مسكن سبأ : سبأ : بسين مفتوحة وباء موحدة وآخره همزة مقصورة : بلاد في اليمن .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[1] .

قال ابن جرير : يقول تعالى : لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بيّنة وحجّة واضحة ، على أنه لا ربّ لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها .

وروى ابن جرير بسنده عن قتادة في قوله ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ قال : كانت جنتان بين جبلين ، فكانت المرأة تخرج مكتلها على رأسها فتمشي بين جبلين ، فيمتلئ مكتلها وما مسّت يدها ، فلمّا طغوا بعث الله عليهم دابة يقال لها (جرذ) فنقب عليهم فغرّقتهم ، فما بقي لهم إلاّ الأثل وشيء من سدر قليل .

(١) سورة سبأ الآية رقم : ١٥ .

وقال ياقوت : سبأ : بفتح أوله وثانيه وهمز آخره وقصره ، أرض باليمن مدينتها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، وسميت هذه الأرض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وكان اسم سبأ عامراً ، وإنما سمّى سبأ لأنه أول من سبي السّبي .

ولما كان سيل العرم ، تفرّق أهل هذه الأرض في البلاد وسار كل طائفة منهم إلى جهة فضربت العرب بهم المثل فقيل : ذهب القوم أيدي سبأ وأيادي سبأ أي متفرقين ، شبهوا بأهل سبأ مزقهم الله تعالى كل ممزق فأخذت كل طائفة منهم طريقا .

قلت : وقد تقدّم في الحديث عن العرم وسد مأرب مزيد من الإيضاح فيه كفاية إن شاء الله .

المشعر الحرام : بميم مفتوحة بعدها شين مثلثة ساكنة ثم عين مهملة مفتوحة وآخره راء مهملة : مشعر مزدلفة .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ ﴾[1] .

قال ابن جرير : المشاعر هي المعالم من قول القائل : (شعر بهذا الأمر) اي علمت ، فالمشعر هو المعلم . سمى بذلك لأن الصلاة عنده والمقام والمبيت والدعاء من معالم الحج وفروضه التي أمر الله بها عباده .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ١٩٨ .

وروى بسنده عن أبي نجيح قال : يستحب للحاج أن يصلي في منزله بالمزدلفة إن استطاع ، وذلك أن الله قال : ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ . فأما ﴿ ٱلْمَشْعَرِ ﴾ فإنه هو ما بين جبلي المزدلفة من مأزمى عرفة إلى محسّر وليس مأزما من المشعر .

وبسنده عن إبراهيم قال : رأى ابن عمر الناس يزدحمون على الجبيل بجمع ، فقال : أيها الناس إن جمعا كلها مشعر .

وبسنده عن قتادة قوله : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ قال قتادة : كان ابن عباس يقول : ما بين الجبلين مشعر .

وقال ابن كثير : والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم .

وبسنده عن سالم ، قال : قال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها .

وبسنده عن إبراهيم ، قال : رآهم ابن عمر يزدحمون على قزح ، فقال : على ما يزدحم هؤلاء ، كل ما ههنا مشعر .

وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدّي والربيع بن أنس والحسن وقتادة أنهم قالوا : ما بين الجبلين.

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أين المزدلفة ؟ قال : إذا أفضت من مأزمى عرفة فذلك إلى محسّر : قال : وليس مأزما عرفة من المزدلفة ، ولكن مفضاهما .

قال ياقوت : جمع : ضدّ التفرق : هو المزدلفة ، وهو قزح ، وهو المشعر ، سمّى جمعا لاجتماع الناس به ، قال ابن هرمة :

سلا القلب ، إلا من تذكّر ليلة بجمع وأخرى أسعفت بالمحصّب
ومجلس أبكار ، كأن عيونها عيون المها أنضين قدّام ربرب

وقال آخر :

تمنّى أن يرى ليلى ، بجمع ليسكن قلبه مما يعاني
فلمّا أن رآها خولته بعادا ، فتّ في عضد الأماني
إذا سمح الزمان بها وضنّت عليّ ، فأي ذنب للزمان ؟

وقال ابن القيّم : ومحسر : برزخ بين مني وبين مزدلفة ، لا من هذه ، ولا من هذه ، وعرنة : برزخ بين عرفة والمشعر الحرام ، فبين كل مشعرين برزخ وليس منهما ، فمني : من الحرم ، وهي مشعر ، ومحسّر: من الحرم ، وليس بمشعر ، ومزدلفة : حرم ومشعر ، وعرنة ليست مشعرا ، وهي من الحل . وعرفة : حل ومشعر .

قلت : وبما أن هذه المشاعر لها شهرة إسلامية ومكانة في نفوس المسلمين والحج يتكرر عليها كل سنة ، وبما أن علماء المسلمين قد ألفّوا عنها- تحديدها وأحكامها- كتبا كثيرة قديمة وحديثة فإنني أكتفي بهذا القدر في التعريف بالمشعر الحرام .

مصرا : بميم مكسورة بعدها صاد مهملة ساكنة ثم راء مهملة بعدها الف : المقصود به أيّ مصر من الأمصار هبطوا .

قال تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾(١) .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٦١ .

قال ابن جرير : اختلف القرأة في قراءة قوله : ﴿ مِصْرًا ﴾ فقرأه عامة القرأة (مصرا) بتنوين (المصر) وإجرائه . وقرأه بعضهم بترك التنوين وحذف الألف منه . فأما الذين نوّنوه وأجروه ، فإنهم عنوا به مصرا من الأمصار ، لأنكم في البدو ، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي ، وإنما يكون في القرى والأمصار ، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش . وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بالإجراء والتنوين ، كان تأويل الكلام عنده : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ ، البلدة التي تعرف بهذه الاسم ، وهي مصر التي خرجوا عنها ، غير أنه أجراها ونوّنها اتّباعا منه خطّ المصحف ، لأن في المصحف ألفا ثابتة في (مصر) فيكون سبيل قراءته ذلك بالإجراء والتنوين .

وروى بسنده عن قتادة : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ ، أي مصرا من الأمصار .

وبسنده عن السدّي : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ ، من الأمصار .

وبسنده عن مجاهد : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ قال : مصرا من الأمصار .

وقال : فأما القراءة ، فإنها بالألف والتنوين : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ . وهي القراءة التي لا يجوز عندي غيرها ، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين ، واتفاق قراءة القرأء على ذلك ، ولم يقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه ، إلا من لا يجوز الاعتراض به على الحجة ، فيما جاءت به من القراءة مستفيضاً بينها .

قال ابن كثير : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ هكذا هو منوّن مصروف مكتوب بالألف في المصاحف ، وهو قراءة الجمهور بالصرف ، قال ابن عباس : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ قال مصرا من الأمصار . وجزم في آخر

حديثه في تفسير الآية قائلاً : والحق أن المراد : مصر من الأمصار ، كما روى عن ابن عباس وغيره .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ و (مصرا) بالتنوين منكّرا قراءة الجهور ، وهو خط المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صرفها أراد مصرا من الأمصار غير معيّن .

وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ قال : مصرا من هذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صرفها أيضا : أراد مصر فرعون بعينها . استدل الأولون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعدالتيه . واستدل الآخرون بما في القرآن من أن الله أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائي : لخفتها .

قلت : اختلف علماء التفسير بشأن صرف (مصر) كما اختلفوا في المقصود بمصر في هذه الآية ، هل هو مصر البلد المعروف أم أنه أي مصر من الأمصار .

ورجّحوا أن المقصود في هذه الآية هو أي مصر من الأمصار ، وأن قراءة هذه الآية بالتنوين والصرف هي أصحّ القراءات .

مصـــــــر : بميم مكسورة وصاد مهملة ساكنة وآخره راء مهملة : المقصود به مصر البلد المعروف .

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ (١).

---

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٢١ .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (١) .

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى : يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه ، وأوصى أهله به ، وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير . حدثنا العوفي عن ابن عباس وكان اسمه فطفير . وقال محمد بن إسحاق : اسمه أطفير بن روحيب وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يؤمئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، قال : واسم امرأته راعيل بنت رعابيل ، وقال غيره: اسمها زليخا ، وقال محمد بن إسحاق أيضا ، عن محمد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس: كان الذي باعه بمصر مالك بن ذعر بن قريب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم ، فالله أعلم .

وفي تفسير الآية الثانية قال ابن كثير : يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ، وقدومه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم لأخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم ، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال : إن الملك خرج أيضا لتلقيه ، وهو الأشبه .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة يوسف الآية رقم : ٩٩ .
(٢) سورة يونس الآية رقم : ٨٧ .

قال ابن جرير : عن قتادة قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ ، قال : وذلك حين منعهم فرعون من الصلاة ، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وأن يوجّهوا نحو القبلة .

وبسنده عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال : قالت بنو إسرائيل لموسى : لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله لهم أن يصلّوا في بيوتهم ، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة .

وبسنده عن مجاهد في قوله : ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ ، قال : (مصر) ، الإسكندرية .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

قال ابن جرير ، عن قتادة قال : كانت لهم جنّات وأنهار ماء .

قلت : هذه الآيات الكريمة الأربع المتقدّمة المقصود بها مصر البلد المعروف الذي كان يسكنه فرعون الذي أغرقه الله هو وقومه ، ولم يختلف علماء التفسير والتاريخ في خبر هذه الآيات أن المقصود به مصر بلد فرعون .

---

(١) سورة الزخرف الآية رقم : ٥١ .

وقد فتحت بلاد مصر في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه .

قال البلاذري : قالوا : وكان عمرو بن العاص حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك ، ثم استخلف عليها ابنه حين ولّى يزيد بن أبي سفيان ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبّخه ويعنّفه على افتياته عليه برأيه وأمره بالرجوع إلى موضعه إلى أن وافه كتابه دون مصر ، فورد الكتاب عليه وهو بالعريش .

وقيل أيضا أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية ، وكان الذي أتاه شريك بن عبدة ، فأعطاه ألف دينار فأبى شريك قبولها ، فسأله أن يرد ذلك ولا يخبر به عمر .

قالوا : وكان مسير عمرو إلى مصر في سنة تسع عشرة فنزل العريش ثم أتى الفرماء وبها قوم مستعدّون للقتال ، فحاربهم وهزمهم وحوى عسكرهم ، ومضى قدما إلى الفسطاط ، فنزل جنان الريحان وقد خندق أهل الفسطاط وكان اسم المدينة اليونة ، فسمّاها المسلمون فسطاطا لأنهم قالوا : هذا فسطاط القوم ومجمعهم ، وقوم يقولون أن عمرا ضرب بها فسطاطا فسمّيت بذلك .

قالوا : ولم يلبث عمرو بن العاص وهو محاصر أهل الفسطاط أن ورد عليه الزبير بن العوام بن خويلد في عشرة آلاف ، ويقال في اثني عشر ألفا فيهم خارجة بن حذافة العدوي وعمير بن وهب الجمحي وكان الزبير قد همّ بالغزو وأراد إتيان أنطاكية فقال له عمر يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر ، فقال : لا حاجة لي فيها ، ولكني

أخرج مجاهدا وللمسلمين معاونا ، فإن وجدت عمرا قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به ، وإن وجدته في جهاد كنت معه ، فسار على ذلك .

وقالوا : وكان الزبير يقاتل من وجه وعمرو بن العاص من وجه ثم إن الزبير أتى بسلّم فصعد عليه حتى أوفى على الحصن ، وهو مجرّد سيفه فكبّر وكبّر المسلمون واتّبعوه ، ففتح الحصن عنوة واستباح المسلمون ما فيه وأقرّ عمرو أهله على أنهم ذمة ، ووضع عليهم الجزية في رقابهم والخراج في أرضهم وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجازه ، واختطّ الزبير بمصر وابتنى دارا معروفة وبها نزل عبد الله بن الزبير حين غزا إفريقية مع ابن أبي سرح، وسلّم الزبير باق في مصر .

قال : وبعث الزبير بن العوام إلى مصر فقيل له : إن بها الطعن والطاعون ، فقال : إنما جئنا للطعن والطاعون ، قال : فوضعوا السلاليم فيصعدوا عليها .

قال : ودخل عمرو بن العاص مصر ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة وكان عمر بن الخطاب قد أشفق لما أخبر به من أمرها فأرسل الزبير بن العوام في اثني عشر ألفا ، فشهد الزبير فتح مصر واختطّ بها .

قال : ولما فتحوا مصر بغير عهد قام الزبير فقال : اقسمها يا عمرو ، فأبى ، فقال الزبير : والله لنقسمنّها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر ، فكتب عمرو إلى عمر في ذلك فكتب إليه عمر : أقرّها حتى يغزو منها حبل الحبلة .

وقد اشتبه على الناس أمر مصر فقال قوم : فتحت عنوة ، وقال آخرون : فتحت صلحا ، وقال عبيد الله بن عمرو : إن أبي قدمها

فقاتله أهل اليونة ففتحها قهرا وأدخلها المسلمين وكان الزبير أول من علا حصنها ، فقال صاحبها لأبي إنه قد بلغنا عملكم بالشام ، ووضعكم الجزية على النصارى واليهود ، وإقراركم الأرض في أيدي أهلها يعمرونها ويؤدّون خراجها فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أردّ عليكم من قتلنا وسبينا وإجلائنا قال : فاستشار أبي المسلمين ، فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك إلا نفرا منهم سألوه أن يقسم الأرض بينهم ، فوضع على كل حالم دينارين جزية ، إلا أن يكون فقيرا ، وألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خلّ رزقاً للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم وأحصى المسلمون فألزم أهل مصر لكل رجل منهم جبّة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفّين في كل عام أو عدل جبّة الصوف ثوبا قبطياً وكتب عليهم بذلك كتابا ، وشرط لهم إذا وفّوا بذلك ألا تباع نساؤهم وأبناؤهم ولا يسبوا وأن تقرّ أموالهم وكنوزهم بأيديهم فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه وصارت الأرض أرض خراج ، إلا أنه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظنّ بعض الناس أنها فتحت صلحا .

ولما فرغ ملك اليونة من أمر نفسه ومن معه في مدينته صالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح اليونة ، فرضوا به وقالوا : هؤلاء الممتنعون قد رضوا وقنعوا بهذا فنحن به أقنع ، لأننا فرش لا منعة لنا، ووضع الخراج على أرض مصر ، فجعل على كل جريب دينارا وثلاثة أرادب طعاماً وعلى رأس كل حالم دينارين وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال : وصالح المقوقس عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد ويقرّ من أراد الإقامة من الروم على أمر سمّاه وأن يفرض على

القبط دينارين فبلغ ذلك ملك الروم فتسخّطه وبعث الجيوش فأغلقوا باب الإسكندرية .

قال : ولما فتح عمرو الفسطاط وجّه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس ، فغلب على ارضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط ووجّه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين واخميم والبشرودات ، وقرى الصعيد ، ففعل مثل ذلك ووجّه عمير بن وهب الجمحي إلى تنّيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ، ففعل مثل ذلك فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر ، فصارت أرضها أرض خراج .

وفتح عمرو بن العاص مصر سنة عشرين ، ومعه الزبير بن العوام فلما فتحها صالحه أهل البلد على وظيفة وظفها عليهم وهي ديناران على كل رجل وأخرج النساء والصبيان من ذلك ، فبلغ خراج مصر في ولايته ألفي ألف دينار ، فكان بعد ذلك يبلغ أربعة آلاف ألف دينار .

ولما افتتح عمرو بن العاص مصر أقام بها ، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الإسكندرية ، فكتب إليه يأمره بذلك ، فسار إليها في سنة إحدى وعشرين واستخلف على مصر خارجة بن حذافة بن غانم ، وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له وقالوا : نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية ، فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتله عظيمة ، وكان فيهم من أهل سخا وبلهيت ، والخيس ، وسلطيس ، وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم ، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدّين لقتاله ، إلا أن القبط في ذلك يحبون الموادعة ، فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة ، فأبى عمرو ذلك ، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات وجوههنّ إلى داخله وأقام الرجال بالسلاح مقبلين وجوههم إلى

المسلمين ليرهبهم بذلك ، فأرسل إليه عمرو : أنا قد رأينا ما صنعت ، وما بالكثرة غلبنا من غلبنا ، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان ، فقال المقوقس لأصحابه : قد صدق هؤلاء القوم ، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية ، فنحن أولى بالإذعان ، فأغلظوا له القول وأبو إلا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وحصروهم ثلاثة أشهر ، ثم إن عمرا فتحها بالسيف ، وغنم فيها واستبقى أهلها ولم يسب وجعله ذمة كأهل اليونة ، فكتب إلى عمر بالفتح مع معاوية بن حديج الكندي ثم السكوني وبعث إليه معه بالخمس .

ويقال : إن المقوقس صالح عمرا على ثلاثة عشر ألف دينار ، على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم بها من أحب المقام ، وعلى أن يفرض على كل حالم من القبط دينارين فكتب لهم بذلك كتابا ، ثم إن عمرو بن العاص استخلف على الإسكندرية عبد الله بن حذافة بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي في رابطة من المسلمين وانصرف إلى الفسطاط ، وكتب الروم إلى قسطنطين بن هرقل وهو كان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلّة من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الذلّة وأداء الجزية فبعث رجلاً من أصحابه يقال له منويل في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة ، فدخل الإسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين إلا من لطف للهرب فنجا ، وذلك في سنة خمس وعشرين ، وبلغ عمرا الخبر فسار إليهم في خمسة عشر ألفا ، فوجد مقاتلوهم قد خرجوا يعيثون فيما يلي الإسكندرية من قرى مصر ، فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشّاب ساعة والمسلمون متترّسون ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم إن أولئك الكفرة ولّوا منهزمين ، فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الإسكندرية فتحصّنوا بها ونصبوا العرّادات فقاتلهم عمرو عليها أشدّ قتال ، ونصب المجانيق ، فأخرب جدرها ، وألحّ بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ، وهرب بعض

رومها إلى الروم وقتل عدوّ الله منويل ، وهدم عمرو والمسلمون جدار الإسكندرية ، وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلنّ ذلك .

وقال بعض الرواة : إن هذه الغزاة كانت في سنة ثلاث وعشرين وروى بعضهم أنهم نقضوا في سنة ثلاث وعشرين وسنة خمس وعشرين والله أعلم .

قلت : وبهذا الفتح الإسلامي أصبح مصر قطرا إسلاميا عربيا ، وكانت له شهرة سياسية وثقافيةواقتصادية وما زالت شهرته ومكانته قائمة إلى هذا العهد ، وقد ألّف في تاريخه مؤلّفات خاصة به قديماً وحديثا ، ولما لهذا القطر الإسلامي العربي من شهرة ولما لتاريخه من مصادر شاملة فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنه .

مكـــــة : بميم مفتوحة وكاف مشدّدة مفتوحة وآخرها هاء : المقصود به مكة البلد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[1] .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لرسوله ﷺ ، والذين بايعوا بيعة الرضوان : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ يعني أن الله كفّ أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية يلتمسون غرّتهم ليصيبوا منهم ، فبعث رسول الله ﷺ فأتى بهم أسرى ، فخلّى عنهم رسول الله ﷺ ، ومنّ عليهم ولم يقتلهم فقال الله للمؤمنين : وهو الذي كفّ أيدي هؤلاء المشركين عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن أظفركم عليهم .

---

(١) سورة الفتح الآية رقم : ٢٤ .

وروى بسنده عن عبد الله بن مغفّل ، أن رسول الله ﷺ كان جالسا في أصل شجرة بالحديبية ، وعلى ظهره غصن من أغصان الشجرة فرفعتها عن ظهره ، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه وسهيل بن عمرو ، وهو صاحب المشركين ، فقال رسول الله ﷺ لعليّ : (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) ، فأمسك سهيل بيده فقال : ما نعرف الرحمن ، اكتب في قضيّتنا ما نعرف ، فقال رسول الله ﷺ: (اكتب باسمك اللهم) فكتب فقال : (هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة)، فأمسك سهيل بيده ، فقال : لقد ظلمناك إن كنت رسولا ، اكتب في قضيّتنا ما نعرف قال : (اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وأنا رسول الله) فخرج علينا ثلاثون عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : (هل خرجتم في أمان أحد) قال : فخلّى عنهم ، قال : فأنزل الله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وروى البخاري بسنده عن أبي شريح أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة ائذن لي أيّها الأمير أحدّثك قولا قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلّم به ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس فلا تحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخّص لقتال رسول الله ﷺ فيه فقولوا إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنّما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلّغ الشاهد الغائب .

قال ياقوت : قال ابن الأنباري : سمّيت مكة لأنها تمكّ الجبّارين أي تذهب نخوتهم ، ويقال : إنّها سمّيت مكة لازدحام ا لناس بها من قولهم : قد امتكّ الفصيل ضرع أمّه إذا مصّه مصّا شديدا .

وسميت بكة لازدحام الناس بها .

قال أبو عبيدة وأنشد :

إذا الشريب أخذته أكّة فخلّه حتى يبكّ بكّة

ويقال : مكة اسم المدينة ، وبكة اسم البيت .

وقال آخرون : مكة هي بكة والميم بدل من الباء كما قالوا : ما هذا بضربة لازب ولازم .

وقال أبو القاسم : هذا الذي ذكره أبو بكر في مكة .

وقال الشرقي بن القطامي : إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجّنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكّ فيه أي نصفّر صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفّرون ويصفّقون بأيديهم إذا طافوا بها ، والمكّاء بتشديد الكاف طائر يأوى الرياض ، قال أعرابي : ورد الحضر فرأى مكّاء يصيح فحنّ إلى بلاده فقال :

ألا أيّها المكّاء مالك ههنا ألاء ولا شيح فأين تبيض

فأصعد إلى أرض المكاكي واجتنب قرى الشام لا تصبح وأنت مريض

والمكاء ، بتخفيف الكاف والمدّ : الصّفير فكأنهم كانوا يحكون صوت المكاء ، ولو كان الصفير هو الغرض لم يكن مخففا .

وقال قوم : سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في هبطه بمنزلة المكوك ، والمكوك عربي أو معرب قد تكلّمت به العرب ، وجاء في أشعار الفصحاء .

قال الأعشى :

والمكاكي والصّحاف من الفضّـ ـة والضّامرات تحت الرّحال

قال : وأمّا قولهم : سمّيت مكة لازدحامهم فيها من قولهم : قد امتك الفصيل ما في ضرع أمّه إذا مصّه مصّا شديدا فغلط في التأويل لا يشبّه مص الفصيل الناقة بازدحام الناس ، وإنما هما قولان :

يقال : سميت مكة لازدحام الناس فيها ، ويقال أيضا : سميت مكة لأنها عبّدت الناس فيها فيأتونها من جميع الأطراف من قولهم : امتكّ الفصيل أخلاف الناقة إذا جذب جميع ما فيها جذبا فلم يبق فيها شيئا ، وهذا قول أهل اللغة .

وقال آخرون : سميت مكة لأنه لا يفجر فيها أحد إلا بكّت عنقه ، فكان يصبح وقد التوت عنقه .

وقال الشرقي : روى أن بكة اسم القرية ومكة مغزى بذي طوى لا يراه أحد ممّن مرّ من أهل الشام والعراق واليمن والبصرة ، وإنما هي أبيات في أسفل ذي طوى .

وقال آخرون : بكة موضع البيت ، وما حول البيت مكة ، قال : وهذ خمسة أقوال في مكة غير ما ذكره ابن الأنباري :

قال : وقال عبيد الله الفقير إليه : ووجدت أنا أنها سميت مكة من مكّ الثّدي ، أي مصّه ، لقلّة مائها لأنهم كانوا يمتكون الماء أي يستخرجونه .

وقيل : إنها تمكّ الذنوب كما يمكّ الفصيل ضرع أمّه فلا يبقى فيه شيئا .

وقيل : سميت مكة لأنها تمكّ من ظلم أي تنقصه ، وينشد قول بعضهم :

يـا مكـة الفاجـر مكّـى مكّـا ولا تمكّـى مذحجـا وعكّـا

وروى عن مغيرة بن إبراهيم قال : بكة موضع البيت ، وموضع القرية مكة .

وعن يحيى بن أبى أنيسة قال : بكة موضع البيت ، ومكة هو الحرم كله .

وقال زيد بن أسلم : بكة الكعبة والمسجد ، ومكة ذو طوى وهو بطن الوادي الذي ذكره الله تعالى في سورة الفتح ، ولها أسماء غير ذلك وهي :

مكة وبكة ، والنّساسة وأم رحم وأم القرى ومعاد والحاطمة لأنها تحطّم من استخفّ بها ، وسمي البيت العتيق لأنه عتق من الجبابرة .

والرأس لأنها مثل رأس الإنسان ، والحرم وصلاح والبلد الأمين والعرش والقادس لأنها تقدس من الذنوب أي تطهر ، والمقدّسة والناسية والباسة ، بالباء الموحدة لأنها تبسّ أي تحطّم الملحدين ، وقيل تخرجهم ، وكوثى باسم بقعة كانت منزل بني عبد الدار ، والمذهب في قول بشر بن أبي خازم :

وما ضمّ جياد المصلّى ومذهب

وسماها الله تعالى أم القرى ، فقال : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

وسمّاها الله تعالى البلد الأمين ، في قوله تعالى في سورة : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ .

وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ .

وقال تعالى أيضا على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ .

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة وقف على الحزّورة قال : (أني لا أعلم أنك أحب البلاد إلي وأنك أحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن المشركين اخرجوني منك ما خرجت) .

قلت : لأهمية مكة بالنسبة للمسلمين ، فإنه قد كتب في تاريخها مؤلّفات كثيرة تتحدّث عن تاريخها من كل جوانبه ، من أشهرها كتاب (أخبار مكة للأزرقي) ، وكتاب (أخبار مكة للفاكهي) ، وكتاب (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي) ، وغيرها من المؤلّفات .

وبما أن مكة لها شهرة إسلامية وتاريخية وحضارية تغنى عن الحديث عنها فإنني أكتفي بهذا القدر ، ولا يتسع مقامنا هذا لذكر كل ما هو هام من أخبار بيت الله الحرام .

منـــاة : بميم مفتوحة بعدها نون موحدة وبعد النون ألف وتاء مربوطة : آلهة تعبد في الجاهلية في المشلّل بين مكة والمدينة .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (١).

قال ابن جرير ، عن قتادة : ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ قال : أما مناة فكانت بقديد ، آلهة كانوا يعبدونها ، يعني اللات والعزّى ومناة .

---

(١) سورة النجم الآية رقم : ١٩ - ٢٠ .

وروى بسنده عن ابن زيد ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ قال : مناة بيت كانت بالمشلّل يعبده بنو كعب .

وقال ابن كثير : وأما مناة فكانت بالمشلّل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظّمونها ويهلّون منها بالحج إلى الكعبة .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ، قيل : سمّي بذلك لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقرّبون بذلك إليه . وبذلك سمّيت منى لكثرة ما يراق فيها من الدماء .

وفي الصحاح : ومناة اسم صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهي لغة ، والنسبة إليها منوى .

وروى البخاري بسنده عن عروة قال : سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أرأيت قول الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فوالله ما على أحد جناح أن يطوف بالصفا والمروة ، قالت بئس ما قلت يا ابن أختي إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يطوّف بهما ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل .

قال ابن حجر : المشلل : بضم أوله وفتح المعجمة ولامين الأولى مفتوحة مثقّلة : هي الثنية المشرفة على قديد ، زاد سفيان عن الزهري : المشلّل من قديد ، أخرجه مسلم وأصله للمصنّف ... وكانت مناة ببطن قديد أي مقابله وقديد بقاف مصغّر قرية جامعة بين مكة والمدينة كثيرة الماء قاله أبو عبيد الله البكري .

وقال الحربي : المشلّل قبل قديد بثلاثة أميال- يعني لمن أتى من المدينة- وهي التي كانت عندها مناة الطاغية في الجاهلية ، وقبل قديد مسجد النبي ﷺ ، ويقال : كانت عند بيت أم معبد .

قال ياقوت : المشلّل : بالضم ثم الفتح ، وفتح اللام أيضا ، والشلّ الطّرد :وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر ، قال السرجي :

ألا قل لمن أسمى بمكة قاطنا ‏ ‏ ‏ ومن جاء من عمق ونقب المشلّل

قال البكري : المشلّل : بضم أوله وفتح ثانيه ، وفتح اللام وتشديدها ، وهي ثنية مشرفة على قديد ، وقال مزرّد :

تدبّ مع الرّكبان لا يسبقونها ‏ ‏ ‏ وحلّت بجنبي عزور والمشلّل

قال يعقوب : عزور واد قريب من المدينة ، والمشلّل : جبل وراء على موطئ الطريق . قال نصيب :

صفا سرب الحبل الدميث المحلّل ‏ ‏ ‏ ففرش الجبيل بعدنا فالمشلّل
فذو سلم فالسفح إلا منازلا ‏ ‏ ‏ به من مغانيها حديث ومحول

وقال عمر بن أبي ربيعة :

هاجني منها على النأي دمنة ‏ ‏ ‏ لها بقديد دون نصف المشلّل

قال الواقدي : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث السّرايا ، فبعث خالد بن الوليد إلى العزّى ، وبعث إلى ذي الكفّين- صنم عمرو بن حممه- الطفيل بن عمرو الدومي فجعل يحرقه بالنار ويقول :

يا ذا الكفّين لست من عبادكا ‏ ‏ ‏ ميلادنا أقدم من ميلادكا
أنا حششت النار في فؤادكا

وبعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلّل فهدّمه .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ، ومن دان بدينهم من أهل يثرب ، على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد .

قلت : يفهم من أقوال العلماء المتقدّمة أن المشلّل قريب من قديد ولم يختلفوا في ذلك وقديد بلدة مازالت معروفة عامرة ، والمشلّل كذلك مازال معروفا باسمه ، وهو غير بعيد من قديد .

وقد وصفه عاتق البلادي وصفا جغرافيا وحدد المسافة بينه وبين قديد من خلال زيارته لهذه المواضع ، قال : المشلّل : وتعرف حرّة المشلّل اليوم بالقديدية ، نسبة إلى قديد الوادي المعروف ، تراها على يمينك وأنت تتجاوز القضية ، ذاهبا إلى المدينة ، مستطيلة من المشرق إلى المغرب مع انحراف إلى الجنوب ، وثنية المشلّل بأسفل هذه الحرّة يمر طريق مكة إلى المدينة اليوم على مرأي فيها يدعه يمينه لازالت جادتها ماثلة للعيان ، تهبط جنوبا على خيمتي أم معبد وبها أكمة كثيرة حجارة المرو .

قلت : وقد ذكر الحربي أن بين المشلّل وقديد ثلاثة أميال ،وقد اتفقت أقوال العلماء على أن صنم مناة كان في المشلّل كما اتفقوا على تحديد موقع المشلّل على الطريق بين مكة والمدينة .

ويبعد المشلّل وقديد عن مكة شمالا مائة وخمسة وعشرين ميلاً تقريبا .



باب النون

نســــر : بنون موحدة مفتوحة وسين مهملة ساكنة وآخره راء مهملة : صنم لذي الكلاع من حمير .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبرا عن إخبار نوح عن قومه ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ كان هؤلاء نفر من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان (ودّ) لهذا الحيّ من كلب بدومة الجندل ، وكان (سواع) لهذيل برياط ، وكان (يغوث) لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان (يعوق) لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذي كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدونها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

قال ياقوت : نسر : أحد الأصنام الخمسة التي كان يعبدها قوم نوح ، عليه السلام ، وصارت إلى عمرو بن لحيّ ودعا القوم إلى عبادتها فكان فيمن أجابه حمير فأعطاهم نسرا ودفعه إلى رجل من ذي رعين يقال له معدي كرب فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع ، فعبدته حمير ومن والاها فلم تزل تعبده حتى هوّدهم ذو نواس ، وقال الأخطل :

---

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

أمـــا دمـــاء مائـــرات تخالهـــا ... علـى قلّـة العزّى وبالنسر عندنا
وما سبّح الرحمن في كل بيعة ... أبـي الأبيلين المسيح ابن مـريما
لقـد ذاق منّا عامـر يـوم لعلـع ... حساما إذا ما هزّ بالكفّ صمما

قال ياقوت : نسر : بالفتح ثم السكون . موضع في شعر الحطيئة من نواحي المدينة ذكرها الزبير في كتاب العقيق وأنشد لأبي وجرة السعدي :

بأجمـــاد العقـــيق إلى مـــراخ ... فــنعف ســويقة فــنعاف نســر

قلت : وقد استوفيت الحديث عن هذه الأصنام الخمسة مفصّلا في رسم (سواع) بما يغني عن الإعادة .

النهـــــر : بنون موحدة مفتوحة وهاء مفتوحة وآخره راء مهملة: قيل نهر بين الأردن وفلسطين ، وقيل هو نهر فلسطين .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ﴾[1].

قال ابن جرير : قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ : إن الله مختبركم ليعلم كيف طاعتكم له . و (النهر) الذي أخبرهم طالوت أن الله مبتليهم به ، قيل : هو نهر بين الأردن وفلسطين .

وبسنده عن الربيع قال : ذكر لنا ، والله أعلم ، أنه نهر بين الأردن وفلسطين . وبسنده عن قتادة : قال : ذكر لنا أنه نهر بين الأردن وفلسطين .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم : ٢٤٩ .

وبسنده عن ابن عباس قال : نهر بين فلسطين والأردن ، نهر عذب الماء طيّبة .

وقال آخرون : بل هو نهر فلسطين .

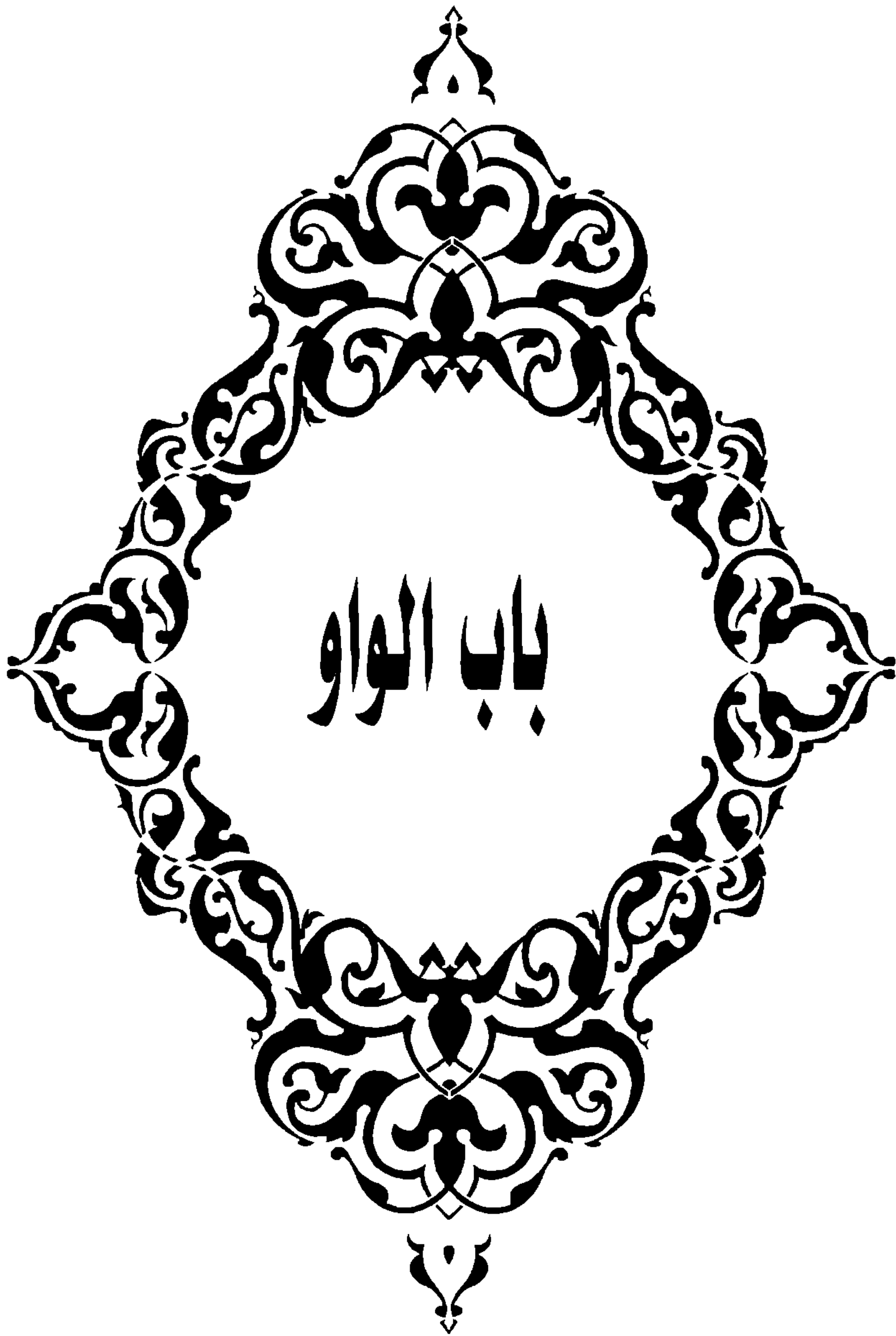
وبسنده عن ابن عباس ، قال : النهر الذي ابتلي به بنوا إسرائيل نهر فلسطين . وبسنده عن السّدي : هو نهر فلسطين .

وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ، ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدّي ثمانين ألفا ، فالله أعلم ، أنه قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم ﴾ أي مختبركم بنهر ، قال ابن عباس وغيره : هو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ، ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي ﴾ أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿ وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ ﴾ ، أي فلا بأس عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ قال ابن جريج : قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روى ، ومن شرب منه لم يرو . وكذا رواه السدّي عن أبي مالك ، عن ابن عباس ، وكذا قال قتادة وابن شوزب .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ ﴾ معناه خرج بهم . قال وهب ابن منبّه : إن الله مبتليكم بنهر . وكان عدد الجنود في قول السدّي ثمانين ألفا . وقال وهب لم يتخلف عنه إلا ذو عذر من صغر أو كبر أو مرض . والابتلاء الاختبار . والنهر الذي ابتلاهم الله به هو نهر بين الأردن وفلطسين . ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم ، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه مطيع فيما عدا ذلك ، ومن غلبته شهوته في الماء وعصى الأمر فهو في العصيان في الشدائد أحرى .

فروى أنهم أتوا النهر وقد نالهم عطش وهو في غاية العذوبة والحسن ، فلذلك رخصّ للمطيعين في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال . وبيّن أن الغرفة كافّة ضرر العطش عند الحزمة الصابرين على شظف العيش الذين همهم في غير الرفاهية .

قلت : وفيما تقدّم من أقوال المفسّرين نرى أنهم اختلفوا في النهر الذي ابتلى الله به قوم طالوت فقال بعضهم: إنه نهر فلسطين وقال الأكثرون: إنه نهر بين الأردن وفلسطين يعني نهر الشريعة المشهور ، وعلى كلا القولين فإن هذا النهر الذي ابتلوا به لا يخرج عن حدود بلاد الشام .



باب الواو

واد : بواو مفتوحة بعدها ألف ودال مهملة : المقصود به مكة .

قال الله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾[1] .

قال ابن جرير : قال إبراهيم خليل الرحمن هذا القول حين أسكن إسماعيل وأمّه هاجر فيما ذكر مكة .

وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : إنّ أوّل من سعى بين الصفا والمروة لأمّ إسماعيل ، وإنّ أوّل من أحدث نساء العرب جرّ الذيول لمن أمّ إسماعيل ، قال : ولمّا فرّت من سارة أرخت من ذيلها لتعفّى اثرها ، فجاء إبراهيم ومعها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت ، فوضعهما ثم رجع ، فأتبعته فقالت : إلى أيّ شيء تكلنا ؟ إلى طعام تكلنا ؟ إلى شراب تكلنا ؟ فجعل لا يردّ عليها شيئاً ، فقالت : آ الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا . قال : فرجعت ومضى حتى إذا استوى على ثنيّة كداء أقبل على الوادي فدعا فقال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ .

قال : ومع الإنسانة شنّة فيها ماء ، فنفذ الماء فعطشت وانقطع لبنها فعطش الصبيّ فنظرت أيّ الجبال أدنى من الأرض فصعدت بالصفا فتسمّعت هل تسمع صوتا ، أو ترى أنيسا ؟ فلم تسمع فانحدرت ، فلمّا أتت على الوادي سمعت وما تريد ا لسعي ، كالإنسان المجهود الذي

---

(١) سورة إبراهيم الآية رقم : ٣٧ .

يسعى وما يريد السعي ، فنظرت أي الجبال أدنى من الأرض فصعدت المروة فتسمّعت هل تسمع صوتا ، أو ترى أنيسا ؟ فسمعت صوتا ، فقالت كالإنسان الذي يكذّب سمعه : صه ، حتى استيقنت ، فقالت : قد أسمعتني صوتك فأغثني فقد هلكت وهلك من معي ؟ فجاء الملك بها حتى انتهى بها إلى موضع زمزم ، فضرب بقدمه ففارت عينا ، فعجّلت الإنسانة فجعلت في شنّتها ، فقال رسول الله ﷺ : (رحم الله أمّ إسماعيل لولا أنها عجّلت لكانت زمزم عينا معينا) .

وقال لها الملك : لا تخافي الظمأ على أهل هذا البلد ، فإنما هي عين لشرب ضيفان الله ، وقال : إن أبا هذا الغلام سيجئ فيبنيان لله بيتا هذا موضعه ، قال : ومرّت رفقة من جرهم تريد الشام ، فرأوا الطير على الجبل ، فقالوا : إنّ هذا الطير لعائف على ماء ، فهل علمتم بهذا الوادي من ماء ؟ فقالوا : لا ، فأشرفوا فإذا هم بالإنسانة ، فأتوها فطلبوا إليها أن ينزلوا معها فأذنت لهم ، قال : وأتى عليها ما يأتي على هؤلاء النساء من الموت فماتت ، وتزوّج إسماعيل امرأة منهم .

وروى بسنده عن ابن عباس أيضا : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ قال : أسكن إسماعيل وأمّه مكة .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ .

روى البخاري عن ابن عباس : أوّل ما اتخذ النساء المنطق من قبل أمّ إسماعيل ؛ اتخذت منطقا لتعفّي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد .

وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفّى إبراهيم منطلقا فتبعته أمّ إسماعيل ، فقالت يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آ الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ - الآية ثم أكمل القرطبي الحديث بطوله كما هو عند ابن جرير .

وقال الشوكاني : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ أي لا زرع فيه وهو وادي مكة ، ﴿ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ أي الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره وقيل إنه محرّم على الجبابرة وقيل: محرّم من تنتهك حرمته أو يستخف به .

قلت : فيما تقدّم اتفق المفسّرون على أن الوادي الذي أسكن فيه إبراهيم ذريّته هو وادي مكة ، وأنه أسكنهم مكانا من الوادي قريبا من بيت الله الحرام .

الـــــواد : كالذي قبله : واد في الشام عند الطور .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ (١).
وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ (٢).

---
(١) سورة طة الآية رقم : ١٢ .
(٢) سورة القصص الآية رقم : ٣٠ .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[1].

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره فلمّا أتي النار موسى ، ناداه ربّه : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾

وروى بسنده عن وهب بن منبّه قال : خرج موسى نحوها يعني النار فإذاهي في شجر من العلّيق ، وبعض أهل الكتاب يقول في عوسجة ، فلمّا دنا استأخرت منه . فلما رأى استئخارها رجع عنها ، فلما سمع الصوت استأنس وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ فخلعها فألقاها .

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله أمر الله موسى بخلع نعليه ، فقال بعضهم : أمره بذلك لأنهما كانتا من جلد حمار ميّت فكره أن يطأ بهما الوادي المقدّس ، وأراد أن يمسّه من بركة الوادي .

وروى بسنده عن عكرمة ، في قوله ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ : كانتا من جلد حمار ميّت .

وروى بسنده عن قتادة مثله .

وروى بسنده عن الحسن : كانتا يعني نعلى موسى من بقر ، ولكن إنّما أراد الله أن يباشر بقدميه بركة الأرض وكان قد قدّس مرّتين .

---

(١) سورة النازعات الآية رقم : ١٥-١٦ .

قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : أمره الله تعالى بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي ، إذ كان وادياً مقدّسا .

وإنّما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب لأن لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعهما من أجل أنهما من جلد حمار ولا لنجاستهما .

وروى بسنده عن مجاهد : قوله : ﴿ مِن شَـٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ قال ابن عمرو في حديثه عند الطور . وقال الحارث في حديثه ﴿ مِن شَـٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ عند الطور عن يمين موسى .

وبسنده عن مجاهد : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَـٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ قال شقّ الوادي عن يمين موسى عند الطور .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ المقدّس : المطهّر والقدس : الطهارة والأرض المقدّسة أي المطهّرة ، سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمّرها بالمؤمنين .

وطوى : اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وقال الضّحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطويّ ، وقال الجوهري : طوى: اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، ويصرف ولا يصرف .

قال ابن كثير : قال غير واحد من المفسّرين من السّلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجّج في شجرة خضراء من العوسج وكل ما لتلك النار في اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد ، فوقف متعجّبا

وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ وكان موسى في واد اسمه (طوى) فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربّه بالواد المقدّس طوى ، فأمر أولا بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيّما في تلك الليلة المباركة

قلت : هذا خلاصة ما قاله المفسّرون في التعريف بالواد المقدّس طوى .

الــــواد : أيضا كالذي قبله : يراد به وادي ثمود ، (وادي القرى) .

قال الله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾[(١)].

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : بعت من أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه مالا بالواد بمال له بخيبر .

قال ابن جرير : وقوله : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ يقول : وثمود الذين خرقوا الصخر ودخلوه ، فاتخذوه بيوتا ، كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾[(٢)] والعرب تقول : جاب فلان الفلاة يجوبها جوبا : إذا دخلها وقطعها ، ومنه قول نابغة :

أتاك أبو ليلى يجوب به الدّجى   دجى الليل جواب الفلاة عميم

يعني بقوله : يجوب : يدخل ويقطع .

---

(١) سورة الفجر الآية رقم : ٩ .
(٢) سورة الحجر الآية رقم : ٨٢ .

وروى بسنده عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ يقول : فخرقوها .

وروى بسنده عن مجاهد ، في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ قال : جابوا الجبال ، فجعلوها بيوتا .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ : جابوها ونحتوها بيوتا .

وروى بسنده عن قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، قال : أصحاب الوادي .

وقال الشوكاني : وقوله تعالى : ﴿ بِٱلْوَادِ ﴾ متعلّق بجابوا أو بمحذوف على أنه حال من الصخر . وهو وادي القرى .

وقال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي ، قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها ، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد ، ومنه يقال : مجتابي النمار إذا خرقوها واجتاب الثوب إذا فتحه ومنه الجيب أيضا ، وقال الله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴾ وأنشد ابن جرير وابن أبي حاتم ههنا قول الشاعر :

ألا كلّ شيء ما خلا الله بائد … كما باد حيّ من شنيق ومارد
همو ضربوا في كل صماء صعدة … بأيد شداد أيدات السواعد

وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادي القرى .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ .

ثمود : هم قوم صالح ، و ﴿ جَابُواْ ﴾ : قطعوا ، ومنه : فلان يجوب البلاد ، أي يقطعها ، وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب ، أي قطع ، قال الشاعر ، وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة ، فكتب له بستين وسقا يأخذها بالكوفة ، فقال :

راحت رواحا قلوصى وهي حامدة ... آل الزبير ولم تعدل بهم أحدا
راحت بستين وسقا في حقيبتها ... ما حملت حملها الأدنى ولا السددا
ما إن رأيت قلوصا قبلها حملت ... ستين وسقا ولا جابت به بلدا

أي قطعت ، قال المفسّرون : أول من نحت الجبال والصور والرخام : ثمود ، فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة الف ، كلها من الحجارة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ ، وكانوا لقوّتهم يخرجون الصخور ، وينقبون الجبال ، ويجعلونها بيوتا لأنفسهم (بالوادي) أي بوادي القرى .

وقال ابن حجر في شرح حديث عبد الله بن عمر :

ونص الحديث (بعت من أمير المؤمنين عثمان مالا بالوادي بمال له بخيبر فلما تبايعنا رجعت على عقبى حتى خرجت من بيته خشية أن يرادّني البيع وكانت السنّة أن المتبايعين بالخيار حتى يتفرّقا ، قال عبد الله فلما وجب بيعي وبيعه رأيت أنّي قد غبنته بأنّي سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال ، وساقني إلى المدينة بثلاث ليال) .

الوادي : يعني وادي القرى ، وقوله : (سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال) أي زدت المسافة التي بينه وبين أرضه التي صارت إليه على المسافة التي كانت بينه وبين (أرضه التي باعها بثلاث ليال) . وقوله : (وساقني إلى المدينة بثلاث ليال) يعني أنه نقص المسافة التي بيني وبين أرضي التي أخذ بها عن المسافة التي كانت وبين أرضي التي بعتها بثلاث ليال ، وإنما قال إلى المدينة لأنهما جميعاً كانا بها ، فرأى ابن عمر الغبطة في القرب من المدينة .

قلت : وبهذا يتبيّن مقدار المسافة بين المدينة وبين وادي القرى وهي مسيرة ست ليال إلى أقرب مكان فيه ويتبيّن أن المسافة بين المدينة وبين خيبر مسيرة ثلاث ليال .

وقد اتفق المفسّرون على أن (الواد) الذي ورد ذكره في سورة (الفجر) أنه وادي القرى .

وفي رسم (الحجر) مزيد من الإيضاح عن هذا الوادي ، وكذلك في رسم (وادي القرى) في معجم أمكنة صحيح البخاري دراسة وافية عن هذا الوادي .

ودّ : بواو مفتوحة ودال مهملة مشدّدة : صنم بقبيلة كلب بدومة الجندل .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[1].

---

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

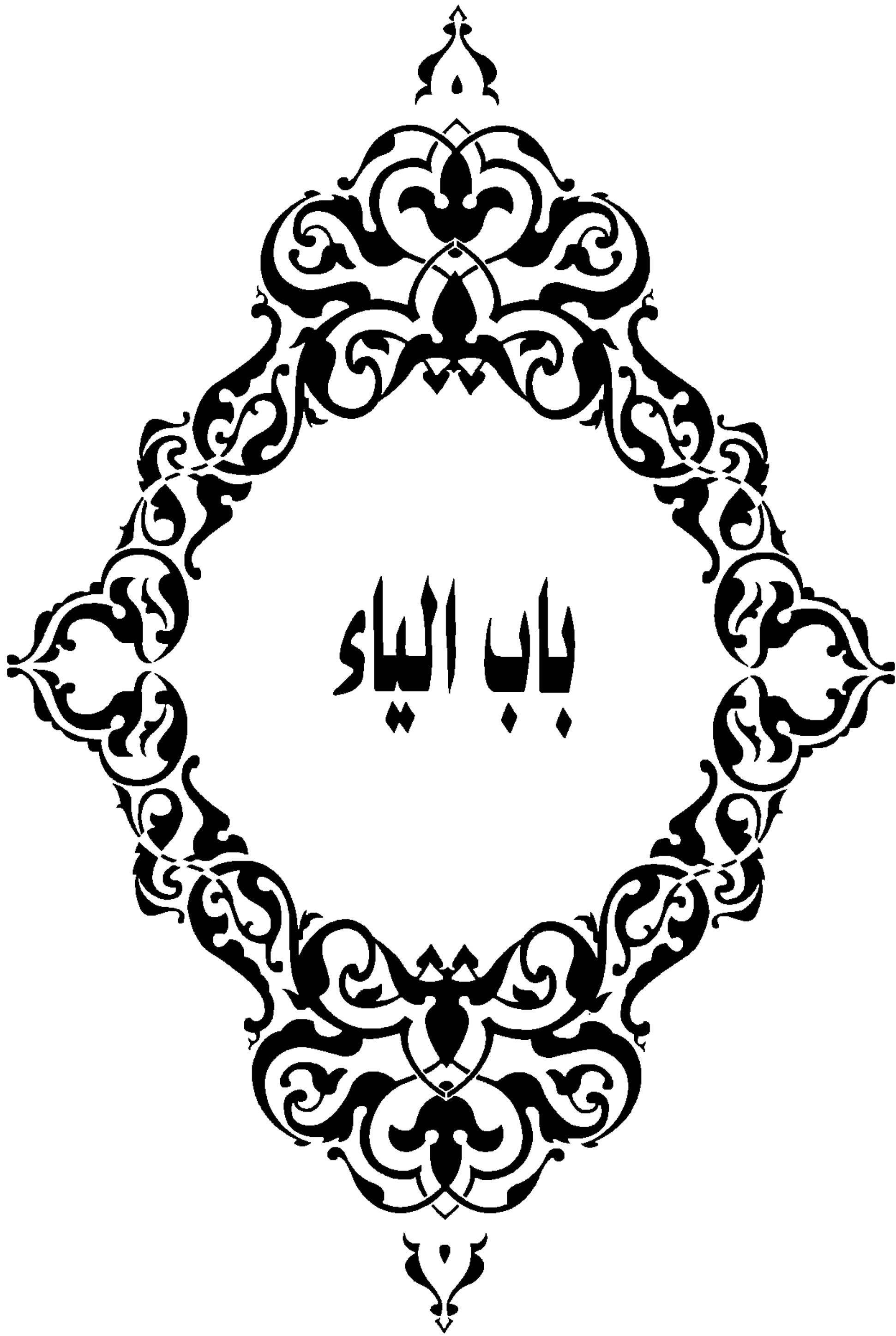
قال ابن جرير : يقول تعالى مخبرا عن أخبار نوح عن قومه ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ كان هؤلاء نفرا من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان ودّ لهذا الحي من كلب بدومة الجندل ، وكان سواع لهذيل برياط ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذي كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

وقال ياقوت : ودّ : صنم كان لقوم نوح ، عليه السلام ، وكان لقريش أيضاً صنم اسمه ودّ ويقولون أدّ أيضا ، قال ابن حبيب : ودّ كان لبني وبرة وكان بدومة الجندل وكانت سدانته لبني الفرافصة ابن الأحوص الكلبيين ، قال الشاعر :

حَـيّاكِ ودّ وإنّـا لا يحـلّ لـه ... لهو النساء وإن الدين قد عزما

قلت : وقد استوفيت الحديث عن هذه الأصنام الخمسة مفصّلا في رسم (سواع) بما يغني عن الإعادة .


باب الياء

يثـــرب : بياء مثناة مفتوحة وثاء مثلثة ساكنة وراء مهملة مكسورة وآخره باء موحدة : اسم من أسماء المدينة المنورة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ (١) .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم وقد وهمهم حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرمّلوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بين الركنين .

قال ابن القيّم : ولمّا قدم النبي ﷺ المدينة ، واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم ، غيّره بطيبة لمّا زال عنها ما في لفظ يثرب من التثريب بما في معنى طيبة من الطيب ، استحقّت هذا الاسم ، وزادت به طيبا آخر ، فأثّر طيبها في استحقاق الاسم ، وزادها طيباً إلى طيبها .

روى ابن شبّه بسنده عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : أنهم كانوا يقولون : (المدينة) و (يثرب) ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله سماها طابة .

وروى بسنده عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن قال ، قال النبي ﷺ : من قال للمدينة يثرب فليقل : أستغفر الله ثلاثا ، هي طابة ، هي طابة ، هي طابة .

وروى بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : من قال للمدينة يثرب ، فليستغفر الله ، هي طابة ثلاث مرات .

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم : ١٣ .

وروى بسنده عن أبي أيوب : أن رسول الله ﷺ نهى أن يقال للمدينة يثرب .

وقال ابن النجار : وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال : (هي المدينة يثرب) ، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : (يثرب اسم أرض) ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها .

وقال ابن زبالة : كانت يثرب أم قرى المدينة وهي ما بين طرف (قناة) إلى طرف (الجرف) وما بين المال الذي يقال له البرناوي إلى زبالة .

قال المراغي : كراهية بعض العلماء تسمية المدينة يثرب : وقد ذكره بعض العلماء تسميتها يثرب لقوله ﷺ يقولون يثرب وهي المدينة ، ولما في مسند أحمد عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله هي طابة هي طابة .

وتسميتها في القرآن يثرب حكاية عن قول غير المؤمنين حتى قال عيسى بن دينار : ومن سماها يثرب ، كتبت عليه خطيئة ، وسبب الكراهة إما لكونه مأخوذا من الثرب وهو الفساد ، أو من التثريب وهو المؤاخذة بالذنب ، وكان عليه السلام يحب الاسم الحسن ولهذا سماها ﷺ : طابة وطيبة ، لما في اسم طيبة من الطيّب وهو موجود في المدينة ، حتى ذكروا أنه يوجد أبدا في رائحة هوائها وتربتها أو سائر أمورها ، أو لموافقتها من قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أو لطهارتها من الكفر لقوله تعالى : ﴿ ٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ والطيب والطاب لغتان .

وكانت يثرب منازل بني حارثة بن الحارث : بطن من الأوس وكانت قبل نزول الأوس والخزرج أم قرى المدينة وبها كان معظم اليهود .

وفي حديث أبي ذرّ من قول النبي ﷺ لعلي إنّي قد أمرت أن أسير إلى بلدة بين المسجدين يقال لها يثرب وما أراك إلا صاحبي ، إشعار بعدم كراهة تسميتها به ، ويقوّيه ما في الصحيحين هي المدينة يثرب والله أعلم ، لكن ما حكي أن في بني حارثة نزل قوله تعالى في يوم الأحزاب : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ يؤكّد ما تقدّم .

وقال ياقوت : يثرب : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وكسر الراء ، وباء موحدة ، قال أبو القاسم الزجاجي : يثرب مدينة رسول الله ﷺ سمّيت بذلك لأن أول من سكنها عند التفرق يثرب بن قانية بن مهلائيل بن ارم بن عبيل بن عوض بن ارم بن سام بن نوح ، عليه السلام ، فلمّا نزلها رسول الله ﷺ ، سماها طيبة وطابة كراهية للتثريب ، وسمّيت مدينة الرسول لنزوله بها ، قال : لو تكلّف متكلّف أن يقول في يثرب إنه يفعل من قولهم لا تثريب عليكم أي لا تعبير ولا عيب كما قال الله تعالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، قال المفسّرون وأهل اللغة : معناه لا تغيير عليكم بما صنعتم ، ويقال : أصل التثريب الإفساد ، ويقال : ثرب علينا فلان ، وفي الحديث : إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثرّب ، أي لا يعيّر بالزنا ، ثم اختلفوا فقيل إن يثرب للناحية التي منها مدينة الرسول ﷺ ، وقال آخرون : بل يثرب ناحية من مدينة النبي ﷺ ، ولما حملت نائلة بنت الفرافصة إلى عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، من الكوفة قالت تخاطب أخاها :

أحقّا تراه اليوم يا ضبّ أنني ... مصاحبة نحو المدينة أركبا ؟
لقد كان في فتيان حصن بن ضمضم ... لك الويل ما يجري الخباء والمعحجّبا
قضى الله حقّا أن تموتي غريبة ... بيثرب لا تلقين أمّا ولا أبا

قال ابن عباس ، رضي الله عنهما : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثاً إنما هي طيبة ، وقال النبي ﷺ ، لمّا هاجر : اللهم إنك أخرجتني من أحبّ أرضك إليّ فأسكنّي أحبّ أرضك إليك ، فأسكنه المدينة .

قلت : فيما تقدّم يتبيّن أن للمدينة عددا من الأسماء عرفت بها بعد هجرة النبي ﷺ إليها ، وأن اسمها القديم التي كانت تعرف به قبل نزول النبي ﷺ فيها هو يثرب ، كما يتّضح مما تقدّم كراهية بعض العلماء لتسمية المدينة يثرب بعد أن سمّاها النبي ﷺ طيبة .

ولما لهذه المدينة الطيبة من الشهرة الإسلامية والتاريخية فإنني أكتفى بهذا القدر من الحديث عن اسمها يثرب ، وفي رسم المدينة وفي رسم طابة مزيد من الإيضاح والتفصيل عن أسماء المدينة المنورة .

يعـــوق : بياء مثناة مفتوحة وعين مهملة مضمومة بعدها واو ساكنة وآخره قاف مثناة ، صنم لهمدان ببلخع .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (١) .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبراً عن إخبار نوح عن قومه ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ كان هؤلاء نفراً من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

---

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان ودّ لهذا الحي من كلب بدومة الجندل ، وكانت سواع لهذيل برياط ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذي كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

وقال ياقوت : يعوق : اسم صنم كان لهمدان وخولان وكان في أرحب ، ويعوق من الأصنام الخمسة التي كانت لقوم نوح ، عليه السلام ، وأخذها عمرو بن لحيّ من ساحل جدّة ، كما ذكرناه في ودّ ، وأعطاها لمن أجابه إلى عبادتها فأجابته إلى عبادتها همدان فدفع إلى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيوان بن نوف بن همدان يعوق فكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان ومن والاها من أرض اليمن .

قلت : وقد استوفيت الحديث عن هذه الأصنام الخمسة مفصّلا في رسم (سواع) بما يغني عن الإعادة .

يغـــوث : بياء مثناة مفتوحة وغين معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة وآخره ثاء مثلثة : صنم لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[1].

---

(١) سورة نوح الآية رقم : ٢٣ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره مخبرا عن إخبار نوح عن قومه ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ كان هؤلاء نفراً من بني آدم فيما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها .

وروى بسنده عن قتادة ، قوله : ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كان ودّ لهذا الحي من كلب بدومة الجندل ، وكانت سواع لهذيل برياط ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجرف من سبأ ، وكان يعوق لهمدان ببلخع ، وكان نسر لذي كلاع من حمير ، قال : وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرا .

وقال ياقوت : يعوق : صنم من أصنام قوم نوح الخمسة المذكورة في القرآن أخذها عمرو بن لحيّ من ساحل جدة وفرّقها فيمن أجابه من العرب إلى عبادتها ، كما ذكرناه في ودّ ، فكان ممن أجابه إلى عبادتها مذحج فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي يغوث وكان بأكمة باليمن يقال لها مذحج يعبده مذحج ومن والاها ولم يزل في هذا البطن من مراد أنعم وأعلى إلى أن اجتمعت أشراف مراد وقالوا : ما بال إلهنا لا يكون عند أعزّائنا وأشرافنا وذوي العدد منّا : وأرادوا أن ينتزعوه من أعلى وأنعم ويضعوه في أشرافهم ، فبلغ ذلك من أمرهم إلى أعلى وأنعم فحمله يغوث وهربوا به حتى وضعوه في بني الحارث ووافق ذلك مراداً أعداء الحارث بن كعب وكانت مراد من أشدّ العرب فأنفذوا إلى بني الحارث يلتمسون ردّ يغوث إليهم ويطالبونهم بدمائهم عليهم فجمعت بنو الحارث واستنجدت قبائل همدان وكانت بينهم وقعة الرّزم في اليوم الذي أوقع النبي ، ﷺ ، بقريش ببدر فهزمت بنو الحارث مراد هزيمة قبيحة وبقي يغوث في بني الحارث .

قلت : وقد استوفيت الحديث عن هذه الأصنام الخمسة مفصّلا في رسم (سواع) بما يغني عن الإعادة

اليــــمّ : بياء مثناة مفتوحة بعدهاه ميم : المقصود باليمّ في هاتين الآيتين نهر النيل المعروف في مصر .

قال الله تعالى : ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (٢).

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ : النيل ، يقول تعالى : فاقذفيه في اليمّ يلقه اليم بالساحل .

وبسنده عن ابن إسحاق ، قال : لما ولدت موسى أمه أرضعته ، حتى إذا أمر فرعون بقتل الولدان من سنته تلك عمدت إليه ، فصنعت به ما أمرها الله تعالى ، جعلته في تابوت صغير ، ومهدت له فيه ، ثم عمدت إلى النيل فقذفته فيه ، وأصبح فرعون في مجلس له كان يجلسه على شفير النيل كل غداة ، فبينا هو جالس ، إذ مرّ النيل بالتابوت فقذف به وآسية ابنة مزاحم امرأته جالسة إلى جنبه ، ففتح التابوت فإذا فيه صبيّ في مهده . فألقى الله عليه محبته ، وعطف عليه نفسه ، وعنى جلّ ثناؤه بقوله : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ فرعون هو العدوّ ، كان لله ولموسى .

---

(١) سورة طة الآية رقم : ٣٩ .
(٢) سورة القصص الآية رقم : ٧ .

وقال ابن كثير : هذا تذكير من الله لموسى بنعمه عليه ، فقد كان من أمر أمّه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، لأنه كان قد ولد في السنة التي كانوا يقتلون فيها الغلمان ، فاتخذت له تابوتا ، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل ، وتمسكه إلى منزلها بحبل ، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها ، وذهب به البحر ، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ أي قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربّي إلا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أي عند عدوك جعلته يحبك ، قال سلمة بن كهيل : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ قال : حببتك إلى عبادي ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ قال أبو عمران الجوني : تربّى بعين الله ، وقال قتادة : تغذّى على عيني . وقال معمر بن المثنى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ بحيث أرى ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف ، غذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة .

وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ (١) .

---

(١) سورة القصص الآية رقم : ٤٠ .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ ﴾ يقول تعالى ذكره : فجمعنا فرعون وجنوده من القبط ﴿ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ يقول : فألقيناهم جميعهم في البحر فغرّقناهم فيه ، وذُكر أن ذلك بحر من وراء مصر .

ويسنده عن قتادة : ﴿ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ قال : كان اليم بحراً يقال له اساف من وراء مصر غرّقهم الله فيه .

قلت : وقد تقدّم في رسم (البحر) أن فرعون وقومه كان هلاكهم في بحر القلزم الذي أغرقهم الله فيه جميعا .

وقال تعالى : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ (١) .

قال ابن جرير : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ يقول : ثم لنذرينّه في البحر تذريه ، يقال فيه : نسف فلان الطعام بالمنسف إذا ذراه فطيّر عنه قشوره وترابه باليد أو الريح .

ويسنده عن ابن عباس ، قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ يقول لنذرينّه في البحر .

ويسنده عن ابن عباس أيضا ، قال : ذراه في اليم واليم البحر .
ويسنده عن السدّي ، قال : ذراه في اليم .
ويسنده عن قتادة : في اليم ، قال : في البحر .

---

(١) سورة طة الآية رقم : ٩٧ .

قلت : ممّا تقدّم من أقوال المفسّرين يتبيّن أن المقصود في (اليم) الذي كانت أم موسى تلقي فيه ابنها هو نهر النيل المعروف في مصر .

أما المقصود به في الآية التي ذكر الله فيها أنه نبذ فرعون وجنوده في اليمّ ، فيتبين أن المقصود باليم في هذه الآية البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه .

وكذلك فإن اليم المقصود في الآية الكريمة التي نسف فيها الإله الذي اتخذه السّامريّ في بني إسرائيل بحر من البحار القريبة من مصر .

وجاء في القرآن الكريم التعبير (باليمّ) عن البحر كذلك عن النهر ، وهو لغة فيهما ، قال في لسان العرب عن الليث : اليمّ البحر الذي لا يدرك قعره ولا شطأه ، وعن الزّجاج : اليمّ البحر ، وزعم بعضهم أنها لغة سريانية فعرّبته العرب .

ويقع اسم اليمّ على ما كان ماؤه ملحا زعاقا ، وعلى النهر الكبير العذب الماء ، وأمرت أم موسى حين ولدته وخافت عليه فرعون أن تجعله في تابوت ثم تقذفه في اليمّ ، وهو نهر النيل بمصر .


مراجع البحث

بيان بمراجع البحث

١	القرآن الكريم	
٢	تفسير القرآن العظيم	مطبعة الاستقامة بالقاهرة- الطبعة الثالثة / ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م المؤلف / اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .
٣	الجامع لأحكام القرآن	دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة / ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م المؤلف / محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي .
٤	جامع البيان في تأويل القرآن	منشورات دار الكتب العلمية- بيروت المؤلف / محمد بن جرير الطبري.
٥	فتح القدير	منشورات المكتبة العصرية- بيروت المؤلف / محمد بن علي الشوكاني .
٦	صحيح البخاري	المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر استانبول- تركيا . المؤلف / محمد بن اسماعيل إبراهيم بن المغيرة البخاري .
٧	فتح الباري بشرح صحيح البخاري	توزيع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . المؤلف / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . حققة وصححه / عبد العزيز بن عبد الله بن باز .
٨	المناسك وأماكن طرق الحج	منشورات دار اليامة سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م . المؤلف / إبراهيم بن أسحاق بن إبراهيم الحربي . تحقيق / حمد الجاسر .
٩	مرآة الحرمين	الطبعة الأولى- مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م . المؤلف / إبراهيم رفعت باشا .
١٠	تحقيق النصرة تلخيص معالم دار الهجرة	منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة الطبعة الثانية- بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م . المؤلف / أبو الفخر المراغي . تحقيق / محمد عبد الجواد الأصمعى

١١	أطلس حافظ	الطبعة السابعة عشر ١٩٦٠م عمل / أحمد حافظ .
١٢	عمدة الأخبار في مدينة المختار	المؤلف / أحمد بن عبد الحميد العباسي
١٣	القاموس الأسلامي	مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م المؤلف / أحمد عطية الله
١٤	فتوح البلدان	مطبعة لجنة البيان العربي المؤلف / أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى
١٥	مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية	
١٦	إدارة الآثار والمتاحف	وزارة المعارف المملكة العربية السعودية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م
١٧	البداية والنهاية	مطبعة كردستان العلمية بمصر ١٣٤٨هـ . المؤلف / اسماعيل بن عمر القرشى الدمشقي بن كثير .
١٨	تقويم البلدان	دار صادر بيروت طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية ١٨٥٠ مسيحية . المؤلف / إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبى الفدا .
١٩	صفة جزيرة العرب	منشورات دار اليمامة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م . المؤلف / الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني . تحقيق/ محمد بن علي الأكوع الحوالي
٢٠	بلاد العرب	الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م . المؤلف / الحسن بن عبد الله الأصفهاني . تحقيق / حمد بن محمد الجاسر .
٢١	معجم شمال المملكة	منشورات دار اليمامة الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م . المؤلف / حمد بن محمد الجاسر
٢٢	معجم المنطقة الشرقية	منشورات دار اليمامة الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م . المؤلف / حمد بن محمد الجاسر

٢٣	في شمال غرب الجزيرة	منشورات دار اليمامة- الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م المؤلف / حمد بن محمد الجاسر
٢٤	في سراة غامد وزهران	منشورات دار اليمامة ١٣٩١- ١٩٧١م المؤلف / حمد الجاسر
٢٥	أطلس العالم	منشورات دار مكتبة لبنان- بيروت
٢٦	آثار البلاد وأخبار العباد	دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م المؤلف / زكريا بن محمد بن محمود القزويني
٢٧	معجم عالية نجد	منشورات دار اليمامة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م المؤلف / سعد بن عبد الله بن جنيدل
٢٨	معجم الأماكن الواردة في المعلقات العشر	إدارة الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١هـ - ١٩٩٠م . المؤلف / سعد بن عبد الله بن جنيدل
٢٩	بلاد الجوف أو دومة الجندل	الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م المؤلف / سعد بن عبد الله بن جنيدل
٣٠	أرض الأنبياء	الطبعة الأولى ١٩٦٢م . المؤلف / سنت جون فيلبى . تعريب / عمر الديراوى .
٣١	تاريخ حضرموت السيا	مطبعة مصطفى البابى وأولاده بمصر . الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م . المؤلف / صلاح البكر .
٣٢	معجم معالم الحجاز	الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م . المؤلف / عاتق بن غيث البلادى .
٣٣	على طريق الهجرة	دار مكتبة للنشر والتوزيع . المؤلف / عاتق بن غيث البلادى .
٣٤	الروض الأنف	المؤلف / عبد الرحمن السهيلي . المحقق / عبد الرحمن الوكيل .
٣٥	أثار المدينة المنورة	المكتبة السلفية بالمدينة المنورة . الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م . المؤلف / عبد القدوس الأنصاري .

٣٦	بين التاريخ والآثار	الطبعة الأولى- بيروت ١٩٦٩م . المؤلف / عبد القدوس الأنصاري
٣٧	معجم ما استعجم	مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م المؤلف / عبد الله بن عبد العريز البكري الاندلسى تحقيق / مصطفى السفا
٣٨	عنوان المجد في تاريخ نجد	طبعة وزارة المعارف- الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ المؤلف / عثمان بن عبد الله بن بشر .
٣٩	أسماء جبال تهامة وسكانها	مطبعة أمين عبد الرحمن بالقاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ المؤلف / عرام بن الأصبغ السلمى تحقيق / عبد السلام محمد هارون
٤٠	الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى	الطبعة الثانية عبد المنعم ماجد- على البنا
٤١	الكامل في التاريخ	طبعة دار صادر ودار بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م المؤلف / علي بن أبى الكرم بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير .
٤٢	وفاء الوفاء لأخبار دار المصطفى	مطبعة السعادة بمصر- الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م المؤلف / علي بن أحمد السمهوري تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد
٤٣	مروج الذهب	دار الأندلس- بيروت الطبعة الأولى المؤلف / علي بن الحسين بن علي السعودي
٤٤	الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين	مؤسسة علوم القرآن- بيروت المؤلف / علي محمد الأمين الشنقيطي
٤٥	تاريخ المدينة المنورة	المؤلف / عمر بن شبه النميري البصري تحقيق / فهيم محمد شلتوت
٤٦	النهاية في غريب الحديث والأثر	دار احياء الكتب العربية- عيسى البابلي الحلبي وشركاه- الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م المؤلف / المبارك بن محمد الجزري بن الأثير تحقيق/ طاهر أحمد الزواوى ومحمود محمد الطناحي

٤٧	رحلة بطوطة	دار صادر- دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٥هـ - ١٩٦٤م المؤلف / محمد بن غبراهيم اللواتي ابن بطوطة
٤٨	زاد المعاد في هدى خير العباد	الطبعة الخامسة عشر ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م مكتبة الرسالة ، مكتبة المنار الاسلامية المؤلف / محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ابن القيم تحقيق/ شعيب الأرنوط- عبد القادر الأرنوط
٤٩	رحلة ابن جبير	دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م المؤلف/ محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلس
٥٠	شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	دار احياء العربية ١٩٥٦م المؤلف / محمد بن أحمد بن علي الفاسى تحقيق / لجنة من كبار العلماء والأدباء .
٥١	التعريف بما آنست الهجرة من معالم الهجرة	المكتبة العلمية- المدينة المنورة طبعة بيروت- ١٤٠٢هـ المؤلف / محمد بن أحمد المطرى
٥٢	أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه	الطبعة الثانية- مطبعة دار خضر بيروت- ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م المؤلف / محمد بن أسحاق بن العباس الفاكهي تحقيق/ عبد لملك بن عبد الله بن دهيش
٥٣	الطبقات الكبرى لابن سعد	دار صادر- ودار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م المؤلف / محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى
٥٤	أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار	مطابع دار الثقافة- مكة المكرمة الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م المؤلف / محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي تحقيق / رشدي الصالح ملحس
٥٥	صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار	مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م المؤلف / محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي
٥٦	السيرة النبوية	مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م المؤلف/ محمد بن عبد الملك بن هشام الحميري تحقيق / مصطفى السفا وزملائه

٥٧	كتاب المغازي للواقدي	طبعة عالم الكتب- الطبعة الثالثة بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م المؤلف / محمد بن عمر بن واقد تحقيق / مارسدن جونس
٥٨	تاريخ الدورة العلية العثمانية	دار الجيل- بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م المؤلف / محمد فريد بك المحامي
٥٩	الروض المعطار في خبر الأقطار	مطابع هيد الأبرغ- بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٤م المؤلف / محمد بن محمد الحميري تحقيق / احسان عباس
٦٠	الدرة الثمينة في تاريخ المدينة	دار احياء الكتب العربية ١٩٥٦م المؤلف / محمد بن محمود بن النجار
٦١	تاج العروس من جواهر القاموس	المطبعة الخيرية في مصر الطبعة الأولى ١٣٠٦هـ المؤلف / محمد مرتضى الحسينى الزبيدى
٦٢	المغانم المطابة في معالم طابه	منشورات دار اليمامة- الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م المؤلف / محمد بن يعقوب الفيروز أبادى تحقيق / حمد الجاسر
٦٣	التعليقات والنوادر	الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م المؤلف / هارون بن زكريا الهجري دراسة واختيارات / حمد الجاسر
٦٤	أبو علي الهجرى وأبحاثه في تحديد المواضع	منشورات دار اليمامة- الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م المؤلف / هارون بن زكريا الهجري بقلم / حمد الجاسر
٦٥	المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي	الجزء الثامن ١٩٨٨م المؤلف / ويم رافن ويان يوست ويتكام
٦٦	معجم البلدان	دار صادر ، ودار بيروت للطباعة بيروت ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م المؤلف / ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادي


فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضـــــــوع	رقم الصفحة

باب النون

باب الواو

باب الياء